

رواية

ذاكرة مدينة منقرضة

زهدي الداودي

ذاكرة مدينة منقرضة



حكومة إقليم كوردستان

وزارة الثقافة

المديرية العامة للصحافة والطبع والنشر

مديرية الطبع والنشر -السليمانية-



بەڕێوەبەرێتیی

چاپ و بڵاوکردنەوەی

سلێمانی

ذاكرة مدينة منقرضة

زهدى الداودي

سليمانية
٢٠١٠

ذاكرة مدينة منقرضة

تأليف: زهدي الداودي

الموضوع: الرواية

كومبيوتر: المؤلف

التنقيح و التصحيح: باسم حسون

التصميم: نەورۆز جمال

تصميم الغلاف: جبار صابر

مشرف الكتاب: كارزان عبدالله

تسلسل العام للكتب: (٧٢٢)

عدد النسخ المطبوعة: (٥٠٠) عدد

المطبعة: (كەمال)

السعر: (٣٠٠٠) دينار

رقم الايداع (١٢١٨) لسنة ٢٠١٠ / تم منحه من قبل وزارة الثقافة.

مديرية الطبع و النشر-السليمانية-

العنوان : تل المهندسين – مقابل صحيفة كوردستانى نوى

رقم التلفون : ٣١٨٠٩٩٤

(١)

كانوا ثلاثة أصدقاء. أصدقاء جمعتهم ذات يوم قنينة عرق مغشوش.

كانت القنينة تجمعهم عندما تكون مملوءة. وما أن تترك القطرة الأخيرة فوهة القنينة إلا ويبدأ الفراق. يذهب كل واحد منهم في طريقه دون أن يعلم أحد منهم إلى أين. هكذا عاشوا لحين من الدهر ودون أن يعلم أحد شيئا عن تقويم هذا الدهر، أهو أسابيع، أيام، أشهر، سنوات أم قرون. المهم أنهم كانوا يتصادقون ويتخاصمون، يتخاصمون إلى حد الضرب بالأحذية والنعل. وحين يهدؤون يبدأ العناق وذرف الدموع واستعادة الأمجاد والإخلاص والصداقة الأبدية التي لا بداية لها ولا نهاية، في عرفهم طبعا.

كان كل واحد منهم قد درس وتعلم على طريقته الخاصة. وهذه الطريقة تبقى خاصة دون أن يسمح أحدهم لنفسه بالتطرق إلى تفاصيلها. ربما تسمح لهم الظروف ذات يوم بالتعرف على تلك التفاصيل. المهم أنهم درسوا وتعلموا وأصبحوا أصحاب سبع صنائع، بيد أن البخت ضائع. وهم أنفسهم يؤكدون، طبعا في حالة نشوة السكر، بأنهم ليسوا إمعة. وأن بإمكانهم القيام بجليل الأعمال، إن أرادوا ذلك. ولكن، هل هذه الحياة الفانية تستأهل كل هذا التعب؟

في آخر لقاء لهم في عرين الأسد، وعرين الأسد هذا عبارة عن مزار يحتوي على قبرين ويقع على طرف مقبرة المدينة المسيجة حديثا، تبين لهم أن أي واحد منهم لم يجلب قنينة العرق المعتادة. كان كل واحد، منهم، في ما يخص هذه المسالة، يعتمد على الآخر. على أن كلّ واحد منهم، حاول الحصول على قنينة من بائع العرق دنخة ديناً كالعادة، بيد أن هذا، على غير عادته، سحب من وراء أحد الرفوف بندقية صيد وهدد بقتله مثل اي كلب إن لم ينصرف قائلا إنهم يجب أن يسددوا أولا الديون المتراكمة عليهم. ويبدو أن دنخة قد أهدى قنينة ويسكي بريطاني أصلي إلى رئيس البلدية الذي خوله بقتل أي واحد يريد ابتزازه. ولكن من أين حصل دنخة الأعور على بندقية الصيد هذه التي أخفاها وراء أحد الرفوف؟ ربما أعارها له رئيس البلدية نفسه، من يدري؟ هذا موضوع غير مهم الآن. المهم أنه يملك بندقية تحيل دون ابتزازه. وهذا يعني أن باب الحصول على قنينة العرق قد أوصد أمامهم وأن عليهم أن يفكروا تفكيرا جديا في الحصول على حليب الأسد الذي بدونه لا قيمة لعرين الأسد. وانهم إن لم يحلوا هذه المشكلة فربما يأتيهم غدا أحدهم مدعيا أنه من مسئولي البلدية، فيمنعهم حتى من السكن هنا في عرين الأسد أيضا. كل شئ ممكن في هذا الزمن اللعين.

بعد مناقشة قصيرة قرروا أن يضعوا خطة مفصلة لحياتهم الجديدة ومستقبلهم، إذ أن الظروف الجديدة تضعهم أمام مهمات تتلاءم مع الوضع الجديد. وحين أرادوا البدء بمناقشة الخطة، تبين لهم أنهم بحاجة ماسة إلى قنينة عرق يحرك تفكيرهم، وإلا فانهم سيظلون يدورون في حلقة مفرغة دون أن يصلوا إلى نتيجة.

" صحيح ورب الكعبة، لا خطة بدون قنينة حليب الأسد". علق شمس الدين.

لماذا يسمون مكانهم هذا بعرين الأسد إذاً، إن لم يكن سكنته اسود؟

الساعة الآن تشير إلى منتصف الليل. المدينة نائمة. وهي تنام عادة قبل ساعة من هذا الوقت. قال شمس الدين الذي سبق له قبل أعوام أن قضى سنتين في السجن بسبب السطو على أحد البيوت، أن الوسيلة الوحيدة للحصول على العرق هو السطو على حانوت دنخة الأعور، دون إحداث أضرار كبيرة فيه. أما كيفية اقتحام الحانوت فهذه مسالة يتحملها وحده، كل ما في الأمر هو الانصياع لأوامره. ولما كان الآخران يعرفانه جيدا، لذا وافقا أن ينفذا أوامره دون أي اعتراض. تناول شمس الدين من إحدى زوايا العرين قضيبا حديديا وحمل الفانوس وأومأ إليهما أن يتبعانه. ضحك خير الدين بسخرية معلقا:

" هل انت مجنون يا رجل؟ نذهب إلى السرقة بفانوس؟"

وقف شمس الدين في مكانه وقال بحدة إنه إذا سمع أي تعليق آخر فانه سيعدل عن الفكرة ويذهب إلى شأنه، ثم طلب إليهما أن لا يفتحا فمهما طيلة الوقت. إنه قائد العملية وكفى. وإذا كان هناك من لا يعترف بقيادته فإنه سيترك الشلة فورا. وساروا بصمت باتجاه مركز المدينة حيث الأسواق والمحلات التجارية والفنادق والدوائر الحكومية. كانت أضواء المصابيح الباهتة عبثا تحاول اجتياح الظلام المنسدل على أزقة وشوارع المدينة. عند رأس الزقاق المطل على شارع الأسواق، تصدى لهم خفير سائلا عن وجهتهم، فأجابه شمس الدين بأنهم في طريقهم إلى بيت دنخة الأعور.

" ولكن دنخة لا يبيع العرق في مثل هذا الوقت"

قال شمس الدين بسخرية رافعا فانوسه في وجه الخفير:

" وهل يبدو علينا أننا من صعاليك العرق الحرام يا أبا إسماعيل؟ نحن نحتاج إلى زوجته القابلة. الحرمة داهمتها الأوجاع"

انصرف الخفير مؤكدا أنه لا يعرف بأن زوجة دنخة قابلة ثم علق:

" بيها الخير إن شاء الله "

هذا هو حانوت دنخه يطل عليه مصباح يغمر واجهته بنور قوي. قادهما شمس الدين إلى زاوية مظلمة واحتمى هو وراء عمود. ناول الفانوس لأحدهما وأخرج من جيبه مقلاعا لصيد العصافير. سحب حمالة الحجر بهدوء، وبعد أن وضع فيها كرة زجاجية، أطلقها باتجاه المصباح الذي أحدث انفجاره صوتا خافتا، أزال بقعة النور من أمام واجهة الحانوت:

" أنتما ستبقيان واقفين هنا متباعدين عن بعضكما، وعندما أدخل انا الدكان بعد فتح الباب، تكون أنت يا خيرالدين وراء العمود القريب من الدكان. حين تسمع صوت صفيري الذي يشبه صفير البوم تعرف بأنني انتهيت من المهمة وأريد أن أترك المحل. وإذا كان المكان خاليا تماما تشعل ولاعتك. عند ذلك آتي إليكما"

قال شرف الدين، حامل الفانوس:

" والفانوس، ماذا افعل به؟"

قال شمس الدين وهو يهرع باتجاه الحانوت:

" يظل مشتعلا وإذا تصدى لك أحدهم قل بأنك حارس ليلي خاص. لا تنس كلمة خاص، إنها ضرورية لصيانتكما"

عندما اختفى شمس الدين في الظلام الدامس، قال خيرالدين لصاحبه شرف الدين بصوت خافت:

" هل كنت تعرف بأن شمس الدين سبع الليل؟"

" كيف لي أن أعرف ذلك إذا كنا مشغولين دوما بالخصومات التافهة. إنه فعلا لا يقتحم"

واتخذ كل واحد منهما مكانه الذي حدده لهما شمس الدين، وهو يفكر في العرق الذي سيشيع النشوة في أعصابه في عرين الأسد.

وإذ هو يعالج فتح الباب بالقضيب الحديدي المعد لهذا الغرض، تذكر شمس الدين كلامه الذي قاله في التحقيق لمفوض الشرطة الذي نصحه أن يعترف قبل أن يكسروا ضلوعه:

"اكبر باب لا يستعصي عليّ فتحه يا سيدي".

" النجاة في الصدق يا شمس الدين وإلا أحرق جلدك إذا لم تعترف. الاعتراف يخفف من حكمك امام المحكمة، فترجع إلى بيتك في وقت مبكر جدا. بدلا من قضاء أربع سنوات على لا شيء. هناك ستبقى سنتين وبضعة اشهر. فكر جيدا يا ابني، انا أريد مصلحتك ولاشك أنك صاحب عائلة"

لا عائلة ولا هم يحزنون. إنه إذا اعترف بكل شيء، فليس من أجل العودة المبكرة إلى بيته المزعوم الذي لا وجود له إلا في خيال الموظف، بل خوفا من التعذيب الذي لا يتحمله جلده، انه يعرف جيدا بأن مفوض الشرطة لا يمزح معه. ورأى أن الحياة في السجن الذي هو فندق مجاني أشرف له بكثير من الحياة في عرين الأسد المحكوم بالجوع وقسوة الطقس. ولهذا فانه الآن لا يخاف من ان يلقى عليه القبض. كل ما في الأمر انه سيتلقى عند ذلك عدة ركلات على مؤخرته وكفخات على رأسه من أفراد الشرطة. ثم يعترف على كل شئ ويعلن ندمه ويؤكد أن سبب السرقة هو الجوع القاتل الذي سيظل هذه المرة يتحمله بإرادة قوية.

اعتادت عيناه على ظلام المكان الذي يتسرب إليه النور الباهت القادم من النافذة المطلة على الشارع. التقط عدة قناني وعلب سجاير أجنبية واكياس جرزات صغيرة من رفوف مختلفة ووضعها في الكيس الذي يحمله دائما في جيبه. وراح يبحث عن البندقية في الظلام الدامس بالجانب الخلفي من الحانوت. اضطر أن يشعل المصباح اليدوي الصغير لعدة ثوان، فتمكن بذلك من رؤية اخمص البندقية الموضوعة على رف خلفي. وعثر على حزام الخراطيش المندس بين مجموعة كبيرة من المواد العينية التي لا شك أنها

تعود إلى مدمنين مطلوبين لم يتمكنوا من تسديد ديونهم نقدا. تنكب البندقية وشد الحزام على خصره. وراح يطلق صفير البوم المتفق عليه من فتحة الباب. وحين رأى ضوء الولاعة التي أشعلها صاحبه شرف الدين، ترك الحانوت بخفة، مطبقا وراءه الباب. وتوجهوا بصمت إلى الزقاق المظلم الذي يؤدي إلى المقبرة. لم يتمكن خيرالدين من ضبط نفسه من الفرح تجاه هذه العملية الخاطفة التي تمت بنجاح باهر وقال:

" لقد أبدعت يا شمس الدين"

قال شمس الدين محذرا بصوت خافت:

" بدون تعليق رجاء، العملية لم تنته بعد"

وبعد مسيرة قصيرة أضاف بأن العملية تعتبر منتهية عندما يصلون إلى عرين الأسد، عند ذلك يمكنهم أخذ حريتهم في الكلام.

بعد مسيرة غير قصيرة في الظلام الدامس وصلوا العرين.

الآن يمكنهم مناقشة الخطة برأس حار وأعصاب باردة. استعرض شمس الدين القناني واحدة بعد أخرى وهو يريهم أوراق العلامات التجارية الملتصقة بالقنينة: ويسكي، براندي، زحلاوي، مستكي، فودكا، شراب أحمر وأبيض وراكي اليوناني الخ.

"اختاروا ما يعجبكم"

ولم ينس أن يتوج غنائمه بأكياس من جبس البطاطا للمزة. ثم مد يده إلى قنينة الويسكي بلاك أند وايت الإنكليزي وهو يحاول فتحها قائلا:

" هذا اليوم راح نشتغل بالسياسة ونشرب ويسكي ونلعن ابو الإنكليز. هل سبق لكم أن رايتم في حياتكم مثل هذه القنينة؟"

تساءل شرف الدين ما إذا كانت هذه الشتيمة شتيمة حب أم كراهية؟

أجاب شمس الدين وهو يقرب فوهة القنينة من أنفه:

" مثل ما يعجبك يا حبيبي، إنها شتيمة مجازية"

سأل خير الدين ما إذا كان للويسكي علاقة بالسياسة. أجاب شمس الدين فورا بأن من يشرب الويسكي يجب أن يكون سياسيا وأن السياسي لا يمكن أن يكون سياسيا بدون الويسكي. إن السياسة والويسكي توأم.

يبدو أن قنينة الويسكي قد أثرت تأثيرا كبيرا على شمس الدين وحركت ذهنه قبل أن يتذوق محتواها، إذ وجد نفسه فجأة أمام كومة من الأفكار والمشاريع التي بدأت تتزاحم وتتلاطم في ذهنه ومما توقف عنده بجد هو مشكلة تخاصمهم وافتراقهم بعد أن تفرغ القنينة من محتواها، بحيث يذهب كل واحد منهم في طريقه شاكيا متذمرا دون أن يعرف أحدهم شيئا عن الآخر. قال، متكئا على القبر، وهو يصب الويسكي في الكؤوس الثلاث المرصوفة جنب بعضها على الأرض:

" هل تريدان أن نبدأ حياة جديدة تخلصنا من التشرد والبؤس والجوع والعرق المغشوش؟"

أجابا بصوت واحد وهما ممتلئان بثقة غريبة لإمكانات صاحبهما بنعم ثم راح كل واحد منهم يبدي تذمره من طريقة عيشهم التي هي أسوأ من معيشة الكلاب السائبة، ولكن ما العمل إذا كانت أبواب الرزق مسدودة في وجوههم. كان شمس الدين قد توصل خلال صبه الويسكي إلى العلة في بقائهم على هذا الوضع المشتت، فطلب إليهما أن ينصتا إليه بكل جوارحهما، لأنه يريد أن ينطق كلاما حاسما قبل ارتشاف الجرعة الأولى من الويسكي. قالا بصوت واحد:

" سمعا وطاعة يا شمس الدين، إننا لن ننسى عملك البطولي الذي أثمر كل هذه الطيبات الموضوعة أمامنا، تكلم ونحن تحت أمرك"

رأى شمس الدين أنه من المستحسن أن يرجئ اقتراحه إلى ما بعد ارتشاف الجرعة الأولى، رفع كأسه باعتزاز:

" والآن نخب انتصارنا الأول"

.. انتصارنا الأول..

..انتصارنا الأول..

وقرعت الكؤوس التي أفرغت دفعة واحدة.

ظن شرف الدين أن شمس الدين قد نسي كلامه، فنبهه بأنهما ما زالا بانتظار ما يقوله. أكد له شمس الدين بأنه لم ينس كلامه، بل أجله إلى ما بعد الرشفة الأولى والآن:

" انظروا، نحن الثلاثة أصدقاء منذ الأزل كنا دوما نتضارب ونتصالح من جديد، أثبتت الأيام إخلاصنا اللامتناهي لبعضنا بعضاً. نحن شلة و جماعة واحدة، ولكن بدون رأس. هل توافقان على أن أكون أنا مسؤول الشلة؟"

أجابا بصوت واحد:

" بالطبع يا شمس الدين"

" هل أنتما مستعدان لتطبيق أوامري بدون أية مناقشة؟"

" بالطبع يا شمس الدين"

" هل أنتما مستعدان للذهاب معي إلى الجحيم؟"

" بالطبع يا شمس الدين"

" هل أنتما مستعدان لقتل أي إنسان أكلفكما به؟"

" بالطبع يا شمس الدين"

قال شمس الدين بعد أن ارتشفوا الجرعة الثانية:

" سنبدأ من هنا. وقبل أن نبدأ يكون شعارنا إما العيش في بذخ أو الموت"

" البذخ أو الموت.. البذخ أو الموت ومن غشنا ليس منا"

وأقسموا بالله العظيم أن لا يخونوا بعضهم بعضاً والذي يخون سيكون مصيره القتل.

(٢)

عندما استيقظوا في اليوم الثاني، فكروا أنهم بملابسهم البالية هذه لا يمكنهم أن يخطوا خطوة واحدة على طريق تنفيذ خططهم التي اتفقوا عليها في الليلة الفائتة. وقال شمس الدين انهم إذا لم يحصلوا على ملابس جديدة محترمة، فان كلامهم الذي اتفقوا عليه ليلة أمس سيمحوه النهار. وأنهم بهذه الملابس لن يتمكنوا حتى من المرور من أمام باب دار رئاسة البلدية. ولما كانوا لا يملكون شروى نقير، لذا فكروا في إيجاد طريقة توصلهم للحصول على بغيتهم في أسرع وقت ممكن. قال شمس الدين بعد فترة صمت غير قصيرة، محاولا بث روح الأمل في نفسيهما بعد أن أحس بالخيبة التي يعانيان منها:

" انظرا، إن كل بداية صعبة، ولكننا سنتمكن من التغلب على الصعوبات باستعمال عقلنا الذي يجب أن نوظفه على نحو جيد"

ابتسم الاثنان وأحسا كما لو أنهما استيقظا من نوم عميق. وصاح خير الدين كمن عثر على شئ ثمين:

" وجدتها "

علق شمس الدين:

" لنر كيف تستخدم عقلك يا خير الدين، ضع ما وجدته أمامنا إذاً "

قام خير الدين من مكانه وهو يدور حول نفسه راقصا مبتهجا قائلا:

" إننا يجب أن نبدأ من اضعف نقطة. إن دنخه الآن مصاب بالاندحار والحزن والكآبة ويائس من الحياة، نذهب إليه فورا ونواسيه في محنته ونتعهد له بحماية محله ليلا ونهارا لقاء مساعدته لنا بمبلغ من المال "

قاطعه شرف الدين قائلا:

" وإذا رفض عرضنا؟"

" إنه لا يثق بالشرطة بدليل أنه يكرر دائما عبارة حاميها حراميها، وأما إذا رفض طلبنا، فإننا سنهدده بأن العملية ستتكرر على نحو ابشع"

قال شمس الدين وهو غارق في تفكير عميق:

" فكرة لا بأس بها، ولكنها بحاجة إلى دراسة"

ثم أومأ إلى شرف الدين أن يبدي رأيه بخصوص الموضوع.

قال شرف الدين إن أول ما يحتاجونه هو ملابس جديدة بدليل أن الملابس تخلق الهيبة في الرجال، فهل يتمكن دنخة أن يدبر لهم هذا المطلب. علق خير الدين من مكانه أنهم ليسوا بحاجة إلى تجشم عناء الذهاب إلى دنخة المنكوب. يمكنهم بيع البندقية وشراء الملابس.

قال شمس الدين أن رمي الثقل كله على دنخة عملية غير إنسانية وغير واقعية، فقد اخذنا منه ما يكفي. ثم اننا إذا ذهبنا إليه يمكن أن تفضح المسألة فتبدو كما لو أن المجرم يحوم حول جريمته. أيد شرف الدين كلام شمس الدين واقترح أن يذهبوا إلى الخياط ايوب ويهددوه بأسلوب غير مباشر، هذا في حالة عدم تمكنهم من بيع البندقية. اعترض شمس الدين على النقطتين، الأولى بيع البندقية لكونها ضرورية لهم والثانية تهديد الخياط ايوب، إذ أن له صلة قوية برؤساء العشائر. ورأى انهم من الأفضل أن يذهبوا إليه ويطلبوا منه مساعدتهم ببيع ثلاث بدلات وتأجيل دفع المبلغ إلى وقت آخر. ويمكن توديع البندقية عنده كرهن.

كانت المقبرة خالية سوى من كلب سائب يعوي بصورة متقطعة، حين اتخذوا طريقهم صوب المدينة التي تفصلها عن المقبرة هضبة واسعة تحاذيها حقول المخضرات وبساتين أشجار الفواكه والنخيل. وقرروا كالعادة أن يتكلم شمس الدين باسمهم على أن يلوذ كل من خير الدين وشرف الدين بالصمت ولا يتكلما إلا إذا طلب منهما ذلك.

كان الخياط أيوب يعرف شمس الدين جيدا، إذ تعرف عليه في السجن، حيث حكم عليه لمدة ستة اشهر بسبب شتمه الباشا أمام أحد الزبائن الذي كان يعمل في جهاز الشرطة السرية. ولما لم يعثر القاضي على مادة بهذا الخصوص تسمح له بفرض العقوبة عليه، لذا حكم عليه بمادة سرقة القماش الجيد من الزبون والتعويض عنه بالقماش الرديء. وكان أن نعته أحد المحكومين الشرسين بالخياط الحرامي. وكان أن أدبه شمس الدين بعلقة محترمة، بعد أن شرح الخياط له وضعه بألم. استقبلهم الخياط بحفاوة بالغة. وبعد أن تحدثا عن ذكرياتهما في السجن، قال شمس الدين انه قرر أن يبدأ حياة جديدة مع صديقيه القريبين وإنه بحاجة إلى ثلاث بدلات جديدة، ولما لم يكن بإمكانه حاليا دفع المبلغ فورا، فإنه سيترك عنده البندقية كرهن لحين توفر المبلغ المطلوب. حلف الخياط بطلاقه أنه لن يستلم منه البندقية ولن يخرجوا من هنا قبل أن يرتدوا الملابس الجاهزة التي خاطها وجهزها لبعض شيوخ العشائر. ولما عاهده شمس الدين بأنه سيحصل على مستحقاته في اقرب فرصة ممكنة، عاتبه الخياط قائلا إنه لا يريد أن يسمع منه مثل هذا الكلام مرة أخرى. وتم تبديل الملابس في غرفة خلفية. ووقف كل واحد منهم أمام المرآة الكبيرة المعلقة على الجدار وهو لا يصدق عينيه. وفي تلك اللحظة جرى توزيع المسئوليات: شمس الدين، شيخ العشيرة" خير الدين، المرافق الأول" شرف الدين، المرافق الثاني. وعرف الخياط أيوب بغريزته أن صاحبه شمس الدين مقدم على مشروع خطير ومهم، وانه إذا أراد شيئا، فبإمكانه

تحقيقه، ولذلك أكد له في معرض كلامه، بأنه مستعد أن يساعده بكل ما يملك من الإمكانيات. فالأمر بسيط، إذ أنه صديق حميم، فما عليه إلا أن يفاتحه بالموضوع. قال شمس الدين إن ثقته عالية به ولولاها لما أتى إليه. وقبل أن يتركوا محل الخياط أيوب، حاول شمس الدين مرارا وتكرار ترك البندقية عنده كرهن، بيد انه رفض ذلك رفضا قاطعا.

" الآن لا يعوزنا سوى النقود "

قال ذلك خير الدين وهو ينتظر حلاً من صاحبيه لا سيما من شمس الدين. كان شمس الدين هو الآخر يفكر في الموضوع نفسه، إنهم لا يتمكنون من التحرك بدون النقود. قدحت في ذهن شمس الدين فكرة المرور على محل دنخة للاطلاع على وضعه ومزاجه، فعسى ولعل يأتي ببعضها. وتشاوروا فيما بينهم على أن يكونوا حذرين في كلامهم معه.

كانت علائم الأسى والحزن ما زالت تغطي ملامح وجه دنخة الذي راح يجيل نظراته بشك وريبة في وجوه الثلاثة الذين كانوا يحدقون فيه ببشاشة ملحوظة. بدت له الوجوه غير غريبة، بيد أن الملابس الجديدة شوشت عليه تفكيره وراح يشغله لمعرفة هذه الوجوه الثلاثة التي تبدو أنها من طبقة المرفهين. وتساءل في ذهنه عن سبب مجيئهم إليه. ليس من المعقول أنهم جاءوا كي يشتروا منه الخمر في مثل هذا الوقت. ثم لماذا لم يبعثوا خادمهم للقيام بالمهمة. إنهم لا شك إقطاعيون. ويمكن للمرء أن يتوقع منهم كل شيء. يا يسوع المسيح رحمتك، ألا يكفي ما حصل لي في الليلة الفائتة؟ رحمتك يا يسوع المسيح..أحس شمس الدين أن دنخة لم يتعرف عليهم، ولا شك أن صدمة واقعة الليلة الفائتة قد شوهت جملته العصبية وأفسدت عليه تفكيره. قبل أن يسلموا عليه، نبه خير الدين صاحبه شرف الدين أن يخفي البندقية تحت العباءة بشكل جيد. قال شمس الدين وهو يصافح دنخة ويعانقه بود:

" هل نسيتنا أيها الأخ دنخة؟ إننا أصحابك. جئنا نواسيك لمصابك، ونضع خدمتنا تحت تصرفك. إننا نعاهدك بأننا سوف ننتقم من اللصوص"

قال دنخة كالمأخوذ:

" وماذا يفيدني الانتقام؟ إنهم أخذوا البندقية وهجموا بيتي. إنها ليست ملكي، بل ملك رئيس البلدية الذي أعارني إياها لتخويف بعض النصابين، كل شيء يهون عدا البندقية"

تبادل الثلاثة النظرات التي تقول أن حدسهم بما يتعلق بالبندقية كان صحيحا، لذلك ينبغي التخلص منها بأي ثمن كان.

فتح دنخة باب مصطبة المشتريات، راجيا منهم أن يتخذوا أماكنهم على الكراسي المتواضعة. جلس شمس الدين على الكرسي الأول في حين اتخذ صاحباه مكانيهما خلفه واقفين وهما يمثلان دور الحماية. وتأكد شمس الدين إنه لم يزل لم يتعرف عليهم بعد، الأمر الذي شجعه على أن يلعب دور حامي الحماة. وقبل أن يبدأ شمس الدين كلامه، قال دنخة بلهجة عتاب وخيبة واضحة:

" تصور يا محفوظ السلامة لم يحضر حتى الآن شرطي واحد، رغم تسجيلي الدعوى منذ الصباح الباكر، هل هذه دولة؟ أم ولاية بطيخ أو خان جغان؟ الا تقل لي لمن نشتكي حالنا؟"

تنفس شمس الدين الصعداء وقال وهو يضع يمناه على يسراه:

" إنها فعلا ولاية بطيخ يا أخي دنخة، ولكن.. ولا يهمك. إن الأمور ليست تائهة. إن رجالنا الليليين سوف يعرفون شغلهم من الآن فصاعدا. إننا تمكنا مثلا أن نتعقب اللصوص الذين داهموا دكانك ليلة أمس وجرى تبادل إطلاق الرصاص بين رجالنا واللصوص. ولم يتركهم رجالنا إلا بعد أن استولوا على بندقية. وإذا كانت البندقية تعود لك، فإننا سنعيدها لك على الرحب والسعة"

قفز دنخة من مكانه صائحا:

" دخيلك يا محفوظ السلامة، اعد لي البندقية اعطيك كل ما تريده"

قال شمس الدين مبتسما بلهجة المنتصر:

" عيب يا دنخة، نحن إخوان. هذا حقك، حرام ان نأخذ منك شيئا. إن واجبنا هو حماية الضعفاء لا اكثر. وإذا كانت ثمة خسائر اخرى فأرجو ان تعمل بها قائمة كي نطالب بها اللصوص. إننا نعرفهم جميعا وسوف لا يفلتون من العقاب "

احس دنخة براحة داخلية وطمأنينة أعادت له توازنه الداخلي. وقال ان الخسائر الأخرى ليست مهمة، المهم هو انهم يتكفلون حمايته، إذ إن الدولة لا يمكن الاعتماد عليها، إنها حاميها وحراميها.

التفت شمس الدين بكبرياء إلى شرف الدين وطلب منه أن يعطيه البندقية. انحنى الأخير مقدما له البندقية وقائلا:

" أمرك يا مولاي "

قال شمس الدين وهو يريها لدنخة:

" هل هذه هي بندقيتك؟"

احتضن دنخة البندقية وبدأ يقبل شمس الدين من كتفيه مقدما له آيات الشكر والامتنان. واصل شمس الدين كلامه قائلا إنه من الآن فصاعدا يجب أن ينام مرتاح البال، فإنه سيحميه كما يحمي حدقتي عينيه وإذا كانت لديه مشاكل مع بعض الزبائن، فما عليه إلا أن يذكر له أسماءهم. قال دنخة وهو لا يزال يحتضن البندقية:

" انظر يا محفوظ السلامة، إن هذه البندقية هي حياتي. إنك قد أعدتني إياها ولذلك سأقدم هدية متواضعة إلى رجالكم الذين انتزعوها من أيدي اللصوص، أرجو أن تتقبلها مني. وإني، اعتبارا من الآن فصاعدا، اعتبرك عضيدي الأوحد "

قال شمس الدين بكبرياء:

" إنك تحرجني يا أخي دنخة. تعرف أن الهدية لا ترد. على أي حال أعط ما تشاء لمرافقي حامل البندقية، فهو سيسلمها لرجالنا الشجعان "

أخرج دنخة من القاصة الحديدية مبلغ مائة دينار، ثمن البندقية، وقدمه إلى شرف الدين. وحين هم الثلاثة بترك المحل، وضع دنخة عدة قناني مع معدات المزة في كيس سلمه إلى خير الدين. وتظاهر شمس الدين كما لو أنه لم يلاحظ شيئا. ظل دنخه واقفا وهو يراقبهم بعينيه النفاذتين وخبرته الطويلة مع أنواع الزبائن. أوحت له حاسته السادسة بأن هؤلاء هم الذين سطوا على محله وانهم هم الذين يمكنهم أن يوفروا له ولمحله الأمان والطمأنينة.

(٣)

عندما تركوا المحل، تنفسوا الصعداء وهم لا يصدقون أنفسهم. طلب منهما شمس الدين بكبرياء مصطنع وهو يتقدمهما كأي رئيس قبيلة بأن لا يلتفتا إلى الوراء ولا يتكلما، بل عليهم التوجه إلى أقرب مطعم للكباب. وهناك يمكنهم أن يتكلموا كما يشاءون. ومروا بصف من الدكاكين والحوانيت والمقاهي. وكان المارة يفسحون لهم الطريق المزدحم ملتفتين إليهم بهيبة واحترام. أراد خير الدين أن يقول: انظروا ما فعلت الملابس الجديدة يا أصحاب، ولكنه وجد من المستحسن أن لا يخالف نصيحة شمس الدين الذي نصب نفسه رئيسا عليهما باستحقاق. نبههما شمس الدين إلى وجود مطعم قريب يشتهر بكبابه الجيد، صاحبه رجل سوري. كان أيام زمان يتمنى أن يجلس في أحد أركانه ويتناول وجبة كباب دسمة حتى الامتلاء، ويرتشف بعده الشاي الحلو اللذيذ. واليوم ستتحقق الأمنية ليست بالنسبة له فحسب، بل للشلة أيضا والتي لم تحلم حتى بمثل هذه الأمنية. وقبل أن يكمل شمس الدين أفكاره المنبعثة من معدته، هبت عليهم رائحة الشواء اللذيذة، التي فتحت ذاكرته على لافتة معلقة على محل السوري كتبت عليها:

" قف وادخل. كباب سوري لصاحبه سالم الجريبوع".

وعندما .وقفوا أمام اللوحة، يدققون في الخط الرقعي، ظهر صاحب المحل أمامهم ليحثهم على الدخول للاستمتاع بأكلة الكباب اللذيذ الذي قال عنه إنه لا يتناوله سوى الشيوخ ولا مثيل له في كل البلاد. قادهم صاحب المطعم إلى ركن مطل على ساحة دار البلدية المحاذية للشارع العام بواجهة زجاجية جميلة، يعزل الركن حاجز خشبي عن بقية الزبائن. وعرف شمس الدين أن هذا الركن خاص برؤساء العشائر، لا سيما أن صاحب المطعم بدأ يكلمه بتكرار ذكر عبارة (يا محفوظ السلامة) التي لا تطلق إلا على الشيوخ الإقطاعيين. ولم يتمكن صاحب المطعم من إخفاء سروره واغتباطه لوجود إقطاعي بين زبائنه، إذ أن مثل هذه الشخصية تضفي حماية خاصة وسمعة كبيرة على المطعم. ولتثبيت هاتين المهمتين، نبههم بأنهم لمناسبة دخولهم هذا المكان لأول مرة، يعتبرون ضيوفه وأن حسابهم مدفوع مقدما. شكره شمس الدين باسم عشيرته قابلا دعوته بالرحب والسعة ومؤكدا له أنه سيضع مطعمه ضمن منطقة حمايته. وإذا صادف أن خلق له أحدهم مشكلة ما، فعليه الاتصال بالخياط أيوب وإيصاله الخبر. وأما في الليل فعليه أن يعتبر مطعمه تحت الحراسة التامة من الآن فصاعدا.

قال صحب المحل مبتهجا:

" بارك الله فيك يا محفوظ السلامة، إن السطو على محل بائع الخمور دنخة قد افقدنا صوابنا. نحن فعلا بحاجة إلى حمايتكم. وسنقوم بالواجب حسب الأصول مقابل هذه الحماية "

علق شمس الدين بكبرياء:

" لا داعي للخوف يا أخي سالم. على فكرة القينا القبض على اللصوص الذين سطو على محل دنخة وصادرنا الأموال المسروقة وارجعناها كلها إلى صاحبها الشرعي دنخة. وأما الشرطة فنائمة في أذن الحمار. بالمناسبة كنا عند دنخة قبل قليل "

قبل سالم الجربوع كتفيه قائلا:

" والله كلامكم صحيح يا محفوظ السلامة. انا الآن مطمئن على حياتي ومالي يا محفوظ السلامة. هذا المكان بيتكم وانتم ضيوفنا دوما"

وقبل أن تصل وجبة الكباب الرئيسة، عمرت المائدة بأقراص الخبز الحار وأنواع السلاطة والمشهيات. وتركهم صاحب المحل سالم كي يأخذوا حريتهم وراحتهم في تذوق الطيبات والاستمتاع بها وهو يفكر في أسماء بعض الأشقياء الذين اعتادوا أن يشبعوا عنده دون دفع الحساب.

عندما شبعوا ورخوا أحزمتهم وشربوا الشاي، مسح شمس الدين شاربيه بعناية وهو يتخيل نفسه فعلا شيخا محترما لعشيرة، ولكن، قال في نفسه، انه شيخ لعشيرة لا يتجاوز تعدادها النفرين. ولكن كيف كانت ستكون أموره يا ترى لو كانت ثمة فعلا عشيرة تحت إمرته؟ وأجاب نفسه عن سؤاله بصوت عال:

" رأس كل واحد من عندنا يعادل عشيرة، اليس كذلك يا أصحابي؟ "

أجاب خير الدين وشرف الدين بصوت واحد:

" نعم يا محفوظ السلامة كلامك صحيح، ولكن رأسك يعادل ألف عشيرة "

تأكد أن جماعته قد اعترفت بقيادته فعلا. وهذا هو سر النجاح الذي كانوا يفتقدونه فيما مضى بسبب نزاعاتهم الصبيانية وعدم اعترافهم ببعضهم بعضاً. والآن ثبتت الأمور وكل شئ أخذ مجراه الطبيعي. وسوف تتلو الانتصارات وتتزاحم فيما بينها، فما عليهم سوى التأني والسير بخطوات ثابتة ومدروسة بعناية، كي يتمكنوا من التمتع بثمار شجرتهم التي غرسوها. قال شمس الدين كما لو أنه يريد أن يمتحن جماعته:

" هل انتم راضون عما حققناه منذ ليلة امس؟ "

أجابا بصوت واحد وبطريقة مسرحية سيئة الأداء:

" كل الرضا يا محفوظ السلامة. كنا لا نتوقع مثل هذا الانتصار يا شيخنا الحبيب"

علق شمس الدين باحتجاج:

" وأما أنا فلست راضيا من عملنا. نحن لا زلنا نتسكع مثل الكلاب السائبه دون أن تكون لنا سقيفة نركن إليها. هل تريدوننا أن نسكن بهذه الملابس الغالية في المقبرة، في ما يسمى بعرين الأسد اعتباطا، والذي هو في الحقيقة مأوى الموتى؟ "

أجاب خير الدين وهو يحاول تهدئته:

" العجلة من الشيطان والصبر من الرحمن يا محفوظ السلامة. كل شئ بالتأني. أنت نفسك قد نصحتنا بذلك. وكما أننا حصلنا على مبلغ محترم من دنخة وثلاث بدلات محترمة من الخياط أيوب، سنحصل كذلك على بيت لائق بنا "

علق شرف الدين:

" بل سيحصل كل واحد منا على بيت وزوجة بفضل العقل المدبر لشيخنا "

قال شمس الدين باستخفاف:

" جعلتماها ربيعا حقيقيا يا سفلة، إنني أريد حل مشكلة سكننا بسرعة، لأنني لن أرجع بهذه الملابس إلى العرين الخرائي مرة أخرى "

التفت خير الدين إلى شرف الدين ثم وجه نظراته إلى شمس الدين وهو يقول:

" الحل بيد شرف الدين وحده "

طلب شمس الدين من شرف الدين أن ينورهم بما لديه من حلول. أجاب شرف الدين أن الحل موجود ويمكن إنجازه فورا، بيد أنه يخشى أن لا يوافق الشيخ على ذلك.

" الشيخ يوافق على كل حل يا شرف الدين، المهم إننا سنتخلص من العرين الخرائي "

قال ذلك شمس الدين، طالبا منه أن يعرض عليهم حله لتدارسه. قال شرف الدين أنه يعرف امرأة غنية تملك عدة بيوت وتدير ماخورا ترتاده أجمل النساء وأغنى الرجال. ومشكلة هذه المرأة أن ماخورها شبه سري وشبه علني يحتاج إلى حماية قوية لا توفرها الشرطة ذلك لأن ابتزازهم لها فوق طاقتها. وجرت في الفترة الأخيرة عدة مشاكل جدية مثل إطلاق الرصاص وضرب السكاكين، الأمر الذي أدى إلى قتل أحد الزبائن فاغلق الماخور"

قاطعه شمس الدين بلهجة العارف لكل شئ:

" حكاية الماخور وصاحبته لا تهمني يا شرف الدين. إننا نريد مسكنا نأوي إليه بصورة دائمة وليس زيارة الماخور لليلة واحدة. وأما مسألة حادثة القتل، فهل أنت متاكد منها؟ "

" كل التأكيد يا محفوظ السلامة "

" والقاتل؟ هل مسكوه؟"

" هذه هي المشكلة. لا أحد يعرف من هو القاتل والتحقيقات التي جرت غير جدية "

قال شمس الدين بعد تفكير عميق:

" هذه نقطة مهمة جدا، يجب أن لا يفوتنا بحثها "

واصل شرف الدين كلامه قائلا بأن صاحبة الماخور تملك بيتا فارغا للإيجار يمكن الحصول عليه بمبلغ ضئيل او مجانا إذا أمنوا لها حماية الماخور.

استحسن شمس الدين هذه المرة كلام شرف الدين قائلا:

" امرنا لله الواحد القهار، يجب أن نزور هذه القوادة فورا وبدون تأخير. إننا يجب أن نجد سكنا حتى إذا كان ذلك في حضن عاهرة "

واتفقوا على تفاصيل خطة اللقاء: أن يذهب شرف الدين إليها فورا ويبلغها بنية شيخ مشايخ البو رايات لزيارتها. وعليه أن يؤكد لها بأن الزيارة تتعلق بتطبيق القانون لحماية حياة وأموال الناس بغض النظر عن أعمالهم ومهنهم لا سيما بعد أن جرت اعتداءات غاشمة على حرمة البيت وزواره. ويجب عليها أن تعد الاستعدادات اللازمة لاستقبال الشيخ الذي له سمعته في الجهات المسئولة العليا. وأما مسألة إيجار البيت أو شرائه أو رهنه فتترك لظرف سير الكلام، ومن المستحسن أن يطرح هذا الموضوع بعد أن يتم اللقاء بينها وبين الشيخ.

الست عزيزة امرأة عفيفة ومحترمة في بعض الأوساط العليا، أما عامة الناس من الجهلة والمتخلفين والحساد فيعتبرونها عاهرة. هكذا هي الحياة عملة رديئة بوجهين. ولكن كل ذلك لا يؤثر قيد شعرة على هذه السيدة الراضية عن نفسها وشخصيتها كل الرضا، فليتقولوا كما يشاءون. القافلة تسير والكلاب تنبح. وبالتالي يأتون إليها راكعين يستجدون منها المساعدة. وهي بدورها لا تبخل عليهم.

كانت الست عزيزة تعرف شرف الدين، إذ أنه عمل في حمايتها وتعرف عنه أنه كان قويا ومخلصا وجريئا. عندما طرق شرف الدين على الباب الموصد بإحكام، فتحه شاب خصي أملس الوجه، سرعان ما عرفا بعضهما. قام بحركة أنثوية وقال بدلال وغنج:

" هذا انت شرف، صاير إقطاعي "

قال له شرف الدين إنه يريد أن يلتقي الباجي بسرعة لشغل مهم جدا والوقت الآن ليس وقت التعليقات السخيفة. دفع الخادم الباب برقة طالبا منه

أن ينتظر دقيقة، بيد أن الدقيقة تحولت إلى أكثر من ربع الساعة، عاد بعدها الشاب ليفتح له الباب. سأله شرف الدين عن وضعية الشغل فأجابه بامتعاض بأنه راكد ويحتاج إلى من يحركه، إن شاء الله مجيئك به الخير.

علق شرف الدين:

" إن شاء الله كل الخير"

كانت الست عزيزة ترتدي فستانا أبيض طويلا باردان قصيرة، جالسة على كرسي جنب منضدة دائرية وبيدها سيجارة. عمرها لا يتجاوز الثلاثين، جميلة وأنيقة بلون قمحي وملامح بشوشة ينجذب إليها الإنسان من النظرة الأولى. مشكلتها أن كل من يشتغل عندها يحبها ويتعلق بها حتى العبادة والإزعاج. راحت تتأمل شرف الدين بعينين فاحصتين واستغراب، قالت بعد أن رحبت به:

" خير إن شاء الله يا شرف، خير. منذ أن تركتنا، حلت بنا المصائب "

بشرها شرف الدين بأن هذه الزيارة ستجلب لها وللدار كل الخير والبركة. ستتحسن أمورها بشكل لم تتوقعه. وقبل أن يبدأ بذكر سبب مجيئه إليها، بادرت هي بالكلام. حدثته عن مشكلة الماخور وكيف أن مدير الشرطة وشلته خيبوا ظنها ولم يساعدوها في أزمتها رغم إغداقها عليهم الهدايا. ويتذرعون بأن هناك جهات عليا تدخلت لغلق المكان لأسباب أخلاقية. تصور يا شرف الدين ذهبت بنفسي إلى متصرف العاصمة شخصيا. هل تدري ماذا قال لي هذا الخصيّ العنين؟ قال لي بكل وقاحة إنها مسألة أخلاقية بحتة. هكذا بكل بساطة وكأنه كان لا يقضي لياليه بين أقدام العاهرات، ولكنه حين أصيب بالعجز الجنسي راح يدعو إلى الأخلاق والفضيلة. وأنا أعرف بالضبط ما يريد. إن الرشوة التي يطلبها مني هي فوق طاقتي وعندما طلبت منه تخفيفها، أقسم بشرفه إنه مطلب من مطالب مجلس الأمة. علق شرف الدين بصورة عفوية:

" باجي، هذا ليس مجلس أمة، بل ولاية بطيخ"

ارتاحت عزيزة لتعليق شرف الدين وأضافت:

" بل وأكثر من ذلك، إنه خان جغان، الله يرحمنا"

" الله كريم يا باجي"

عندما جلب الخادم عليوي فنجاني قهوة، أدرك شرف الدين أنها تريد أن تسترسل في كلامها، في حين أنه ينبغي له أن يرجع إلى جماعته في أسرع وقت ممكن، إذ أنهما ينتظرانه على أحر من الجمر. قال وهو يشرب قهوته بسرعة أنه من المستحسن أن تكلم الشيخ نفسه، بهذه الأمور، إذ أنه يريد زيارتها بهذا الخصوص، فهو الرجل الوحيد الذي يمكنه حل مشكلتها، ذلك أنه أخذ على عاتقه مهمة فرض القانون وحماية أرواح المواطنين وممتلكاتهم في هذا الزمن الذي اختلط فيه الحابل بالنابل. سألت عزيزة باستغراب وهي تعيد فنجان القهوة إلى مكانه على المنضدة الأنيقة:

" شيخ؟ من هو هذا الشيخ؟ الا أعرفه؟"

أجاب شرف الدين بفخر وإعجاب:

" إنه الشيخ شمس الدين، شيخ مشايخ البو رايات، أخذ على عاتقه مهمة هدم ولاية بطيخ وإعادة الحق إلى نصابه وهو يعرفك. وأما إذا كنت تعرفينه أم لا، فلا علم لي بذلك"

أطبق عليهما صمت قصير، خرقته عزيزة قائلة، كما لو أنها تحدث نفسها:

" يبدو أن حلمي قد يتحقق فعلا. كنت في مكان عال أطل على نهر واسع وفجأة ظهرت أنت أمامي وقدمت لي ثلاث حمامات بيضاء يا شرف الدين وحين سألت مفسرة الأحلام عنه قالت أن حامل الحمامات سيجلب لك أخبارا سارة"

قامت من مكانها متوجهة إلى شرف الدين وعانقته بقوة وهي تقول له أنت طير السعادة يا شرف الدين، هيا اذهب واجلب جماعتك. وقبل أن يقوم شرف الدين من مكانه وضعت يديها على كتفيه والصقت جبهتها بجبهته سائلة بصوت خافت:

" هل الشيخ يحب الطرب؟ "

" طبعا بلا شك "

اضافت مبتسمة بدلال:

" يعني.. هل نستقبله بحفلة طرب؟ "

أجاب شرف الدين بعد تفكير غير قصير:

" من المستحسن تأجيل هذه الفكرة إلى مناسبة أخرى أو.. لنترك الموضوع على مزاجه هو"

ألقت نظرة سريعة على ساعتها الذهبية التي تطوق معصمها اللدن:

" انا سأتخذ الاستعدادات اللازمة، سأنتظركم في السابعة وانا سعيدة بهذا اللقاء "

كانت لا تزال محتفظة بنفس الوضعية، وقبل أن ترفع يديها من على كتفيه وتعيد رأسها إلى الوراء، قالت بغنج:

" سؤال اخير يا شرف. هل الشيخ متزوج؟"

" كلا، يقول أنه لن يتزوج إلا إذا وقع في غرام حقيقي، إنه يكبرك بأربع سنوات. إنه جميل وجذاب وذو جاذبية غريبة، لو كنت أنا امرأة، لعشقته فورا"

علقت باستغراب:

" يبدو انه شيخ متحرر، غير متعصب. وهل انت متأكد يا شرف بأنه لم يقع في غرام فتاة ما؟"

أجاب شرف الدين بلهجة المنتصر:

" كل التأكيد يا باجي"

نظرت عزيزة إلى فوق وقالت بلهجة ابتهال:

" يا الله يا ساتر، يا ملبي الأماني رحمتك"

قال شرف الدين وهو يهم بالوقوف:

" انظري يا باجي يا عزيزة، أسر إليك مشورة صغيرة تفيدك. لا تتكلمي في حضرة الشيخ كثيرا وأعلمي أن السكوت من الذهب. وإذا تكلمت فاختاري الوقت المناسب واجزمي أنك بنت أحد المشايخ الكبار وأنك هربت لأسباب خاصة، هل فهمت؟"

قبلته من جبينه قائلة بارتياح وهي تتنفس الصعداء:

" هذا هو الكلام الذي كنت أريد سماعه يا شرف"

(٤)

كانت شمس الظهيرة تلقي اشعتها الذهبية على الزقاق الفارغ، حين ترك شرف الدين البيت الفخم الواقع على نهايته بحيث حوله إلى زقاق مسدود. تمنى لو أنه يملك جناحين كي يطير بهما إلى جماعته ويبشرهم بما دار بينه وبين عزيزة من حديث شيق، يجب على شمس الدين أن يواصله بذكائه وفطنته. وراح يسرع الخطى تحت قيظ شمس حزيران ورأسه يموج ويضطرب بسورة من الأفكار الجديدة. وادرك أن هذا الجمال الصارخ لعزيزة لا ولن يكون من نصيبه هو، ولكنه ربما سيكون من نصيب شمس الدين الذي سيحوله إلى بوابة للغنى والثراء. إذ ذاك سيستفيد هو أيضا ويمكن للفلوس أن تجلب العروس، حيث سيتخلص من التشرد والبؤس. لا يتخلص من ذلك هو فحسب، بل شلته ايضا، إذ أن قوته تكمن في قوة الشلة. اليد الواحدة لا يمكن أن تصفق أبدا. وبصورة لا إرادية راح يخفف من حركة مشيته السريعة. لم العجلة؟ أليست العجلة من الشيطان والصبر من الرحمن؟ وراح يستعيد في ذهنه الحوار الذي جرى بينه وبين عزيزة التي يفجر جمالها حتى الحجر ويحوله إلى شظايا. ليس هذا فحسب، بل أنه سيلقي بظله على شمس الدين ويوحي إليه بأنواع الخطط ويلهمه في توالد الأفكار والمشاريع في رأسه الذي أثبت جدارته في وقت قصير جدا. إنه يجب أن يقنع شمس

الدين بإيجاد علاقة ما مع هذه الحورية الساكنة في الجحيم، إذ انه يستأهلها فعلا. ولكنه يجب أن يوضح لشمس الدين بأن إيقاع هذه التحفة في حبائل غرامه يحتاج إلى الصبر، وأنها هي التي تقرر فيما إذا كانت مستعدة للوقوع في احضانه ام لا؟ إنه يجب أن يكون حذرا معها. إن استعمال القوة معها لن يجدي ابدا، بل بالعكس، لن ينتج عنها سوى نتائج عكسية. إنها مثل قطة اليفة، تعتقد ان بإمكانك ان تمسها متى ما تشاء، ولكنك في الحقيقة لا تتلقى منها سوى خربشة مخالبها، حيث أنها هي التي تقرر متى تمسها وتدلكها. وإذ هو غارق في افكاره العميقة وعيناه مصوبتان إلى أعلى، داست رجله اليمنى على قشرة بطيخ ملساء مفتوحة على الأرض وانزلقت رجله بحرية مطلقة لا تريد أن تتوقف عن الانزلاق الذي ادى به إلى أن ينبطح على ظهره ويرتطم رأسه بإسفلت الشارع. جلس في مكانه وهو يلتفت يمنة ويسرة ويشكر الله على عدم وجود أحد في الشارع، المهم لم يره احد في هذه الوضعية المخزية وإلا كانت عفطة ما تكون من نصيبه:

" العن ابوك وابو من خلفك يا شمس الدين يا ابن الزانية. كاد أن ينكسر ظهري وتتحطم ضلوعي بسببك"

خلو الشارع من المارة خفف من المه. وحين وقف على رجليه تأكد أن أعضاءه لم تصب بالكسور. قادته قدماه إلى المطعم بحذر دون أن يرفع عينيه عن الشارع، حيث قشور الموز والبطيخ والرقي التي تبدو كما لو أنها القيت هناك عمدا للإيقاع بالمغفلين من أمثاله. وفوق مصيبته عاتباه بسبب تأخيره وخوفهما من أن العملية لم تنجح. وقالا إنهما طيلة الوقت جالسان على جمرة الانتظار. قال شمس الدين وهو يطلب من النادل جلب ثلاثة استكانات شاي ويسند مرفقه على المصطبة:

" بشر يا شرف الدين، الكلام لك"

بالغ أولا في انزلاق رجله ووقوعه على الأرض بسبب قشرة البطيخ اللعينة في طريق عودته:

" سلامات يا شرف الدين سلامات أدخل في الموضوع، نحن متلهفون لسماعك"

قال شرف الدين وهو يمد يمناه إلى ظهره ويصطنع ألما:

" ملعونة قشرة البطيخ، حذار أن تمشي وأنت لا تنتبه إلى موطئ قدميك، كم الساعة الآن؟"

أجاب شمس الدين ساخرا:

" منذ متى ونحن نشتغل على الساعات يا شرف الدين أفندي؟"

قال خير الدين:

" انظر إلى ساعة البلدية، إنها الثانية ظهرا ثم ماذا؟"

قال شرف الدين كالمأخوذ:

" عندما كنت عند الخاتون عزيزة، سبحان الله لهذا الجمال، نظرت إلى ساعتها الذهبية وهي تقول الساعة السابعة أنا في انتظاركم، إذ ذاك عرفت أننا يعوزنا هذا الجهاز اللعين"

علق شمس الدين بلهجة من أدرك النقص:

" كلامك صحيح يا شرف الدين، يجب أن نشتري لكل منا ساعة يدوية، إنها ليست مودة فحسب، بل ضرورة"

قال خير الدين:

" حسب كلامك أمامنا خمس ساعات وهي تكفي للقيام بدورة في السوق والتخطيط لأكثر من مشروع"

قاطعه شمس الدين طالبا من شرف الدين أن يعطيهم صورة مفصلة ودقيقة للقائه مع مقترحاته هو في كيفية تعاملهم معها خلال الزيارة. أحس شرف الدين بنوع من الفخر والاعتزاز وكونه الآن قد أصبح سيد الموقف

الذي يمكنه حسم بعض القضايا المتعلقة بمصيرهم. وراح يشرح بالتفصيل كيفية حصول اللقاء والكلام الذي جرى خلاله. وأكد على نقطة الضعف الموجودة عند هذه السيدة الشابة التي تبحث عن الحب الصادق، كما أنها تريد أن ترتبط برجل قوي يمكنه حمايتها عن صدق. ولا يهمها إن كان الرجل ثريا أم لا، المهم أنه صادق معها ويستميت في الدفاع عنها وعن مصالحها. وهي الآن في أزمة ومصيرها معلق في الهواء، ينتظر الحسم. وإذا اقتنعت بأننا نتمكن من مساعدتها للخروج من أزمتها، نكون قد ربحنا بطاقة اليانصيب. وعلى فكرة أنها تملك معلومات كافية عن حادث اغتيال الزبون وتورط بعض المسؤولين فيه.

كان شمس الدين يستمع إلى كلام شرف الدين بانتباه شديد وتأمل، قال وهو يبدي إعجابه بموقفه بأن الوضع الآن يختلف اختلافا كليا عما كان عليه مع دنخة أو أيوب الخياط أو حتى مع صاحب هذا المطعم بالذات. إنهم على مشارف مهمات جديدة جدا، مهمات لها علاقة بمسؤولين كبار وبأجهزة الدولة. عليهم العمل ضمن خطة جديدة وبكتمان شديد. وأنهم بوضعهم الحالي لا يتمكنون من القيام بأي شئ. إنهم قبل أي شئ يجب أن يكونوا حذرين عند اللقاء بهذه السيدة الخطرة. ثم أنهم بحاجة إلى أدوات ضرورية لتحقيق مشاريعهم. إنهم مثلا بحاجة ماسة إلى تلفون أو هوكي توكي وهذا الجهاز غير متوافر سوى عند الأجهزة الأمنية، فمن لا يعمل في جهاز الأمن لا يمكنه الحصول عليه، ناهيك عن استعماله.

أضاف خير الدين مؤيدا:

" رحم الله والديك يا محفوظ السلامة، إذا كانت الأمور قد وصلت إلى هذه الدرجة، فعلينا أن نبدل عباءاتنا ببدلات أوربية كي نبدو أفندية مضبوطين"

قال شمس الدين مؤيدا:

" لم لا؟ هذا ما كنت أريد أن أقوله، ولكنك سبقتني في الكلام"

علق شرف الدين:

" يمكننا الاستفادة من الزيين، أحدهما لا يلغي الثاني في المدينة نتحول إلى أفندية وفي الريف إلى شيوخ"

أضاف شمس الدين بمرح:

" يعني قصدكم. هل نذهب الآن إلى الخياط أيوب ونطالبه بثلاث بدلات أوربية؟"

قال شرف الدين بجد:

" ليس اليوم، ولكننا سنفاتحه بالموضوع ذات يوم. كل شئ في وقته"

أطبق عليهم صمت غير قصير تكتنفه حيرة وتنبؤات مختلفة لمصيرهم في هذه الليلة الغامضة والقادمة ببطء شديد. ولعل الشخص الوحيد الذي كان يخشى بجد من ضرورة الاضطرار للعودة إلى المبيت في المقبرة، في وقت متأخر من الليل، هو شمس الدين الذي كانت مخاوفه توحي له بأن تطردهم هذه المرأة التي لا يمكن منحها الثقة التامة. ومما زاد من شكوكه في الأمر استفسار خير الدين ما إذا كان المبيت عندها مضمونا. هذا الاستفسار الذي خرق الصمت المطبق عليهم، أحاله شمس الدين إلى شرف الدين. قال شمس الدين بلهجة آمرة:

" هيا يا شرف الدين، أجب عن هذا السؤال. نحن نريد ضمانات وليست تكهنات. انت تأخذنا إلى بيت مجهول لا نعرفه نحن، ولا يكفينا أنك تعرف صاحبة البيت. سبق أن وقع في هذا البيت حادث قتل لم تبت فيه المحكمة بعد والتحقيقات ما زالت جارية. ربما نقع في فخ يأخذنا إلى ألف داهية ونحن لا في العير ولا في النفير"

قال شرف الدين بلهجة ساخرة وقد انطبعت على وجهه ابتسامة حائرة:

" منذ متى ونحن نضرب أخماسا بأسداس؟ البيت مفتوح لكل من هب ودب. إنها لعبة حظ، لا شك أنك ستلعب فيها دورك بكل شطارة، فإن ربحنا

فأهلا وإن خسرنا فسهلا، حيث نكون قد خسرنا القناني التي أهداها لنا دنخة. وإذا بدانا نفكر بهذه الطريقة فسنعود حتما إلى وضعنا القديم في المقبرة"

قال شمس الدين بصوت حازم:

" احسنت يا شرف الدين، اقر بأنها كانت نقطة ضعف من عندي انا، لن تتكرر. صحيح، إن الحياة عبارة عن مغامرة كبيرة"

عادت إليهم همتهم من جديد وراحوا يرسمون الخطط في كيفية مواجهة هذه المضيفة الجميلة والمجهولة واتفقوا على عدم الإفراط في الشرب والاحتفاظ بالهدوء والرزانة على أن يكون المتحدث الرئيس شمس الدين فقط وأما مهمة خير الدين وشرف الدين فتكمن في انهما مستشارين، يستأنس بهما الشيخ وقت الحاجة"

كان عليهم قطع مسافة لا تتجاوز نصف الساعة مشيا للوصول إلى منزل عزيزة، ولذلك تركوا المطعم في الساعة الخامسة والنصف حسب توقيت ساعة البلدية. وراحوا يتمشون في ساحة المدينة الرئيسية بباب المعظم والشوارع المتفرعة عنها إلى أن وقفوا أمام محل لبيع الساعات. كانت الواجهة الزجاجية تحتوي على أنواع الساعات اليدوية والجدارية والساعات المنبهة بمختلف الأحجام. وبعد المشاورات مع صاحب المحل، اتفقوا على شراء ثلاث ساعات سويسرية كل واحدة منها بأربعة دنانير. نصب لهم صاحب المحل الساعات ووقتها حسب توقيت الراديو. وتبين لهم أن ساعة البلدية متأخرة مدة ربع ساعة عن توقيت الراديو المحلي. وحين خرجوا من المحل بدا لهم محل دنخة في الجانب الثاني من الساحة. وكان مكتظا بالزبائن.

بعد أن ودعت عزيزة شرف الدين على أمل اللقاء بشلته في الساعة السابعة، ظلت جالسة في مقعدها الوثير تفكر في الأمر وتقلبه من جميع

الجوانب وهي تلقي على نفسها سلسلة من الأسئلة التي تجيب عليها بنفسها إلى أن وصلت إلى شبه قناعة ذاتية بأن مجمل الفكرة مجرد لعبة اخترعها شرف الدين وأصحابه للحصول على بعض المال أو المكاسب من جراء العلاقة بها، أو أنهم وقعوا في مشكلة يريدون الخروج منها بوساطتها هي، إذ تبين لها بعد التفكير العميق والتنقيب في معجم عشائر البلاد، أنه لا توجد عشيرة باسم البو رايات لا في شمال البلد ولا في جنوبه ولا في وسطه، فهذا الشيخ الإقطاعي لابد شخصية وهمية مزورة. هذه مسألة ليست ذات أهمية، بيد أنها نقطة ضعف يمكنها أن تسجلها ضد الشلة والضغط عليها في الوقت المناسب. إنها ينبغي أن تكون حذرة تجاههم، فبدلا من أن يستغلوها لمآربهم الذاتية، يجب أن تبادر هي وتستغلهم لتحقيق مصالحها. وهي أحوج ما تكون إلى شلة مفلسة جريئة، وليس إلى شلة جبانة، ثرية متآمرة. إنها بهذا يمكنها أن تحركهم كما تشاء وكما تمليها عليها مصالحها. وسيلتها في ذلك هي الإغراء. وطالما هم شباب أقوياء يسري عليهم مفعول الإغراء السحري، ولكنه سرعان ما يخفت حين يدخلون سن الشيخوخة كما حدث مع المسئولين الكبار الذين أداروا لها ظهورهم بعد أن ارتووا من رحيق حبها وسحبوا ما فيه الكفاية من حقيبة نقودها. هؤلاء الأوباش والأوغاد، يجب أن تنتقم منهم وسيكون انتقامها شنيعا وقاسيا. إنها إذاً تحتاج هذه الشلة الجريئة التي هي بلا شك غير نصابة، بل مغامرة، إذ يكفي أن يكون شرف الدين معها. هذا الذي تعرفه حق المعرفة، إنسانا أمينا وخادما مطيعا وشهما جريئا. وهي ستتعرف عليهم هذه الليلة واحدا بعد آخر عن كثب، ولا سيما على رئيسهم الشيخ المزعوم وسوف تستعمل معه بالذات وسائلها الخاصة منها لعبة القط والفأرة للوصول إلى حقيقة هذه الشلة على لسان رئيسها واعترافه هو بالذات، إذ ذاك ستمنحه الثقة المطلقة وتكون مستعدة

للذهاب معه حتى إلى الجحيم. وتذكرت حلمها الذي بعث التفاؤل في كيانها وصاحت بصورة لا إرادية:

" عليوي"

وظهر عليوي الذي كان واقفا وراء الباب كالشبح، قائلا بصوته الأنثوي:

" نعم باجي، أروح فدوة لباجي"

" لا تروح فدوة يا عليوي، أنا ما زلت أحتاجك. صيح لي زينة"

" نعم باجي"

خرج عليوي بسرعة. وبعد برهة قصيرة دخلت زينه و هي تتسم بالهدوء والرزانة، لا يبدو عليها أنها تجاوزت الثلاثين من العمر، بل يظن الإنسان لأول وهلة أنها في العشرين من عمرها، ولكن بملامح حزينة وذات جاذبية خاصة:

" نعم باجي"

أشرت عزيزة إلى المقعد القريب طالبة منها الجلوس. اتخذت زينة مكانها بالقرب منها برشاقة واضعة يديها في حضنها وهي ترقب ما ستقوله سيدتها. قالت عزيزة مستطلعة رأي زينة:

" سيزورنا اليوم ضيوف لم أدعهم أنا"

علقت زينة بصورة آلية:

" يعني أنهم عزموا انفسهم بأنفسهم"

" بالضبط "

وضعت زينة يدها اليسرى على فمها:

" هل نعرفهم؟"

" نعرف واحدا منهم فقط، كان يشتغل عندنا فيما مضى في حماية المرقص: شرف الدين. كيف ترين هذا الأمر؟"

" ربما يأتون من أجل السهرة والمتعة. شرف الدين كان إنسانا طيبا وأمينا"

" كلا، إنهم يأتون لطرح موضوع ما عليّ"

" ربما أرسلتهم الجهات العليا للتجسس والحصول على معلومات حول حادثة القتل الذي لم تنته التحقيقات حوله. على كل حال، هل نقدم لهم طعام العشاء أم نجعلها يابسة؟"

" هذا هو بالذات السبب الذي أردت أن أسألك إياه"

" تفاديا للمفاجآت سنعد لهم وجبة خفيفة. مهما يكن فهم ضيوف الله ولباجي مكانتها في المجتمع. كم هو عددهم؟"

" إذا حسبنا أنفسنا نحن، أنا وأنت وساهرة وعليوي، فنكون سبعة أشخاص. هيئي نفسك جيدا وبلغي ساهرة بالموضوع أيضا. إذا كانوا شباب حلوين فسنمتع أنفسنا بما فيه الكفاية"

قامت زينة من مكانها، قائلة بابتسامة خجولة:

" مثلما تؤمرين يا باجي، في الحركة بركة"

في تمام الساعة السابعة مساء سمع عليوي، الذي كان واقفا وراء الباب، طرقات منتظمة على الباب، هرع على أثرها إلى عزيزة وهو يخبرها بوصول الضيوف. طلبت هذه منه أن يفتح الباب ويقودهم إلى غرفة الضيوف بكل أدب واحترام. فتح عليوي الباب منحنيا أمام الضيوف ومرحبا بهم ومكررا بصورة اوتوماتيكية بصوته الأنثوي:

" أهلا وسهلا بالضيوف الكرام..أهلا وسهلا بالضيوف الكرام، أهلا وسهلا.. أهلا، أهلا، أهلا..على الرحب والسعة"

لم يتمكن شرف الدين من ضبط نفسه، فقال مداعبا:

" كافي نزاكة يا عليوي، ثخنتها..نحن لسنا غرباء"

" صحيح يا شيوخ، هذا بيتكم فعلا"

كان الوضع هذه المرة غريبا على عليوي، ذلك أنه لم يعتد على أخذ مثل هؤلاء الشيوخ إلى غرفة الاستقبال، إذ أن هذه الغرفة المؤثثة بالكنبات الراقية كانت مخصصة للمسئولين من الأفندية الكبار فقط، حيث كانوا فيما مضى قبل حادثة القتل، يزورون الباجي فيها. وبعد قضاء فترة من الانتشاء والسكر، يصطحب كل واحد منهم إحدى البنات إلى غرفتها الخاصة، حيث تبدأ معارك الفراش، ثم يتوارون عن الأنظار دون أن يحس بهم أحد. وأما الشيوخ فكان طريقهم يؤدي مباشرة إلى غرف النساء دون أن تطأ أقدامهم غرفة الضيوف.

عندما سألهم عليوي ما إذا كانوا يحبون شرب الشاي أم القهوة أم عصير ليمون بارد، أجابه شرف الدين، إنهم ينتظرون أولا حضور الباجي وهي التي ستقرر ما يشربون. ثم أعطاه الكيس المحتوي على قناني الخمر وأكياس المزة، طالبا منه أن يسلمها إلى باجي. تسلم عليوي الكيس بلهفة وترك الغرفة بسرعة. قال شرف الدين موجها كلامه إلى شمس الدين:

" أنظر يا شمسي يا محفوظ السلامة، انت أول شيخ تطأ رجله هذا المكان الذي لا يدخله إلا كبار المسؤولين، علامة جيدة. أليس كذلك"

قال شمس الدين بصوت خافت دون أن يلتفت إلى محدثه:

" البداية تبدو جيدة"

علق خير الدين بتهكم:

" هذا إذا لم نرجع بخفي حنين إلى عرين الأسد"

أراد شمس الدين أن يقول شيئا، بيد أن انفتاح الباب الجانبي ودخول عزيزة، فرضا عليه الصمت. في تلك اللحظة التي أحس بها شمس الدين كما لو أن نورا غريبا أضاء الغرفة المعتمة، خطر بباله فكرة أن يطوقها أو يعانقها أو يمسها بشكل من الأشكال، إذ انه سبق أن شاهد قبل أعوام طويلة

فلما سينمائيا وثائقيا، يقبل فيه أمير بلده الشاب يد ملكة بلد آخر أوروبي حليف. وفكر، إذا كان الأمير يسمح لنفسه القيام بهذه المبادرة الجميلة، فلماذا لا يسمح لنفسه هو بتقليد أمير بلاده؟

قام من مكانه، متوجها إليها بصورة لا إرادية وقائلا بلا تفكير:

" شمس اشرقت وقمر بزغ"

صافحها بقوة وانحنى يقبل يدها. قالت وهي يبدو عليها الارتياح لمجمل العملية:

" انت أول رجل مهذب يقبل يدي. إنك تمتاز بثقافة عالية يا...."

أجاب وهو يحدق في عينيها السوداوين العميقتين بود:

" شمس الدين"

كانت لا تزال تمسك بيده الدافئة القوية. قالت بدلال:

" اسم جميل لرجل اجمل"

قال شمس الدين وهو يحس كما لو أن إنسانا آخر يتكلم في داخله:

" هذا شرف عظيم لي لن انساه ابدا"

كان شمس الدين لا يعرف شيئا عن الحب وخفقان القلب ولم يسبق له أن واجه امرأة، ناهيك عن مسها. وها هو يحس بنفسه وقد وقع في فخ ما يسمى بالحب من أول نظرة. وادرك أن هذا الشخص الذي يتكلم في داخله إنما هو هذا الشيء فحسب. مسكت عزيزة يد شمس الدين بيسراها وسحبته باتجاه كل من شرف الدين وخير الدين كي تصافحهما بكبرياء. وبعد أن طلبت منهما أن يجلسا، جرته إلى حيث كنبتها وأجلسته إلى جانبها. ادركت عزيزة من خلال تجربتها الطويلة مع الرجال أن هذا الشيخ الموهوم قد وقع في فخ غرامها، وأن خبرته معدومة في هذا المجال. أي أنه عجين خام يمكن عجنه كما تشاء. وهي في كل الأحوال تحتاج إلى مثل هذا العنصر، لا سيما أنه ليس وحده. بعد أن رحبت بهم ترحيبا حارا وحدثتهم عن حلمها

قالت انها تريد أن تكون صريحة معهم ويجب أن يكونوا هم أيضا صريحين معها. واكدت انها تعرف بأنهم لم يأتوا إليها للمتعة. وقالت أن وراء حدسها تقف جنية تعرف كل الحقائق. ولذلك فإن حدسها لن يخونها أبدا، ولا سيما مع الرجال، قالت بحزم موجهة كلامها إليهم كلهم:

" إن العادة الجارية عند العرب تقضي ببقاء الضيف عند المضيف لمدة ثلاثة أيام، وبعد ذلك ينبئ الضيف عن خبره. مثل هذه العادة لا مكان لها في هذا البيت الذي تسميه العامة بالماخور. لذلك أريد منكم إجابة صريحة عن سؤالي: ماذا تريدون مني؟"

توجهت الأنظار كلها نحو شمس الدين الذي أجاب فورا:

" نحن لا نريد منك أي شيء، إنما وضعنا على عاتقنا مهمة فرض القانون وحماية أرواح المواطنين وممتلكاتهم ومحاربة الفساد في هذه الدولة التي يسميها عامة الناس بحق بولاية بطيخ.."

قبل أن يكمل كلامه قاطعته عزيزة بفضول:

" وما هو دوري انا في هذه العملية المعقدة؟"

أجاب شمس الدين فورا:

" الاقتراح جاء من شرف الدين، لأنه يعرفك، فأحسسنا بأنك بحاجة إلى مساعدة لتمشية أمور الدار التي تجابه مضايقات الحكومة ولذلك جئنا كي نضع انفسنا في خدمتك"

ارتاحت عزيزة للجواب الذي وجدته قاطعا ومع ذلك تساءلت بحزم:

" هل لكم صفة رسمية؟"

أجاب شمس الدين بهدوء وثقة:

" كلا أبدا، نحن نحارب الصفات الرسمية المتعفنة. سنعتمد على قدراتنا الذاتية"

" أنتم تريدون قلب الأوضاع"

" كلا، هذا ليس من واجبنا وليس بإمكاننا"

" ماذا تريدون ان افعله لكم؟ هل تحتاجون المال؟"

ادرك شمس الدين أن السؤال حاسم واختبار لمجمل العملية. أجاب بهدوئه الذي بدأ به:

" كلا ابدا، نريد استشارتك فحسب، لأنك تعرفين هؤلاء أحسن من غيرك"

بدا على ملامح وجهها أنها ارتاحت لمجمل العملية واقتنعت إلى حد ما بحديث محدثها الذي رأت أن تتركه إلى حين آخر. قالت بعد صمت غير قصير:

" اعتقد إننا فهمنا بعضنا على نحو جيد ونحن بحاجة إلى بعضنا بعضاً، اليد الواحدة لا تصفق. ولكننا ما زلنا بحاجة إلى قليل من الوقت كي نتعرف على بعضنا بشكل أحسن. ومن ثم نضع النقاط على الحروف"

بعد صمت قصير قالت مبتهجة:

" بزبدتكم ادهن شواربكم، هل يمكنكم شرح هذا الكلام. اعتقد إنه مثل غجري؟"

انتظرت هنيهة دون أن يفتح احدهم فمه، وواصلت:

" كلا بالطبع، هذا يعني سأقدم لكم ما جلبتموه معكم، فنسكر معا"

وصاحت على عليوي الواقف كالعادة وراء الباب. وحين ظهر هذا كالشبح، انحنى أمامها قائلا بأدب:

" نعم باجي"

" هات المشروب وملحقاته يا عليوي ولا تنس الثلج وابعث لي ساهرة كي تشاركنا الجلسة"

" نعم باجي"

وجاء عليوي حاملا الصحون والكؤوس، تساعده ساهرة في حمل القناني.

(٥)

يبدو أن عزيزة قد تعمدت عدم الاسترسال في الشرب بعد أن لاحظت أن صاحبها يقتر في ذلك. وادركت انه يريد أن يحتفظ بكامل قواه العقلية والبدنية، فالحديث كما بدا لهما لم ينته بعد، كما انه لاشك قد فهم إشارتها التي سبق أن نوهت فيها بإتمام الحديث في وقت آخر. ولا شك انه فهم عبارة " وقت آخر" بشكل صحيح، إذ إنه لا يعني يوماً آخر، بل هذه الليلة بالذات. ورأت في داخلها أنه من المستحسن أن يدور الحديث بينهما فقط وفي جو هادئ لا يكدر صفوه احد. سألته ما إذا كان يحب أن يواصلا الحديث هذه الليلة أم يؤجلاه إلى وقت آخر. أجابها شمس الدين بلهجة مستسلمة، إنه يترك الأمر لها وحدها فهي صاحبة الأمر والنهي التي تحسم الأمور وأنه ليس سوى أداة بيديها. قال شمس الدين ذلك وهو يدرك أنها تريد أن تختلي به ربما لأكثر من سبب. وأصرت هي على معرفة رأيه هو بالذات، لأنه هو الرجل المنفذ في مجمل العملية. تسربت كلماتها إلى أوصاله بخدر يضاهي الخدر الذي بعثته جرعة الشراب الأحمر المعتق. قال بصوت فيه رغبة الانفراد بها:

" كما تشائين..ولكن، إذا كنت مصرة على معرفة رايي، فأنا مع مواصلة الحديث حالا، وهذا هو السبب الذي قادنا إليك"

ارتاحت لإجابته. وبعد أن ارتشفت جرعة صغيرة من الشراب، همست في اذنه مستفسرة إذا ما كان سبب مجيئهم إليها هو بهذا الخصوص ام قضاء ليلة متعة معها؟. أجاب بصوت خافت وجاد:

" لم نفكر في المتعة أبدا"

سألت ببشاشة وفضول:

" هل هي نجاسة أم حرام"

أجاب شمس الدين بلهجة قاطعة:

" كلا، أبدا. لنا مشاكل أهم بكثير من المتعة"

" هل تعاهدني بالتحدث عن مشاكلكم بكل صراحة؟ لا تحاول أن تكذب علي يا شمس الدين. أنا أعرف كل شئ. فكر في الجنية، كذبة واحدة وسينهار كل شئ فيما بيننا"

التفت إلى صاحبيه المشغولين بالحديث بنظرة استطلاعية. علقت عزيزة وهي تطمئنه بأنهما يقتران في الشرب أيضاً مثله. واستفسرت بشكل استفزازي ما إذا كانوا يخشون من أن تظهر الحقيقة من خلال السكر؟ أجاب انه لا يفقد شيئا إذا جهر بالحقيقة وهم جاءوا إليها للعمل معها على هذا الأساس المبني على الثقة المتبادلة. أطلقت شهقة حسرة طويلة قائلة:

" آه، كم أحتاج إلى اناس يؤمنون بمثل هذه المثل"

قال شمس الدين بلهجة صادقة:

" ستجدينهم عندنا نحن يا باجي"

قالت باحتجاج:

" لا تطلق علي كلمة باجي يا شمس الدين، إنها لقب بغيض تستعمله العاهرات والقوادون والخصيان"

أجاب شمس الدين بابتسامة بشوشة:

" هل تسمحين أن أناديك بيا حبيبتي"

أجابت بغنج ودلال:

" لم لا إذا كانت الكلمة صادرة عن قلبك؟ ولكن، هل تليق هذه الكلمة بعاهرة؟ الا تراني إنسانة منبوذة"

" لو كنا نملك مثل هذا الإحساس، لما جئنا إليك"

" أنت تجنني يا شمس الدين. إنك اشبه بقطة برية كيفما ترميها ومن اي علو تقف على قوائمها الأربعة"

" أرجو أن اكون فعلا كذلك"

" هل يمكنك أن تتزوج من عاهرة؟"

" لم افكر في الزواج أبدا. إنها مسؤولية فوق طاقتي"

" حتى إذا وفر لك الزواج كل احتياجاتك؟"

" لا اريد أن أعيش عالة على أحد. حتى أهلي تركتهم في وقت مبكر وتركت المدرسة كي أستقل بنفسي وأحارب الظلم"

" تحارب الظلم؟ ماذا تقول يا شمس الدين؟ شيخ إقطاعي يحارب الظلم؟"

قال ضاحكا وبصوت منخفض:

" وهل صدقت هذه العباءة يا حبيبتي"

ادركت عزيزة أن صاحبها بدأ يعترف. وقررت أن تأخذه إلى مخدعها كي تتمتع به وبحديثه الشيق والظريف بعيدا عن الأنظار، إذ أن مثل هذا الصيد الدسم، لم يتوفر لها منذ فترة غير قصيرة. كانت رغبتها شديدة في الاختلاء به وامتلاكه لها وحدها. وحين قارنته في داخلها مع أولئك الطبول الفارغة، سواء بشكلهم أم كلامهم، وجدته شابا جميلا ومثقفا لا عيب فيه. ورات انه ليس مجرد جسد مغر، بل روح عاشقة لا تعرف الكذب، يمكنها الاتكاء عليها والارتواء من رحيقها. وودت لو تتوغل في أعماق هذا الإنسان الذي ينظر إليها

بنظرة تختلف عن نظرات الآخرين لها. كانت واثقة من حدسها تجاهه كل الثقة. إنه رجل ليس ككل الرجال. وهو لم يأت إليها كالآخرين من أجل رفع ساقيها، بل من أجل مساعدتها وليس من أجل استجداء المساعدة منها. يكفي انه يعتمد على عقله وقبضته من اجل الحصول على ما يريد. قالت عزيزة بنبرة فيها رجاء:

" نحن بحاجة إلى مكان اهدا، نأخذ فيه حريتنا اكثر، اليس كذلك؟"

" كما تشائين"

قالت مفتعلة الغضب:

" اريدك ان تحسم انت الأمور، انت رجل"

" ولكنك انت صاحبة البيت"

" اعتبر نفسك أنت صاحب البيت"

قال بارتياح بالغ:

" إذا كنت أنا صاحب البيت، ويترك الخيار لي، فهيا إلى مكان اهدا"

قامت عزيزة من مكانها ساحبة إياه من يده، قائلة للجالسين وهما يتركان الغرفة:

" يا جماعة من رخصتكم، اسمحوا لنا أن نترككم بعض الشيء. خذوا كامل حريتكم"

كانت غرفتها تقع في نهاية الممر الذي تطل عليه من كل جانب غرفتان. وتنقسم غرفتها إلى ثلاثة اقسام" قسم يحتوي على فراش نوم كبير تطل عليه مرآة كبيرة ودولاب للملابس وقسم يحتوي على منضدة واسعة تحيط به كنبات وثيرة وقسم آخر يحتوي على مغسل وبانيو ومرحاض غربي، تعزله من بقية الغرفة ستارة من النايلون متحركة، تزينها صور دلافين واسماك مختلفة. وكانت ثمة نافذة بستائر وردية سميكة، تطل على باحة البيت. وأما بناية المرقص التي اغلقت ابوابها بأمر إداري من الجهات

الرسمية منذ فترة غير قصيرة، فتقع على الجانب الثاني من الشارع، أي وراء دارها مباشرة. وثمة باب سري يربط بين البنايتين.

اتخذ شمس الدين مكانه على كنبة جنب المنضدة وهو فاغر الفم لهذه الأبهة التي لم يتوقعها. سألته عزيزة إذا ما كان يحب مواصلة تناول الشراب الأحمر ام يريد ان ينتقل إلى نوع آخر. اجاب انه لا يريد ان يغير المشروب، ذلك أن تغيير النوعية يؤدي إلى الصداع، فأخرجت من الدولاب قنينة سلمتها إياه مع المفتاح طالبة منه أن يفتحها. أحس شمس الدين بصدمة المكان وهو يقارنه بما سموه بعرين الأسد، بيد أنه ما أن تناول جرعة من الشراب. إلا وعاد إلى نفسه. على أنه ظل شاردا يحدق في الفراغ. سألته عزيزة عما يدور في ذهنه. قال بصوت ثابت:

" إذا حدثتك عما يدور في راسي، لطردتنا نحن الثلاثة فورا"

قالت عزيزة بحزم:

" كن جريئا ونبئني عما يدور في ذهنك ولنر كيف يكون الأمر"

" هل تعرفين ما هو عرين الأسد؟"

اجابت عزيزة كما لو أنها عليمة بكل شيء:

" اجل اعرفه. إنه مزار في مقبرة المدينة، تسكنون أو تلتقون فيه انت وصاحباك"

تساءل شمس الدين باستغراب:

" هل انت ساحرة؟ من أين عرفت ذلك؟ وماذا تعرفين عنا بعد؟"

قالت مبتسمة بدلال:

" كل شيء؟"

قال شمس الدين بعد أن زالت معالم الإحراج من وجهه:

" مثلا.."

" مثلا.. انكم التقيتم في المقبرة يوم امس واردتم مناقشة مسألة تهمكم، ولكن كان يعوزكم الخمر"

أحاط رأسه بيديه وهو ينظر إلى الأرض بشرود:

" اكاد اجن، وبعد؟"

أجابت بنشوة وانتصار:

" ذهبتم إلى مركز المدينة وسطوتم على محل دنخة وسرقتم منه بندقية صيد وعددا من قناني المشروبات ثم رجعتم إلى عرين الأسد وسكرتم ثم ناقشتم في امر يخص مصيركم"

" لاشك انك تعرفين الأشياء الأخرى ايضا"

أجابت متباهية:

" بلا شك"

قال شمس الدين باستجداء:

" قولي لي بربك؟ من اين عرفت كل ذلك. هل سمعته من شرف الدين؟"

قالت بلهجة قاطعة:

" كلا ابدا، شرف الدين برئ. هذا سر لا يجوز البوح به. الم اقل لك ان الجنية تقف إلى جانبي وتخبرني بكل شيء؟"

علق شمس الدين حائرا:

" تعرفين كل هذه الأشياء ولا تطردينا؟"

الصقت وجنتها بوجنته بقوة وقالت:

" هذه الأشياء هي التي جعلتني اشتاق إليكم والتقي بكم. اعتبروني واحدة من شلتكم، إنني بحاجة إليكم"

قال شمس الدين بحيرة:

" ولكن.."

قاطعته بسرعة:

" لا لكن، ولا هم يحزنون"

أطبق عليهما صمت عميق لا يشوبه سوى هدير المروحة الكهربائية الدوارة التي كانت تنعش الجو الساخن بتيار هوائها المعتدل. قال شمس الدين بعد أن أحس أنه قد اندحر في معركة حاسمة:

" إذا كانت أسرارنا مكشوفة بهذا الشكل، فلا نستطيع أن نخطو خطوة واحدة إلى أمام. وهذا يعني إننا عمليا في قبضة الشرطة التي تنتظر الفرصة السانحة للقبض علينا. وأنت تريدين أن نعتبرك واحدة منا"

" أسرارك أو أسرارنا ليست مكشوفة يا حبيبي. لا تخف. أنا الوحيدة التي تعرف هذه الأشياء. إنه السر الذي يكمن في صدري فقط"

تناول شمس الدين جرعة كبيرة من كأسه وهو يقول بعد أن اقتحمته راحة داخلية:

" لم يبق أمامنا إذاً، سوى أن نبدأ بالعمل، بقي أن نفكر من أي باب ندخله"

انحنت عليه محاولة إغراءه بعرض نهديها النافرين. فهم شمس الدين مطلبها، لذلك اجتاحته رغبة جارفة في عناقها، ولكنه فكر أن جسده يحمل أوساخاً وعرق أسابيع بل أشهر غير قليلة. قال لها إنه يريد قبل الشروع في وضع خطط المستقبل أن يأخذ حماما سريعا. توقعت عزيزة منه هذا الطلب، إذ أن رائحته عن قرب لا تحتمل. وبعد أن قدمت له اللوازم المطلوبة كالصابون والليفة والمنشفة وشامبو لغسل الشعر وثوب أبيض نظيفاً وشرحت له كيفية استخدام الدش، تركته في الحمام وحده، عائدة إلى مقعدها. أشعلت سيجارة وراحت تفكر وهي تنفث الدخان وتحدق في الفراغ..

فكرت.. يقال أن المرأة إذا أرادت أن تنتقم، فسيكون انتقامها شديدا لا رحمة فيه. وتتمكن المرأة، بخلاف الرجل، أن تكون صبورة، دون أن تستعجل في الأخذ بثأرها. وإذا قضت على فريستها فتكون مثل النمر. وقبل

أن تهجم على ضحيتها، تفكر ألف مرة إذا ما كانت هي العدوة الحقيقية التي تستأهل الانتقام فعلا، أم أن العدو الحقيقي يختبئ في مكان أمين، يراقب الأمر عن كثب ويورط الآخرين في تحمل الأذى. وعن طريق حاسة شمها القوية وحدسها، تتمكن من التعرف على عدوها الحقيقي. وويل لمن أحسنت إليه ثم انقلب هذا عليها ناكرا الجميل. إن حساب ذلك سيكون عسيرا. فكرت بألم كيف أن هذا الوحش القذر استغلها لسنوات طويلة بلا خجل ثم تركها مع جثة إنسان، كان يحبها ويحميها بإخلاص، قتله بغدر وبدم بارد دائرا لها ظهره بكل خسة وجبن وقاطعا مصدر رزقها دون وجه حق. وتذكرت قول المحامي الذي قال لها بصراحة أن رفع الدعوى إلى القضاء، لا يؤدي إلا إلى مقاضاتها هي، ذلك أن المكان الذي تديره قد تحول إلى مسرح للجريمة. هذا بالإضافة إلى أنهم كلهم يعملون تحت مظلة واحدة كأي عصابة لا يمكن التغلب عليها وقال لها بالحرف الواحد:

"لا تنسي يا سيدتي بأنك وحدك وتريدين مجابهة دولة ولاية بطيخ. إن هذه الدولة لا يمكن أن يتغلب عليها سوى دولة ولاية بطيخ أخرى، أذكى وأشرس منها بكثير. اسكتي واتركي الأمر لله الواحد القهار"

حلفت في ذلك اليوم بأنها ستنتقم. وأن حدسها سيقول لها ذات يوم أن آن الأوان لاتخاذ التدابير اللازمة من أجل البدء بالعملية. وأنها يجب أن تعمل بحذر ودقة وشجاعة وصبر. وأن تستشير هؤلاء الرجال الثلاثة الشجعان في كل صغيرة وكبيرة. إنهم نعمة بعثها الله إليها كي يساعدوها لتحقيق ما تريد. أرادت أن تسرف في الشرب، إذ أنها وجدت نفسها في قمة النشوة، لكنها سرعان ما استعملت وعيها ومنعت يدها من التوجه إلى الكأس وهي تقول في نفسها: لا تستعجلي وحافظي على نقاء رأسك.

ترك شمس الدين الحمام، متوجها إليها بثوبه الأبيض الفضفاض وهو يقول متنفسا الصعداء:

" الآن ولدت من جديد. لقد تخلصت من أوساخ سنة كاملة"

قامت من مكانها متوجهة هي الأخرى إلى الحمام وقائلة:

" بالعافية، سآخذ دشا سريعا وآتيك. خذ حريتك وتمدد على الفراش كي تكون بعيدا عن هواء المروحة"

بعد دقائق قليلة خرجت من الحمام عارية كما ولدتها أمها وأسرعت إلى الفراش وألقت بنفسها عليه. كان شمس الدين ينظر إليها مذهولا كما لو أنه أصيب بضربة صاعقة. طوقته بساعديها وهي تحدق في عينيه العميقتين اللتين بدتا لها بريئتين كعيون طفل صغير. سألته بدهشة:

" أ بهذه البراءة تريد أن تشتغل معي"

أجاب عارفا ما تبغي:

" وهل تريدينني أن أكون قاسيا معك؟"

" وإذا أردتك أن تكون قاسيا مع غيري؟"

قال بصوت صارم:

" إذ ذاك لن أعرف الرحمة"

" أنا شريرة جدا، ولكن ضد من ألحق الأذى بي"

" هذا شيء طبيعي"

" تصور.. اغتصبني وأنا في السابعة عشر من عمري. عاهدني أنه سيتزوج مني مقابل سكوتي. هربت من منزل أهلي بسببه، فأسكنني سرا في غرفة حقيرة. ثم قال أنه يجب أن يتزوج من إحدى قريباته. وبدلا من أن يحقق وعده أرسلني إلى أحد المواخير ثم أعطاني سلفة كبيرة وساعدني سرا في فتح المرقص والبيت وهو لا يزال يطالبني بكل ما صرف علي منذ وصولي هذه المدينة. وحين سألته عن كل هذا الإيراد والمصرف قال أنه يعبدني ولا يستطيع التخلص من حبي، ولكنني استنتجت فيما بعد أنه يريد أن يربطني به وأنه لا يستغل جسدي فحسب، بل يستغل أتعابي أيضا، حيث حملني

عبء اقساط شهرية غير معقولة وكنت أنا الحمقاء الغبية أوقع الكمبيالات واحدة تلو الأخرى دون أن أدقق في محتواها او افهم شيئا منها. ولم يكتف بكل هذا، بل اغتال شابا نبيلا، كان يساعدني ويعشقني حتى الجنون، دون أن يعرف أحد انه هو القاتل. ولو لا خوفه على سمعته ووظيفته لقاضاني بمصادرة كل أموالي وطردي من البيت كأية كلبة. وما كان علي إلا أن ألف عباءتي وآتي إليكم للسكن معكم في عرين الأسد. ولكنني أعرف ماذا ينتظر ومتى يوجه إلي ضربته الحاسمة. إنه ينتظر يوم إحالته على التقاعد، حيث يفقد صفته الرسمية. إنني لن أهدأ ولن أرتو إلا إذا شربت دماءه.

حين أحس شمس الدين بدموعها المنهمرة على وجنتيها، مسحها بطرف ثوبه وطوقها بساعده قائلا:

" لا تهتمي، سننتقم منه بالشكل الذي يرضيك"

أحاطت وجهه بيديها وهي تقول بيأس:

" ولكن كيف، كيف، قل لي كيف؟"

قال شمس الدين بهدوء:

" هناك طريقتان للانتقام من هذا الرجل، طريقة سريعة وأخرى بطيئة"

" وما الفرق بينهما؟"

" بالطريقة الأولى يا حبيبتي، نبيده هو وعائلته وأطفاله إبادة تامة"

" ولكن ما ذنب عائلته وأولاده؟"

" إنهم سيرثون ديونك التي وقعت عليها بكمبيالاتها، أم تريدين دفعها بعد موته؟"

" والطريقة الثانية؟"

" الطريقة الثانية يا حبيبتي، بطيئة ومهنية فيها عدة أوجه منها سرقة الأوراق والكمبيالات وإتلافها أو استدراجه للمجيء إليك مع كل الأوراق بحجة تصفية الديون، عند ذلك سنلقي عليه القبض ونتصرف معه بالشكل

الذي تريدينه أو نجمع أدلة الإثبات فتقيمين عليه الدعوى لمقاضاته، فالعدالة مهما كانت ضعيفة، يمكن الاستفادة منها. ولكننا في كلا الحالتين نحتاج إلى السلاح وبالذات مسدسات"

قالت عزيزة حائرة دون أن تستوعب كلام صاحبها:

" ولكن عدونا يا حبيبي ليس رجلا عاديا، إنه مسؤول كبير في الدولة"

" ولكنه ورط نفسه بفضيحة هي أكبر من قامته بكثير. إن جهاز الدولة مهما كان فاسدا، فإن له خطوطه الحمراء التي لا يمكن تجاوزها. إنه يعرف جيدا بأن مجرد كشف أمره سيؤدي به إلى الفصل المؤبد، ناهيك عن اتهامه بالقتل. وسترين كيف أن أصدق أصدقائه سيديرون له ظهورهم. إن خنوع الناس وركوعهم أمام المسؤولين، هما اللذان أصابا هؤلاء الجبناء بالبطر. إنهم الآن واثقون من أنفسهم ثقة عمياء، بحيث راحوا يستغنون عن الحماية، معتقدين بعدم وجود رجال أقوياء، ولذلك بإمكاننا سحب أكبر رأس من أنفه"

قرعا كأسيهما، تاركين الفراش إلى مكانهما الأول. سألته ما إذا كان يريد استشارة صاحبيه، فأكد لها بأنهما لا يعترضان على خططه، ولكنه يستشيرهما دائما دون أن يفرض عليهما رأيه. قال بعد تردد:

" اعتقد أنهما أيضا بحاجة إلى حمام"

قامت من مكانها قائلة وهي ترتدي ملابسها:

" هذا ما فكرت فيه أيضا. أبق أنت هنا، سأبلغ أنا البنات للقيام بالواجب"

في الفترة التي غابت فيها عزيزة، خطر ببال شمس الدين موضوع سكنهم الذي لم يتطرقا إليه. والآن ينبغي عليه أن يجد بابا لولوجه بشكل طبيعي غير مفتعل وبطريقة لا توحي إليها بأنهم إنما جاءوا من أجل هذا السبب فحسب. وقرر أن يبادر إلى الكلام عند مجيئها مباشرة، ذلك أنه حين تبدأ هي

بالكلام لا يمكنه مقاطعتها، فينسى هو ما يريد قوله. حين رجعت بشّرته بوجودهما في الحمام. بادر هو بالكلام قبل أن تسترسل هي فيه، قائلا:

" تعالي يا حبيبتي نواصل حديثنا، فإننا لم ننته بعد"

جلست إلى جانبه بهيام وهو لا يدري إذا ما كانت تمثل دور العاشقة الهائمة أم أنها عشقته فعلا. قالت وهي لا تقطع النظر عن وجهه:

" نعم، أسمعك"

" علينا الاتفاق على بعض النقاط الأولية قبل البدء بتنفيذ العملية، وأسئلتي التي أريد أجوبتك عليها، هي كما يأتي:

١. متى نبدأ بالتنفيذ؟
٢. أي الاحتمالين نختار، السريع أم البطيء؟
٣. نحتاج إلى ثلاثة مسدسات، جهاز تصوير وجهاز تسجيل، هل هذه الأشياء موجودة لديك أم أدبرها أنا؟
٤. نحتاج إلى بيت نؤجره للسكن، قريب منك كي نكون على اتصال دائم وسريع بك.
٥. بعد تنفيذ العملية، سنقوم بتشغيل المرقص مهما كلف الأمر.

كانت عزيزة تنتبه إليه بكل جوارحها وهي شاردة الذهن. وحين انتهى من كلامه بدت كما لو أنها استيقظت من حلم جميل:

" جواب السؤال الأول، اتركه لك أنت، لأنك أنت المنفذ الحقيقي. الاحتمال البطيء أحسن، كي نتفادى قتل الزوجة والأولاد الأبرياء. المسدسات وجهاز التصوير والمسجل موجودة. بالنسبة للسكن، عندي بيت فارغ مؤثث بثلاث غرف، يمكنكم استلامه اعتبارا من هذه الليلة. وأما مسالة تشغيل المرقص بأي ثمن كان، فيجب أن يدرس على حدة بالتفصيل"

بعد صمت غير قصير واصلت كلامها:

" أنظر يا شمس الدين، إذا تمكنت من تنفيذ العملية، ستستلم مني نصف ممتلكاتي"

وضع راسه على نهديها قائلا:

" انا ساعمله من اجل عينيك يا حبيبتي، وأما ممتلكاتك فلا أريدها أبدا، إنها ستبقى لك وحدك. انا لا أطمع في مال احد"

رفع رأسه وظل هنيهة يحدق في عينيها ثم قال:

" سؤال جانبي يا حبيبتي، هل انت مصرة على قتله أم يكفي أن نصادر الكمبيالات والأوراق الأخرى ونفرض عليه بعض المطالب لقاء إبقائه حيا؟"

اجابت وهي تنظر مثل نمرة:

" إنه اغتصبني وأوصلني إلى هذا الحال. لن أستكين إذا لم يسفك دمه وبعد ذلك سألغي الماخور واكتفي بتشغيل المرقص وأتوب أمام الله وإذا ساعدني الحظ، فسأحج"

أراد أن يقنعها بعدم جدوى القتل والاكتفاء بتجريده من أوراقه المالية، ففضحه بإقامة الدعوى عليه، ولكنه لاذ بالصمت لقناعته بعدم جدوى ذلك حاليا. وسكتا برهة، وهما لا يصدقان ما توصلا إليه. خرقت هي الصمت، متسائلة:

" هذا هو مشروعي، وضعته امامك وما هو مشروعك انت؟"

قال وهو يفكر بعمق هازا رأسه:

" انا املك اكثر من مشروع، ولا يمكن أن أبدأ به إلا بعد تنفيذ عمليتك أنت، إذ أنها المفتاح الذي يفتح لي الباب الذي أريد أن أدخل منه إلى القصر الذي يختفي في المجهول"

قالت بفضول واستغراب:

" لا تؤاخذني يا شمس الدين، انا لا افهمك"

" اقول، انه بعد القضاء على عدوك المسؤول الكبير، أحتاج مساعدتك لتحقيق عمليات اكبر على طريق إزالة هذه المملكة التي يسمونها بـ (ولاية بطيخ)"

مسكت به بكلتي يديها كما لو انها تريد ان تمنعه من الهروب:

" ماذا تقول يا شمس الدين، هل انت مجنون؟"

قال بلهجة صارمة وواثقة من النفس:

" كلا، لست مجنونا. المجنون هو من لا يفعل شيئا ضد هذه الولاية الفاسدة. ام انها في نظرك غير فاسدة؟"

" اعرف انها فاسدة يا عزيزي، اما تراني اعاني من هذا الفساد، ولكنهم قساة. إذا وصلهم كلامك هذا سيعدمونك فورا في ساحة المدينة. انا لا اريد ان افقدك يا حبيبي. ليكن حالنا حال الآخرين"

قال باطمئنان وهو يحاول إزالة خوفها واضطرابها:

" إننا سنعمل بطريقة خاصة يا حبيبتي. سنعمل بحذر وسرية تامة، دون تطبيل وضجة، ولكن المهم الآن هو تنفيذ العملية الخاصة بك، لأنها آنية وضرورية اكثر من اي شيء آخر. هل يمكنني أن اعرف هذا العدو الذي اقض مضجعك؟ إنني يجب ان اعرفه، كي اتمكن من التخطيط للعملية"

قالت بارتياح بالغ:

" إنه مدير الشرطة العام، جناب الأفندي كمال مجيد عزة، ينادونه بكمال بك ويسمونه ايضا بزير نساء. وله علاقة مباشرة بوزير الداخلية"

ضحك شمس الدين كما لو انه عثر على شيء فقده وقال باستخفاف:

" تقصدين هذا الوغد الذي يسميه أهل المدينة بـ (حاميها حراميها). إن الغرور قد ادى به إلى ان يتجول مخمورا في ازقة المدينة وحده، يتصيد بنات الفقراء. يمكن إزاحته عن الطريق كأي كلب، ولكن..."

التفت إليها وهو يحدق في عينيها الجميلتين برهة ثم تساءل:

" هل تملكين الجرأة الكافية لتنفيذ ما أطلبه منك؟"

قالت بلهجة صادقة وجريئة:

" سأنفذ كل ما تطلبه مني، لأن ثقتي عالية بك"

" هذا كلام جيد، أرسلي له خبرا بطريقة ما تقولين فيه بأنك تريدين منه أن يحضر إليك جالبا معه جميع الكمبيالات والمستندات، لأنك تريدين دفع الديون نقدا وأكدي له بأنك ما زلت مشتاقة إليه وإنه يتمكن من زيارتك متى ما شاء، إذ ذاك سيقع في الكمين ونعرف كيف نتصرف معه"

قفزت في مكانها فرحة وقائلة:

" سأرسل له رسالة بيد زينة"

هز شمس الدين رأسه بالرفض المطلق، قائلا:

" كلا يا عزيزتي، هكذا مستمسك لا يمكننا تسليمه. يجب أن يكون التبليغ شفويا"

قبلته من فمه قائلة:

" أنت ذكي جدا يا شمس الدين"

واصل شمس الدين:

" وسوف يأتيك وحده سرا كعادته وقبل تسلم المبلغ المزعوم، ينزع ملابسه على أمل مضاجعتك. وعند ذلك نظهر نحن الثلاثة ونلقي عليه القبض، إذ ذاك تشتغل رحمة الله وبعد ذلك تبدأ المرحلة الثانية التي هي مشروعي أنا"

(٦)

بعد تناول طعام العشاء في الساعة الثامنة والنصف، تسلم شمس الدين مفتاح البيت من عزيزة التي كلفت خادمها عليوي بأن يصحبهم إليه ويدلهم على الطريق كي يطلعوا عليه بأنفسهم ويبدون رأيهم إذا ما كانوا يرغبون استئجاره أم لا؟ كان البيت يقع خلف دار عزيزة مباشرة ولم يؤَجره أحد بسبب السمعة السيئة للمحلة. وكانت ثمة بيوت فارغة كثيرة في ذلك الطرف للسبب نفسه، ولذلك كانت إيجاراتها رخيصة جدا. قال شمس الدين بعد أن تجولوا في أرجاء البيت بأن أهم شيء متوفر فيه هو التيار الكهربائي والماء الجاري وهو في كل الأحوال أحسن من السكن في عرين الأسد. وحين التقط عليوي عبارة "عرين الأسد"، تصورها اسم فندق من الدرجة الأولى، فقال باحتجاج:

" السكن في الفندق يهجم بيت الإنسان يا عمي"

علق شمس الدين قائلا:

" بارك الله فيك يا عليوي والله كلامك حلو"

ثم راحوا يستدرجونه بمزاح إلى الكلام لمعرفة سبب رخص الإيجار. قال أن باجي سوف لا تطلب منهم فلوس الإيجار. المهم بالنسبة لها هو أن لا يبقى البيت فارغا. إن الناس الذين يعتبرون أنفسهم شرفاء، يسمون محلتهم

بالكلجية، ولذلك لا يسكن هنا سوى من يسمونهم بالسرسرية. ضحكوا بصوت عال دون أن يعرف عليوي لماذا. وحين اراد ان يسألهم عن سبب ضحكهم، قال شرف الدين معاتبا:

" يعني نحن في نظرك سرسرية يا عليوي، يا أبن النعجة"

قال عليوي منفعلا وهو يتلعثم:

" لللليش كل واحد يييكدر يصير سسسسسسرسري؟"

اختار كل واحد منهم الغرفة الخاصة به على أن يكون الهول والمطبخ والحمام والتواليت للاستعمال المشترك. وكانت كل غرفة تحتوي على سرير واغطية وشراشف ودولاب للملابس ومنضدة مع كرسي ومرآة كبيرة معلقة على الجدار تطل على دولاب صغير يحتوي على مجموعة مناشف ملونة بمختلف الأحجام. في طريق عودتهم إلى دار عزيزة لمواصلة السهرة، تبين لهم أنهم التزموا بشكل جيد بالقرار الذي اتخذوه بشأن عدم الإفراط في الشرب. وقرروا أن يواصلوا ذلك اعتبارا من الآن فصاعدا، كي يحافظوا على نقاء تفكيرهم، إذ أن أمامهم مهمات خطيرة وصعبة تحتاج إلى الصفاء في التفكير. وعندما ابتعد عنهم عليوي بسبب سرعته الملحوظة بعض الشيء، تحدث شمس الدين إلى صاحبيه عما تم الاتفاق عليه مع عزيزة وبشرهما بأنها أبدت استعدادها التام للتعاون معهم. وأنه سيخبرهما فيما بعد بتفاصيل الخطة التي سيتم الاتفاق بشأنها مع عزيزة. المهم أنهم يجب أن لا يفرطوا في الشرب وأن يكونوا مستعدين لمجابهة وخوض أي معركة تفرض عليهم أو يفرضونها هم على أعدائهم.

كانت عزيزة تبدو على عجلة من أمرها، حين عاد الثلاثة إلى بيتها. كانت تتلهف إلى سماع رأيهم بخصوص البيت. ولما أبدوا إعجابهم به وموافقتهم للسكن فيه، تنفست الصعداء، ثم همست في أذن شمس الدين تطلب منه الاختلاء به في غرفتها. قالت له في طريقهما إلى غرفتها أنها تكلمت في غيابهم

مع زينة حول موضوع نقل الخبر إلى مدير الشرطة المدعو كمال. وترى زينة أنه من المستحسن زيارته في مقر عمله، ذلك لأن زيارته في البيت تثير حفيظة زوجته الغيورة التي ربما ستخلق مشكلة كبيرة، سواء لزوجها أم لها. لقد أبدت زينة كامل استعدادها للقيام بالمهمة وهي بانتظار الإشارة منها. وحين دخلا غرفتها، طوقها شمس الدين قائلا:

" افهم منك أنك تريدين تنفيذ العملية في أسرع وقت ممكن"

" وهل في تأخيرها مصلحة؟"

" كلا أبدا، ولكنني أحتاج المسدسات"

قالت بشيء من الحيرة:

" الا يمكن الاكتفاء بمسدسين؟"

فكر هنيهة، عاصرا رأسه بيمناه ثم قال بارتياح:

" الحقيقة .. يمكن الاكتفاء بمسدسين. ولكن انتبهي جيدا، كيف فاتحت زينة بالموضوع؟"

" سألتها إذا ما كانت مستعدة لإيصال خبر إلى كمال، فأبدت موافقتها معتقدة أن الموضوع يتعلق بإعادة الصلة به"

كانا لا يزالان واقفين في منتصف الغرفة، حين اتخذا مكانيهما على الكنبة، نبهها شمس الدين قائلا كأي خبير:

" أن زينة نفسها يجب أن تصدق بأنك تريدين إرجاع الديون فاستلام الكمبيالات والمستندات فعلا. وأن عليها أن تزوق كلامها بأنك لا زلت تحبينه وانه يتمكن من زيارتك متى ما يشاء. هذا من جانب ومن جانب آخر يجب أن يكون البيت في الموعد الذي تعينيه مع كمال خاليا من كل من عليوي وزينة وساهرة. أي أن هؤلاء الثلاثة يجب أن لا يعرفوا بالعملية نهائيا: أرسليهم إلى إجازة لبضعة أيام"

قالت باستغراب وسذاجة:

" ولكنني أثق بهؤلاء الثلاثة ثقة عمياء"

قال بحزم وإصرار:

" هذا الموضوع لا نقاش فيه أبدا. أنا لست مستعدا للمغامرة بحياتنا"

استسلمت للأمر الواقع مقتنعة بكلامه:

" كما تشاء يا حبيبي، انت أدرى مني"

" ولكن هناك مشكلة أخشى أن تعرقل عمليتنا وهي احتمال عدم استجابته لطلبك"

ضحكت بسخرية قائلة:

" إنه يحلم بمثل هذا اللقاء. هل تعرف كم مرة طردته؟ إنه سيزحف إلي راكعا على قوائمه الأربعة، ولا سيما إذا سمع بقصة تصفية الديون"

قال شمس الدين وهو يرفع كأسه، قارعا كأسها بانتصار:

" إذا كان الأمر كذلك، فسوف يكتب النجاح حتما لمشروعنا. ولما كنا الآن وحدنا، فأحب أن أسوق إليك بعض الملاحظات حول خطتنا التي يجب أن تبقى بيننا فقط، أن زلة لسان واحدة قد تؤدي بنا إلى الهاوية"

قالت باعتداد:

" لسانك حصانك، إن صنته صانك وإن خنته خانك"

" عظيم يا حبيبتي، يمكن الاعتماد عليك كليا. انظري يا حبيبة. اعرف ماذا تريدين. أنت تريدين قتل هذا الشخص الذي ضحك عليك منذ البداية والانتقام منه. وأما أنا فجئت إليك ليس لهذا السبب، بل لتحقيق مشروع أكبر من هذا بكثير. نحن نريد العنب وليس قتل صاحب المزرعة. إننا يمكننا قتله بسهولة، ولكن ماذا نفعل بجثته. ولا تنسي أنه ضابط كبير في الدولة، وإن الدولة ستعمل المستحيل للعثور على القاتل أو القتلة. سيطاردوننا بأجهزة تحقيقاتهم الجنائية الدقيقة وكلابهم البوليسية إلى آخر الدنيا. وحين يلقون علينا القبض سيحكم علينا إما بالسجن المؤبد أو الإعدام، فلماذا كل

هذا الإيراد والمصرف. ثم هل يستأهل هذا الإنسان أن نقدم كل هذه التضحيات من أجله؟"

قالت عزيزة بعصبية لا إرادية:

" سأقطع جثته وألقي بها قطعة بعد أخرى في التنور إلى أن يزول أثره عن الوجود"

علق شمس الدين بهدوء:

" وما فائدة كل هذا العمل المتعب؟ إنني أريد أن أحقق خطتي عن طريقه، لذلك أريده حيا وليس ميتا"

عرفت أنه من النوع العنيد الذي إن أصر على شئ، فإنه لن يلين وأنه لا مانع لديه الآن أن يترك المشروع كله وينصرف في طريقه مع صديقيه إلى عرين الأسد. ثم أن فضولها لمعرفة تفاصيل خطته دفعها أن تهدأ وتقول:

" إذاً حدثني عن خطتك"

اعتدل في جلسته بارتياح:

" حسن، سأحدثك عن خطتي بالتفصيل. هل تعرفين ماذا يعني دولة داخل دولة؟ إنه يعني حاميها حراميها ودولة فرهود. هناك سباق في السرقة بين أكبر حاكم إلى أصغر شرطي. والذين يُسرقون ويتحملون الرذالة هم نحن الفقراء. أنت تبيعين جسدك فتعيشين بالثمن المدفوع لك، وماذا عساني أنا أن أبيعه كي أعيش بثمنه؟ ولما كانت الأمور تائهة لا ربط فيها ولا ضبط ، حيث اختلط الحابل بالنابل، لذا يجب أن نقوم بعمل ما. تصوري نحن الثلاثة نعيش في المقبرة، ولا أحد يسأل ماذا تفعلون هناك. سطونا على محل المسكين دنخة أمام أنظار الشرطة، وأنا واثق أن أي واحد لم يلب نداء استغاثته حتى هذه اللحظة. إنني بصراحة أريد أن أشكل دولة داخل دولة ولاية بطيخ، ولذلك أحتاجك وأحتاج هذا الضابط الذي تريدين قتله. ولما

كانت الحركة بركة ونعمل حسب مقولة لا تؤجل عمل اليوم إلى غد، لذا أرجو ان نبدأ بعملنا فورا"

لم تأخذ كلامه بالجد، ولكنها أدركت أنه بحاجة إليها. اجتاحتها موجة من الراحة الداخلية التي أعادت إليها الثقة التي كانت تعاني من فقدانها، بيد انها لم تتمكن من استيعاب فكرة حاجته إلى عدوها. ما هو الشيء الذي يمكن لهذا الضابط المتعالي تحقيقه له، وكيف؟ قالت بلهجة فيها قناعة:

" إن ما قلته صحيح، وأنا نفسي ضحية هذا الوضع، ولكن ما هو وجه المساعدة التي يمكن أن يقدمها لك هذا الضابط الأرعن؟"

اجاب بابتسامة ساخرة:

" انا لن التمس منه المساعدة، بل سأنتزعها منه انتزاعا. سنلتقطهم واحدا بعد آخر ونفرض عليهم شروطنا مقابل بقائهم في الحياة وعدم نشر فضائحهم"

قالت مبتسمة بارتياح:

" الآن فهمت ماذا تريد. سأذهب معك حتى إلى الموت"

قرع كأسها بكأسه:

" هذا هو الكلام الذي كنت اتوقع أن اسمعه منك يا حبيبتي"

" هل اطلب حضوره غدا؟"

" أعطيه فرصة للتفكير، وخيريه بين مساء غد أو بعد غد، وامنحي الجماعة عطلة أسبوع، تبدأ اعتبارا من يوم غد"

" كما تشاء يا حبيبي"

قال وهو شارد الذهن:

" ولكننا بحاجة إلى جهاز تصوير جيد"

"موجود كما قلت لك، ولكنني يجب أن أرسل عليوي غدا لشراء فلم. هل تريد ان تأخذ لي صورة تذكارية؟"

" الصور التذكارية سنلتقطها فيما بعد. إنني احتاجه حاليا للعملية. على فكرة يجب ان نتأكد من ان المسجل غير عاطل"

قالت وهي تضمه إلى صدرها:

" لا تخف إنه غير عاطل، شغلته يوم امس. انت إبليس لا يمكن التغلب عليك"

" ولكنك انت تغلبت علي"

" وانت تغلبت علي ايضا، بدليل إنني تنازلت عن قتل هذا المجرم. ماذا تقول لو انادي على زينة واكلفها امامك بنقل الخبر إلى هذا الأرعن"

" يمكنك تكليفها الآن او غدا، ولكن ليس امامي. يجب ان يبقى الاتفاق سرا بينكما فقط"

اطبقت عليهما هنيهة صمت، خرقها شمس الدين قائلا:

" اعتقد إننا قد توصلنا إلى اهم الأشياء التي كنا نريد بحثها معا. ماذا تقولين لو نذهب الآن إلى الجماعة ونشاركهم السهرة، لأن غيابنا قد طال عليهم"

قاما من مكانهما وكل واحد منهما يمسك كأسه، وتركا الغرفة إليهم. عندما اجتازا عتبة الغرفة، قام كل من شرف الدين وخير الدين من مكانهما على الأرض احتراما لهما، ولم يجلسا إلا بعد ان اتخذت عزيزة وشمس الدين مكانهما على الكنبة لصق بعضهما. طلبت عزيزة، وهي تضع يدها على كتف شمس الدين، من الجماعة أن يأخذوا حريتهم كاملة. وهي حين تصرح بمثل هذا الأمر، فيعني ذلك بالنسبة للبنات إحياء حفلة غنائية تليق بالمناسبة. قامت زينة من مكانها بسرعة وهي تتساءل إذا ما تذهب لجلب الفرقة الموسيقية. اجابت عزيزة أنها لا تريد إزعاجهم في هذا الجو العائلي الصغير، بل طلبت منها أن تجلب من غرفة المخزن الطبلة والربابة ثم وجهت الأنظار إلى شرف الدين، مادحة إياه كعازف ربابة جيد. وأما الطبلة؟ هنا

وقفت متسائلة وهي تدير نظراتها بين العيون المحدقة فيها. قال شمس الدين وهو يلقي عباءته جانبا:

" وأنا أدق على الطبلة"

ضحكت عزيزة بصوت عال وهي تقول:

" صحيح انت صاحب سبع صنائع"

ثم همست في أذنه:

" شيخ طبال"

عندما رجعت زينة وسلمت الربابة والطبلة لكل من شرف الدين وشمس الدين، طلبت منهما عزيزة أن يبدءآ بشغلهما، ثم قامت من مكانها، مشيرة إليها أن تتبعها إلى غرفتها. ولما كانت زينة هي صلة الوصل بينهما دوما، لذلك عرفت بأن الموضوع يتعلق بلا شك بعشيقها القديم. طلبت منها عزيزة ان تتخذ مكانها إلى جانبها كالعادة عندما كانت تكلفها بالاتصال به أيام زمان. قالت وهي تمسك يدها:

" انظري يا زينة يا حبيبتي. انت تعرفين القصة جيدا. غدا ستذهبين بعد طعام الفطور إلى كمال افندي. بلغيه سلامي وأشواقي وقولي له أن عزيزة قد ربحت الجائزة الأولى في بطاقة اليانصيب وأنها تريد أن تدفع ديونها كلها دفعة واحدة. خيريه بأحد الموعدين، غدا مساءاً أو بعد غد مساءاً، لذلك عليه أن يجلب معه جميع الكمبيالات والأوراق. وإذا سألك عن موضوع حادث القتل، فقولي له إن لي أخباراً سارة له، سيسمعها مني عند لقائنا. وحاولي كالعادة أن لا يتعرف عليك احد، وإلا فانه سيغضب علينا. هل تحتاجين إلى توضيح آخر أم يكفي؟"

قالت زينة وهي فخورة بالمهمة وتنظر إلى الأرض:

" لاشك انه سيسأل كعادته عن الساعة، فماذا اقول له؟"

" إنه يعرف متى يدخل بيتي عادة، ومع ذلك قولي له أن يأتيني مع الظلام الدامس. لا أريد أن يراه أحد وهو يزورنا"

قالت زينة برجاء:

" هل يجب أن أرجع إلى البيت مباشرة؟ ألا يمكنني المرور على بيت أهلي ثم أرجع إليك عصراً"

" كلا يا زينة، أوصلي لي الخبر فورا ثم اذهبي لمدة أسبوع إلى حيث تشائين. تمتعي بإجازة أسبوع كامل. ماذا تريدين بعد؟"

أحاطت يمناها بيديها وهي تقبلها بقوة:

" شكرا يا باجي شكرا، الله يوفقك وينصرك على أعدائك"

قامت عزيزة من مكانها وهي تقول بلهجة انتصار:

" هيا لنذهب إلى الجماعة ونشاركهم في طربهم"

(٧)

في صباح اليوم التالي استيقظت عزيزة على رنين جرس المنبه وتركت فراشها بسرعة كي تتأكد إذا ما كانت زينة قد استيقظت من نومها وما إذا كانت مهيأة لمغادرة البيت. وحين دخلت غرفتها، عرفت منها إنها قد أعدت الفطور وهي جاهزة لترك البيت، وإذ ودعتها طمأنتها مرة أخرى بأن عليوي وساهرة لا يعرفان شيئا عن الموضوع وأنهما ما زالا نائمين. ألقت زينة عباءتها على رأسها وأنزلت الحجاب على وجهها، بحيث تحولت إلى شبح أسود لا يمكن التعرف على هويتها. قطعت الزقاق المؤدي إلى الشارع الفرعي ثم انعطفت إلى الشارع العام المؤدي إلى ساحة البلدية. كانت المسافة المؤدية إلى مديرية مركز الشرطة العامة، تستغرق نصف الساعة مشيا. ورغم أن عزيزة قد دست في يدها مبلغ نصف الدينار، أجرة التاكسي أو عربة يجرها حصانان، فإنها قررت أن تستعمل رجليها وتقتصد المبلغ، ولا سيما أنها أحست بحاجتها إلى المشي. ابتسمت مع نفسها حين تحرش بها أحد المراهقين، قائلا:

" فهمنا عباءة، ولكن لماذا إخفاء الوجه يا حلوة؟"

قالت في نفسها، كلامك صحيح يا بني، لك الحق في التساؤل. وانا ايضا لي الحق في إخفاء وجهي. إنك لو عرفت اين اشتغل، لأعطيتني الحق في إخفاء وجهي الجميل الذي نصحتني باجي يوم امس بالعناية به، كي ابدو امام كمال بك بمنتهى الجمال. ولذلك يؤسفني انك لا تستطيع التمتع بمشاهدة وجهي أيها الصبي المراهق. اذهب وداعب بنت الجيران يا بني فأنا مثل امك، ولكنني لا شك لست شريفة مثلها، إن كانت امك حقا شريفة. كان السوق قد بدأ بالحركة. وكانت هي تفهم من حركات الباعة ونداءاتهم الدعائية لبضائعهم بأن إشاراتهم الفكاهية المختلطة بالجنس، تعنيها هي، واحست براحة داخلية وشعور عميق بذروة الإنتعاظ، دون ان يلمسها رجل. هذا قصاب يفرك بيده لية الخروف المعلق وينادي:

" قيمر يا ولد"

وآخر احدث فرجا احمر في الرقي، يمرر فيه اصابعه، صائحا:

" لا يعرف طعمه، إلا من يذوقه"

تركت السوق إلى الجانب الثاني من دار البلدية، حيث بناية مركز الشرطة التي تعرفها جيدا، إذ سبق لها قبل اشهر طويلة أن حملت إليه رسالة مماثلة، ولكن بموضوع آخر غير موضوع الكمبيالات والنقود التي كانت لا تخطر ببال احد، يوم كانت العداوة غير مكشوفة بينهما. توالت الأحداث السيئة فيما بعد، دون أن تفهم محتواها وأسبابها. ومما أزم الموقف، هو مقتل هذا الشاب الذي قيل انهم كلهم كانوا يغارون منه وكان أن أردوه قتيلا، دون أن يعرف احد من هو القاتل الحقيقي ومن هو القتيل الذي دفن سرا، إذ لم يسبق لأحد أن راى عملية القتل أو إطلاق الرصاص. كل الشهود اكدوا أمام المحقق انهم لم يروا سوى الجثة وهي ملقاة على الأرض جنب بركة من الدم. وإلى أين ذهب القاتل، هل انه امتلك جناحين وطار بهما إلى السماء. أم اختفى كأي شبح؟ إنها تعرف جيدا بأنهم لا يصرحون

بالحقيقة التي يعرفونها، وذلك خوفا من الانتقام. وهي تعتقد أن عزيزة نفسها تخفي بعض الحقائق، ولذلك بقيت القضية أمام هيئة التحقيق والقضاة معلقة في الفضاء. وربما أغلقت الدعوى دون أن تعرف بها هي. ولكن ما قيمتها هي أمام كل هؤلاء العفاريت والشياطين. إنه مجرد فضول من جانبها لا يسمن من جوع. وهي ليست سوى خادمة مطيعة، تفعل ما تأمرها ولي نعمتها: زينة، تعالي نظفي هذا المكان، اغسلي هذه الملابس، اطبخي لعشرة زبائن، قدمي الشاي لهذا وذاك، اذهبي إلى الفراش مع هذا الشيخ. كل شئ يهون، ولكن ليس الذهاب مع هذا الشيخ إلى الفراش. إنه في عمر جدها، يبست عروقه وتحولت إلى أسلاك شائكة هشة لا تفيد حتى في ربط قوائم الجمال التائهة والجرباء في مجاهل الصحراء. آه يا زينة، كيف رماك القدر في أحضان هذه المهنة. نفس السبب الذي رمى عزيزة في هذا المكان، رماها هي أيضا. ولولا اللسان الحلو لعزيزة ومداراتها لها ودفع مستحقاتها الشهرية بانتظام، وذكرياتهما القديمة المشتركة وقسوة الحياة، لما بقيت عندها يوما واحداً.

حين استيقظت من شرودها وأحلام يقظتها، وجدت نفسها أمام بوابة مركز الشرطة. قبل أن تجتاز البوابة، أوقفها شرطي بدين وهو يستفسر عن وجهتها. أجابته بصوت صارم:

" أريد مقابلة كمال بك مدير الشرطة"

سأل الشرطي بأدب ممزوج بالرهبة:

" هل لك موعد معه؟"

" مهمة سرية عاجلة، أنا مخبرة سرية معتمدة"

احتار الشرطي في أمره وسألها بصوت مرتعش إذا ما بإمكانه مشاهدة هويتها. قالت بغضب:

" قلت لك إنني مخبرة سرية معتمدة، اريد مقابلة سعادة مدير الشرطة لسبب سري مهم. أوصل له الخبر بأنني اريد مقابلته فورا"

قبل أن يرد عليها الشرطي جاءهما مفوض شرطة شاب، خارجا من غرفة الاستعلامات، قال لها أن سعادة مدير الشرطة مشغول الآن باجتماع مهم، ولذلك يمكنها الانتظار في غرفة الاستعلامات لحين انتهاء الاجتماع بعد عشر دقائق. وإذا كانت المسألة عاجلة جدا، فيمكنها الاتصال به تلفونيا.
بعد أن اتخذت مكانها على كرسي وراء المصطبة، أزاحت حجابها قائلة وهي تنشف العرق المتصبب من وجهها بمنديل أبيض:

" اشكرك يا اخي، سأنتظر لحين انتهاء الاجتماع، إن لقائي معه لا يستغرق سوى دقائق. هناك أشياء مهمة يجب إيصالها إلى سعادة مدير الشرطة فورا، لأنها كما تعلمون لا تتحمل التأخير. وتأخير مثل هذه المهمات قد تؤدي إلى كوارث لا تحمد عقباها. إنها مسألة صيانة أمن الدولة. ونحن كلنا رعايا هذه الدولة، مسؤولون عن سلامتها..."

احست زينة أنها بحاجة غريبة إلى الكلام وأن لسانها لا يريد أن يتوقف أمام هذا المفوض الشاب الذي ينتبه إليها بأذن صاغية ويحملق في وجهها ببلاهة غريبة وهو يكاد يلتهمها. وعرفت من خبرتها أن إدعاء الاجتماع المهم، ليس سوى كذبة وحجة بيروقراطية مفروضة بشكل تقليدي أعمى على كل موظف، مهما كانت منزلته، دون أن يعرفوا هم الأسباب الموجبة لتربية هذه الدودة التي تنخر في جسد جهاز فاسد من الأساس. مضت الدقائق العشر بسرعة. طلبت منه بأدب أن يتلفن ويخبره بوجود السيدة زينة. ولما أعلم المفوض مدير الشرطة بالموضوع، صاح من الطرف الآخر بصوت عال:

" يا حمار كيف تترك امرأة تنتظر كل هذا الوقت. الم تخبرك بالمهمة السرية؟"

قال مفوض الشرطة بصوت مرتجف:

" ولكنكم يا سيدي نبهتموني بانشغالكم بالاجتماع"

قال المدير من الطرف الآخر بغضب:

" يا اجتماع يا ضراط، أرسلها لي فورا، المسألة لها علاقة مباشرة بأمن الدولة يا حمار. ألم تدرك بعد يا رأس الجحش بأن حجة الاجتماع مجرد دودة"

رافقها المفوض إلى الطابق الثاني الذي يتواجد فيه مكتبه، وهو يقول متذمرا:

" هذا مدير شرطة لو مصيبة؟"

قام المدير جناب كمال بك من مكانه فرحا، وهو يمد يده إلى عضوه يفركه بصورة لا إرادية، مناديا على فراشه الواقف وراء الباب. وعندما ظهر هذا أمامه، اقترب منه قائلا بصوت خافت:

" انظر يا عم سعيد، إنني الآن سأنشغل بمقابلة مخبرة سرية مهمة للغاية، فإذا سألك عني اي إنسان مهما كان، تقول بأنني غير موجود، هل فهمت؟ غير موجود. عندي اجتماع مهم خارج الدائرة"

قال الفراش للتأكيد:

" سيدي، أنت تتواجد خارج البناية وكفى"

ضرب المدير على كتفه بثناء:

" بالضبط يا عم سعيد، أحسنت"

ولكي يتفرغ لها نهائيا دون أن يزعجه سكرتيره المتواجد في الغرفة الملاصقة لغرفته، أبلغه هو الآخر بأنه مشغول باجتماع سري للغاية، لذلك لا يريد أن يطرق باب غرفته أو يتلفنه أي كان. وجدها السكرتير فرصة سانحة كي يترك الدائرة لقضاء بعض الأشغال في السوق. وافق المدير على غيابه حتى الساعة الواحدة ظهرا.

بعد هنيهة دخلت زينة وهي محاطة بغيمة من أريج العطر. عندما أولج المفتاح في المزلاج قافلا الباب، أدركت ما ينويه. وكانت هي الأخرى قد داهمتها الرغبة عند مرورها بالسوق، لذلك أحست بأنها لا تتمكن حتى من مجرد تمثيل لعب دور الممانعة.عانقها ملتصقا بكل جسده بها، وأحست هي بعضوه ينتصب باتجاه بطنها. قال وهو يتشمم عنقها ويمد يده إلى ما بين فخذيها من تحت تنورتها القصيرة:

" زينة، أنت جميلة فعلا، أجمل من عزوزة. هل جئت بنفسك أم أرسلتك عزيزة؟"

قالت بدلال وهي تتأوه، بعد أن أحست برغبته الجارفة:

" باجي أرسلتني إليك. هناك أخبار سارة..."

قاطعها باستعجال، مانعا إياها من الكلام:

" هذا الكلام سنسمعه فيما بعد"

ألقى بها على الكنبة وهو ينزع بنطلونه. قالت وهي تلتفت باتجاه الباب بنظرات وجلة:

" أتريد أن تفعلها هنا في دائرة حكومية؟ الا تخشى أن يداهمنا أحد الموظفين؟"

أجاب وهو يدفن وجهه في بطنها وبين نهديها:

" خراك على الحكومة كلها يا حبوبة"

قالت وهي تدلك بيديها صدره وبطنه:

" يبدو أن زوجتك لا تشبع حاجتك"

" يا حاجة يا بطيخ، الغبية حامل في الشهر التاسع. الله وحده أرسلك إلي"

قال بعد أن ارتدى ملابسه وهو يزرر سترته:

" حرامات يا زينة حرامات. كل هذا الكنز لم أتمتع به من قبل، ولكنني سأعرف شغلي معك من الآن فصاعدا."

عادا إلى وضعهما الطبيعي، بعد أن اتخذ كل واحد منهما مكانه. قالت وهي تنظر في مرآة صغيرة أخرجتها من حقيبتها اليدوية:

" لولا حرمانك بسبب الحمل، لما اقتربت مني. المهم يجب أن لا تعرف باجي بالموضوع، وإلا ستذبحنا مثل الخروف"

" وهل تعتقدين أنها ستغار منك بسببي، أنا أعتقد أنها تكرهني الآن وتظن بأنني أنا سبب المشاكل التي أدت إلى غلق محلها"

قالت بعد أن أعادت المرآة إلى حقيبتها:

" كلا يا كمال بك، إن باجي لا تكرهك، بل ما زالت تحبك وتفكر فيك دائما. وهي أرسلتني اليوم خصيصا إليك لأبلغك ببعض المسائل المهمة بينكما. وهي تريد منك موعدا للقاء بها في دارها"

قال باستغراب:

" موعدا للقاء بها في دارها؟ ألم تقل لك السبب؟"

قالت مبتسمة وفرحة:

" تريد أن تصفي كافة ديونها معك. اذهب إليها اليوم أو غد وخذ معك جميع الكمبيالات والأوراق المفتوحة، واستلم منها المبالغ نقدا"

قال السيد كمال بك ساهما وكأنه لا يريد أن يصدق كلامها:

" ولكنني اعتقد انها افلست، فمن اين لها هذا المبلغ الكبير. انا مستعد ان اتنازل عن عشرة بالمائة من حقوقي"

قالت بلهجة واثقة:

" باجي قلبها صافي. إنها ربحت الجائزة الأولى في بطاقة اليانصيب"

تساءل بدهشة:

" هل استلمت المبلغ؟"

" نقداً"

" خمسة آلاف دينار؟"

" بالضبط"

قام من مكانه وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً دون أن يستقر له قرار وهو يردد:

" إنه حظي أنا، حظي أنا، لقد غسلت يدي منها نهائيا. الحمد لك يا رب العالمين، ألف حمد، انك أنت السميع المجيب"

قالت وهي تصطنع الجد:

" ولكن كمال بك، ارجو أن تبقى مسألة الجائزة الأولى بيننا فقط، تعرف هناك حساد وفضوليون لا يكفون عن صنع المشاكل سواء لها أو لك"

" طبعا هذا مفهوم يا زينة، لا داعي للتنبيه"

قامت من مكانها مرتدية عباءتها ومتهيئة لمغادرة الغرفة وهي تقول:

" يجب أن أذهب، باجي في انتظاري، متى يعجبك زيارتها، اليوم أو يوم غد، إنها بانتظار الجواب"

قال وهو يعانقها:

" بلغيها تحياتي، سأكون عندها هذا اليوم عندما يطبق الظلام الدامس على المدينة"

" إنها مشتاقة إليك كثيرا، وتريدك أن تأتيها وحدك. هل فهمت؟ وحدك"

دس في يدها ورقة من فئة الدينار الواحد وهو يقول مبتسما:

" وهل تعتقدين انني سأذهب إليها بمصاحبة زوجتي؟"

قالت وهي تترك الغرفة:

" تمام"

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة وكان صف طويل من المراجعين الحاملين أوراقهم، يرابط أمام غرفة السكرتير الذي يفترض أن يعود في الساعة الواحدة. ولما كان المراجعون قد فقدوا صبرهم بسبب الانتظار الطويل، لذا راحوا يمارسون الضغط على الفراش لتسلم أوراقهم، ليسلمها بدوره إلى

المدير نفسه. ولما لم يتمكن الفراش من إقناعهم بأن المعاملة لا يمكن أن تنجز إلا بعد توقيع السكرتير على الطلب، لذا ذهب إلى المدير يطالبه بإيجاد حل لهؤلاء المراجعين الذين ينتظرون منذ حوالي الساعتين. قال المدير وهو لا يزال يحتفظ بمزاجه اللطيف:

" يا عم سعيد، قل لهم بالعربي الفصيح أن السكرتير في مهمة رسمية بدائرة أخرى، وأنه سيرجع في الواحدة تماما. يمكنهم أن ينتظروه أمام باب غرفته أو يذهبوا إلى أسفل السافلين ثم يرجعوا إليه في الساعة الواحدة، هل فهمت؟ وإذا أصروا على مشاغباتهم، فبلغ أمن الدائرة بالموضوع كي يكسروا ضلوعهم، هل فهمت؟"

قال العم سعيد وهو يترك غرفة المدير:

" نعم سيدي، أن يكسروا ضلوعهم"

رفعت زينة طرف عباءتها إلى أعلى قليلا وراحت تهبط السلم بسرعة كما لو أنها غزالة برية. وحين تركت بوابة دائرة الشرطة، وضعت الحجاب الذي تكرهه على وجهها. ولولا خشيتها من أن يتعرف عليها أحد الزبائن، لما جلبته معها أصلا. وراح العرق يتصبب من وجهها من جديد جراء هذا القماش الأسود اللعين الذي يمتص الحرارة من الشمس المحرقة ويصبها على وجهها الطري الذي نادرا ما تعرضه للشمس، فيتصبب وجهها عرقا غزيرا ينحدر على صدرها فنهديها. وحين اجتازت السوق الذي خفت حركته جراء القيظ، أزاحت الحجاب، فأنساب على وجهها نسيم جاف بعث فيه البرودة. ولم يعد العرق يتصبب. قررت في نفسها أن تأخذ دُشا باردا عند وصولها البيت وتجلس عارية أمام المروحة الكهربائية.

كانت عزيزة تنتظرها على أحر من الجمر وهي تذرع غرفتها جيئة وذهابا وتفكر في الخطط الغريبة والعجيبة التي خططها شمس الدين. حيث

أنهما في الليلة الماضية بعد أن انصرف الجميع إلى الفراش، سهرا وحدهما يبحثان تفاصيل الخطة وكيفية التصرف مع كمال بعد إلقاء القبض عليه. وبدا لها أن شمس الدين لم يصارحها بكل شئ، قال لها أنها سترى مفاجئات لم تكن في بالها ولا خيالها. وأنها يجب أن لا تخاف، بل تتقبل كل المفاجئات بشجاعة. إنه باختصار يريد بذلك أن يري المسألة كما لو انها مداهمة لبيتها هي. ومن خلال هذه المداهمة التي هدفها هو السطو على بيت عزيزة للحصول على مبلغ الجائزة الأولى المزعومة، يتم اللقاء بالسيد كمال بك مدير الشرطة الذي يتواجد هناك عن طريق الصدفة ويحمل في حقيبته مجموعة من الكمبيالات التي تتم مصادرتها من قبل اللصوص. عند ذلك يتعرض المدير إلى تحقيق عريض طويل، يراد به أن يتعاون معهم في السر لقاء بقائه حيا يرزق. ولكي يضمنوا عدم خيانته لهم ، يقومون بتصويره عاريا مع عزيزة وتهديده بفضحه أمام دوائر الدولة عند محاولته خيانتهم أو تقاعسه في خدمتهم. إن وظيفته الجديدة تكمن في أن يقوم بالتعاون معهم من موقع وظيفته كمدير شرطة، حيث يعتبرونه شريكا لهم في السراء والضراء على أن يتقاسموا معه كل ما يحصلون عليه بالمناصفة.

كانت لا تتوقع أن زينة سوف تتأخر بهذا الشكل وراحت تضرب أخماسا بأسداس. وهي تفكر بأنها حتى لو مشت إلى هناك ذهابا وإيابا لما استغرقت هذه المدة. وتساءلت في نفسها إذا ما كان جنابه غائبا عن الدائرة فاضطرت أن تنتظره. إنها تخشى أن تعود بخفي حنين ويكون النهار قد انقضى بلا فائدة وهي وعدت الجميع بالتمتع بعطلتهم اعتبارا من ظهر هذا اليوم. وماذا لو لم يأت هذا الأرعن نهائيا، لا مساء اليوم ولا مساء غد. ربما أنه لم يصدق قصة اليانصيب واعتبرها مجرد حجة بدائية. وذهبت مخاوفها إلى أبعد من كل هذا وهي أن تكون زينة، هي التي لم تتعود على وضع الحجاب على وجهها، قد تعرضت لحادث دهس من قبل سيارة طائشة وأخذوها إلى إحدى

المستشفيات. وحين أرادت أن تضع حدا لذرعها الغرفة ذهابا وإيابا واتخاذ مكانها على الكنبة، سمعت طرقات على الباب. عرفت إنها طرقات زينة، فهرعت إلى الباب تفتحه قبل عليوي. عانقتها بقوة وهي تستبشر من ملامحها الخير وقادتها إلى غرفتها. قالت زينة قبل أن توجه عزيزة إليها سؤالا بأنه سيأتي مع الكمبيالات هذا اليوم عندما يطبق الظلام الدامس على كل شئ. عانقتها عزيزة مرة أخرى وبقوة. ثم حكت لها زينة، على عادتها في عدم إخفاء أي شئ عن ولي نعمتها، كل شيء بالتفصيل، بما فيه نداءات الباعة في السوق وانتظارها له ومضاجعته لها ثم أرادت أن تعيد إليها مبلغ الدينار ونصف الدينار. لكن عزيزة طلبت منها أن تعيد المبلغ إلى جيبها، سائلة إياها إذا ما كانت المضاجعة قد حصلت بالقوة أم برضاها؟ قالت زينة دون تردد:

" تريدين الحقيقة يا باجي، حصلت الرغبة عندي في السوق، وما أن دخلت غرفته إلا وبدأ بالشغل. عرفت منه أن زوجته حامل في الشهر التاسع"

قالت عزيزة ساخرة:

" إن الشيء الوحيد الذي يدبره هذا الأرعن هو المضاجعة. المهم أنت ارتحت، بالعافية. أنت أديت الواجب على أحسن ما يرام يا زينة والآن يمكنك الانصراف وزيارة أهلك لمدة أسبوع"

ثم أخرجت من حقيبتها اليدوية ورقة من فئة خمسة دنانير ودستها في يدها قائلة:

" اشتري بها هدايا للأهل"

انحنت زينة تقبل يدها شاكرة وقائلة:

" باجي، هل أنت غاضبة مني؟"

أجابت بدهشة:

" كلا أبدا، لماذا؟"

قالت بشيء من الحرج:

" بسبب مضاجعة السيد كمال"

قالت عزيزة باعتداد:

" انا لا احب هذه الحشرة كي اغار منك ثم اني قلت لك وما زلت اقول، بالعافية"

وبعد أن ودعتا بعضهما بالعناق، ذهبت زينة إلى غرفتها لترتب حقيبتها. ومرت عزيزة على غرفة ساهرة التي كانت مشغولة بقراءة رواية مصرية غرامية واخبرتها بأنها يمكنها البدء بالتمتع بإجازة اسبوع التي سبق لها أن اعلنت عنها مساء أمس. ودست في يدها دينارين لشراء بعض الهدايا لأهلها. وكانت قد حزمت حقيبتها بانتظار هذا الخبر. قفزت من مكانها فرحة وهي تعانق عزيزة وتقبل يدها. وبعد أن ودعتا بعضهما، تركت عزيزة غرفتها وهي تفكر في إيجاد حل للتخلص لمدة أسبوع من عليوي، إذ أنه ليس له أحد يزوره. وإن بقاءه في الدار سيفسد عليهم خططهم. وهي تعرف أنها إذا فاتحته بموضوع الإجازة، فإنه سيبدأ بالبكاء والعويل، ظاناً أنها تريد التخلص منه فطرده. عليها إذاً أن تذهب إلى شمس الدين الذي ينتظر الخبر الذي تحمله زينة. وكان هو الآخر ينتظر المفاجئة على أحر من الجمر ويضرب أخماسا بأسداس. كان راقدا في فراش عزيزة، حين رآها قادمة باتجاهه فرحة وباشة، قفز في مكانه صائحاً:

" بشري يا حبوبة"

قالت وهي تحتضنه:

" كل شيء تمام، سيأتي هذا اليوم في الظلام الدامس، ولكن لي مشكلة اخرى يجب أن أستشيرك بها وهي إجازة عليوي. ليس له أحد يزوره، قل لي ماذا نفعل به. إنني لا أستطيع أن اتركه للشارع؟"

قال وعلائم الفرح بادية على قسمات وجهه:

" خطوة أولية ناجحة، ناجحة جدا والفضل يعود إليك يا حبوبة. وأما عليوي فيجب أن نرغمه للسكن في البيت الآخر، على أن لا يأتي إلى هنا إلا بأمر منا، يعني إقامة جبرية. هل يمكنك إقناعه بذلك"

" بسيطة، انا سأتولى الأمر معه. غرفتك في كل الأحوال تبقى فارغة"

قال بلهجة آمرة وودية:

" إذاً يجب عليه أن يلتحق بمقره فورا ويبعث إلينا خير الدين وشرف الدين بدون تأخير. فهميه أن سبب بقاؤه هناك هو لحراسة البيت لمدة اسبوع فقط وبعد ذلك سيعود إلى خدمة باجي معززا مكرما"

قالت مقلدة نبرته:

" تؤمر يا مولاي"

تركت عزيزة الغرفة متوجهة إلى مأوى عليوي الضيق الذي يتسع لسرير حديدي واحد ومنضدة صغيرة عليها حقيبة تحتوي على حاجاته ولوازمه. كان في طريقه لمغادرة عتبة الباب، حين قابل عزيزة وجها لوجه. وتلعثم كعادته حين يصادف شيئا لم يتوقعه:

" ببباجي هاي انت؟ إإإإنشاء الله خير"

حين أبلغت عزيزة بواجبه الجديد، تصور أنه نسب إلى هناك لخدمة الشيوخ الثلاثة، ففرح للمهمة المناطة إليه. وانصرف فورا إلى هناك وهو يكرر:

" سأرسل إليك الشيوخ فورا يا باجي"

حين غادر عليوي البيت حاملا صرته، تنفست عزيزة الصعداء وهي تعود إلى غرفتها. وكان شمس الدين جالسا على الكنبة وهو مستغرق في تفكير عميق. قالت وهي تضرب على كتفه:

" بماذا تفكر أيها الفيلسوف، إلى أين وصلت؟"

أجاب بجد أنه لو لم ير النور في ولاية بطيخ، لتمكن من إكمال دراسته واصبح اكثر من فيلسوف، وهو مع ذلك صاحب سبع صنائع، ولكن لم تفده أية واحدة منها، لأن أساس هذا البلد مبني على المحسوبيات والوساطات، لذلك سيجرب حظه هذه المرة معه   و متفائل كل التفاؤل. قالت وهي تداعب وجهه:

" أنا زائدا أنت وعصابتك نساوي قمة النجاح"

رفع يديه مؤيدا:

" هذه معادلة فلسفية تعلمناها في الثانوية يا حبوبة، ولكن اسمحي لي أن أطورها بعض الشيء: عصابتي انا زائدا عصابتك أنت نساوي ولاية بطيخ جديدة تحل محل ولاية بطيخ القديمة. هل فهمت؟ وجواباً على سؤالك، بماذا أفكر، اقول انني كنت افكر في مسألة تشغل بالي منذ أن سكنت في عرين الأسد، وهي مصير ولاية بطيخ، ذلك انني كلما فكرت في هذا الموضوع، تبدو لي النهاية قاتمة، إنها على طريق الانهيار، فما علينا إلا أن نوجه إليها ضربتنا القوية والمفاجئة والقاضية"

قالت بصوت فيه رهبة ووجل:

" أنت تشتغل بالسياسة يا حبيبي. هل تريد أن تهجم بيتنا وتؤدي بنا إلى المشنقة او قطع الرقبة بالسيف؟ إن اي سياسي في هذا البلد لم يمت ميتة طبيعية. هل تريد أن تحل محلهم وترتدي الكفن وتكون مثلهم"

" أنا لا أشتغل بالسياسة يا حبوبة، أنا حرامي، اشتغلت بالسطو على محل المسكين دنخة، فما هو ذنبي إن ارغمتني ولاية بطيخ للتكلم مثل السياسيين الذين هم أيضا حرامية، ولكن من النوع المحسن. إذا كنت خائفة على مصيرك فأنا مستعد لترك هذا البيت إلى الأبد"

قالت كما لو أنها نادمة على كلامها:

" أنا لست خائفة على مصيري ولكنني لا أريد أن أفقدك. إن ثقتي بك لا حدود لها"

أراد شمس الدين أن يغير مجرى النقاش الذي بدأ يخرجهما عن إطار العمل المهم الذي ينبغي عليهم إنجازه بنجاح والذي يبدأ مع بدء الظلام الدامس، قال وهو يقبلها من فمها:

" هذه المناقشات لا جدوى منها الآن يا حبيبة، يجب أن نتخذ الاستعدادات الكاملة لتنفيذ خطتنا المحكمة مساء هذا اليوم. أريد المسدسين وجهاز التصوير والمسجل وحبل وسكينة مطبخ كبيرة وطشت كبير.."

قاطعته عزيزة بفضول وخوف غريزي:

" هل تريد أن تذبحه؟"

أجاب بلهجة مطمئنة:

" كلا يا حبيبة. ألم نتفق على أن لا نقتله؟ ولكنني سأريه الموت كي ينفذ مطالبنا"

كانت عزيزة قد أخرجت المسدسين مع كمية من الخراطيش من مخبئها ووضعت بكرة الفلم في جهاز التصوير. جلبتها كلها دفعة واحدة وسلمتها إياه ثم أعلمته بوجود طشت كبير وحبل وسكينة كبيرة في المطبخ وسألته إذا ما كان يحتاج إلى شيء آخر. قال وهو يحس براحة داخلية تامة إلى حد النشوة:

" حاليا لا أحتاج إلى أي شيء يا حبيبة، ولكنني بعد تفكير عميق منذ يوم أمس، توصلت مع نفسي إلى نتيجة تهمك. إنني حسبت حساب كل شيء فيما يتعلق بسلامتك الشخصية بحيث، حتى إذا فشلت العملية، وهذا الاحتمال هو واحد بالألف، فلن يصيبك أي ضرر، ولذلك عليك الاعتصام بالسكوت خلال العملية كلها. إن ما سنقوم به هو مجرد لعبة، ولكن لعبة

شرسة وخطيرة، لذلك يجب عليك أن لا تخافي حين أغضب عليك وأمد فوهة المسدس إلى صدرك، هل فهمت؟ يجب أن تمثلي دورك معنا بشكل جيد"

قالت بلهجة صادقة وتصميم:

" إن ثقتي عالية بك، ولكنني لا أعرف ما هو دوري بالضبط"

" سأشرح لك كل شيء، ولكننا يجب أن ننتظر إلى أن يأتينا شرف الدين و خير الدين، لأن كل واحد منا يجب أن يستوعب دوره بشكل جيد"

قالت وهي تقوم من مكانها باتجاه المطبخ:

" انا ذاهبة لأجهز لنا الغداء"

قام هو الآخر من مكانه:

" وأنا سأساعدك في الطبخ"

قالت مبتسمة وهي توجه له المدية، كما لو أنها تريد أن تطعنه:

" كلا يا حبيبي، اترك المطبخ فورا، أنا سأتولى الطبخ بنفسي. الأكلات الموجودة هذا اليوم هي: شيخ محشي، مرق فاصولية يابسة و تمن. هل هناك من لا تعجبه هذه الأكلات الطيبة؟ الذي يعارض سأطعنه بهذه السكينة"

قبل أن يتكلم شمس الدين، سمعا ثلاث طرقات منتظمة على الباب:

" هاهما جاءا"

قال شمس الدين وهو يهرع إلى الباب. حين فتحه وجدهما هاشين باشين، يبدوان بمنتهى الراحة والاستجمام، سألهما عما إذا كان النوم هنا أطيب أم في عرين الأسد؟ أشار خير الدين بإصبعه إلى شرف الدين، قائلا:

" هذا من فضل هذا"

علق شمس الدين:

" صحيح ورب الكعبة"

وبعد أن رحبت بهما عزيزة، قالت أنها ستنشغل بالطبخ وأما هم، فعليهم ان ينشغلوا بخطتهم. تناول شمس الدين المدية من يدها برفق ووضعها على مصطبة المطبخ قائلا:

" يا حبيبة، انت بصفتك رئيسة العصابة، يجب أن تشتركي معنا على الأقل لمدة خمس دقائق، كي تعرفي ما هي القصة. وأما التفاصيل الأخرى فهي من واجبنا"

قالت بدلال وهي تتقدمهم إلى غرفة الضيوف:

" ولكنني اخشى ان افسد عليكم خطتكم"

" كلا، انت تغنين خطتنا"

أجابها شمس الدين. وحين اتخذوا أماكنهم على الكنبات، بادر قائلا، وهو يوجه كلامه إلى عزيزة:

" القصة كالآتي يا حبيبة: نحن ثلاثة لصوص سمعنا بأنك ربحت الجائزة الأولى في اليانصيب، لذلك سطونا على بيتك نريد المبلغ الذي يقدر بخمسة آلاف دينار. عند سطونا على دارك، صادف وجود ضيفك مدير الشرطة كمال بك عندك. من المستحسن أن نفاجئه عاريا. ولما كانت لنا حسابات قديمة معه، صورناه بهذه الوضعية المخزية. اختلينا به وحققنا معه، وحين فتشناه، عثرنا عنده على كمية من الكمبيالات، فصادرناها، كما صادرنا مسدسه الذي تركه جنب ملابسه. ولما كنا من أحد أقارب القتيل المغدور، الذي اغتيل في هذه الدار على يده ، كما سمعنا، لذا خيرناه بين أن نقتله أو يتعاون معنا مدى الحياة مقابل البقاء على قيد الحياة.وهو يعرف بأنه إذا خاننا فسنبيده هو وعائلته. والآن إذا كان لديك سؤال أو ملاحظة، فتفضلي"

قالت بارتياح بالغ:

" منذ سنوات وأنا أحلم بهذه الدقيقة. يمكنك أن تصورني معه عارية ايضا، لأنني اقسمت على أن انتقم منه ذات يوم. هذا كل ما أردت قوله. سيروا على بركة الله. والآن هل يمكنني أن أذهب إلى المطبخ"

قال شمس الدين منتصرا:

" اذهبي على بركة الله"

(٨)

حين تركت زينة الغرفة، قام مدير الشرطة جناب السيد كمال من مقعده الوثير وراء مكتبه الكبير وتوجه نحو الكنبة التي ضاجعها عليها وهو يبحث عن أثر ما، ممررا راحتيه على سطحها الأملس. ولما تأكد من عدم وجود اي أثر أو لطخه، رجّع الفضل إلى خبرتها الجيدة في هذا المجال وندم على سماحه لها بالذهاب بهذه السرعة. حتى العملية انتهت بسرعة. كان يمكنه ان يضاجعها مرة أخرى ويتمتع بها مدة أطول، إذ انه يحس الآن برغبة جارفة أكبر. ولكن لا بأس، فانه سيجمع قواه لأمسية هذا اليوم مع عزيزة. وحين خطرت عزيزة بباله، أحس بشيء ما في قلبه، هو اشبه بوخز ضمير أو ندم أو أسف لشيء ما فات دون أن يعود. وكان يعتقد أنه سوف ينسى عزيزة إلى الأبد حين يفترقان، ولكن عبثا. حتى زواجه الذي وضع عليه آمالا كبار لم يسعفه لنسيانها. عزيزة دخلت إلى عالمه في وقت مبكر جدا. كانت هي في الصف الخامس الابتدائي وهو في الصف الثالث المتوسط. هو ابن موظف يتنقل كل ثلاث سنوات من بلدة إلى أخرى وهي البنت الوحيدة لأبوين كهلين تعتمد العائلة على معاش الوالد التقاعدي. كانوا ككل

الجيران يـزوران بعـضهما باسـتمرار ويتبـادلان صـحون الطعـام . وكانـت العائلتـان تتمنيـان أن تختلط دماؤهمـا عـن طريـق الخلفين الصالحين على طريق شريعة الله.

وتـذكر أن العلاقـة الغراميـة بينهمـا بـدأت عنـدما كلفتـه والـدة عزيـزة بتدريسها ساعات إضافية في مادة اللغة الانكليزية. كانا يركنان إلى غرفتها ولا يحسان بمرور الوقت. وظلا يعيشان تحت خيمة الحب العذري لأكثر من عام دون أن يتحدثا فيه أو يلمسا بعضهما بعضاً. وكان لا يصدر منهمـا سوى التنهدات. وتمكنت عزيـزة أن تجتـاز الامتحـان بنجـاح. وكانت هذه المناسبة حجة كي يبادر كمال بتقبيلها. وكانت هي تنتظر ذلك منه، وكان أن تجاوبت معه، فغرقا في عناق عميق، كاد أن يجتاز حدود الحب العذري، بيد أنهما ظلا يعرفان حدود السماح لهما ويلتزمان بها.

وعندما أنهى كمال الدراسة الثانوية، التحق بكلية الشرطة وأما هي فأكملت الدراسة المتوسطة. وكان عليها أن تعتصم بالبيت وتترك الدراسة لعدم وجود صف أعلى في مدرستها الخاصة بالبنات في بلدتها الريفية الصغيرة التي تسودها العلاقات العشائرية. ومنعتها أمها منعا باتا من الدوام في ثانوية البنين. وكان في تلك الفترة قد وقع حدثان للعائلتين الصديقتين، الأمر الذي أدى إلى افتراقهما إلى الأبد، وهما وفاة والد عزيزة ونقل والد كمال إلى بلدة بعيدة. وهذا يعني أن كمال وعزيزة لن يلتقيان مرة أخرى، أو حتى إذا تسنى لهما اللقاء مرة في الشهر، فإن ذلك لن يدوم إلى الأبد. وكانت عزيـزة تعتقد أن الزواج سيحل المشكلة، بيد أن كمال اعتبر ذلك ضربا من الخيال، بسبب كونه طالبا لا مورد له. فضلا عن أن والدة عزيـزة، التي سمعت بذلك بشكل غير مباشر، قالت أنها لن توافق على زواج بنتها من رجل لا يسكن وراء حائط بيتها مباشرة. ولما كان هذا الكلام يشم منه رائحة الموافقة على الزواج من كل من هب ودب من سكنة ما وراء جدار بيتها، اقترح كمال على

عزيـزة أن تـترك أمها العنيـدة وتـسافر إلى العاصـمة" حيـث سـيدبر لها غرفـة للسكن، ويمكنها فيما بعد، إن أرادت، أن تزور أمها بين حين وآخر. وما عليها سوى أن تخبره باليوم الذي تـسافر فيـه ثـم تتخـذ القطـار النـازل إلى العاصـمة وتنزل في محطـة بـاب الشيخ، حيـث ستجده أمامها. واتفقا بـصورة أوليـة أن تـسافر في أحـد أيـام الجمعـة، علـى أن تخـبره بـذلك في رسالة ترسـلها إليـه قبـل أسـبوع مـن سـفرها. واعتقـدت عزيـزة في قـرارة نفـسها أنهمـا سيـسكنان مـع بعـضهما ومـن ثـم سـيتزوجان علـى بركـة الله ورسـوله. وممـا شـجعها علـى الالتحـاق بكمـال، هـو الزيـارة المنتظمـة لـراع مراهـق قبـيح لهـم، عرفـت مـن حركاته وتصرفاته إنـه يعتـبر نفـسه الخطيـب المنتظـر. ولمـا سـألت أمهـا مـن عسى أن يكون هذا الراعـي، أجابـت بفخـر إنـه حفيـد ابـن خالـة أمهـا، وبعـد أن راحـت تكيـل لـه المديح، تمنـت أن يكـون نـسيبها. وقـع عليهـا هـذا التـصريح كالـصاعقة. وكـان أن هـددتها عزيـزة بأنهـا إذا اشـارت إلى هـذا الموضـوع مـرة اخرى، فإنها ستحرق نفسها أو تهرب من البيت إلى جهة مجهولة. اعتـبرت الأم تهديدها مجرد هراء غير قابل للتحقيق وراحت تستعمل معها الشدة والـضغط حتى أنها ضربتها ذات يوم ضربا مبرحا وسحبتها مـن شعرها وهـي تـشتمها على غير عادتها بكلمات نابية مثل: قحبة، عـاهرة، أدبسز.. وممـا لزم الوضـع اكثر وأدى إلى توتر العلاقة بين الأم والبنت، هو أن الراعي جاء ذات يـوم وهـو يقـود نعجـة لا تتجـاوز الـشهر الـسادس مـن عمرهـا. قالـت لـه بلهجـة سـاخرة وجافة وهي تفتح له الباب:

" هل هذه النعجة مهر الزواج يا نعجة، الا تتركنا وحالنا. ماذا تريد منا؟"

وكان أن أجاب ببلاهة أنه جلبها كي يذبحها بين قدميها ومن أجل عيونهـا الجميلة. وما منها إلا وأجابته بصفعة قوية علـى وجهـه، أدمعـت عينيـه. وراح يبكي مثل طفل صغير أخذوا منه دميتـه بـالقوة. وفي تلـك اللحظـة ظهـرت الأم

وهي معقودة اللسان. لم تقل لها اي شئ، بل تجاهلتها وراحت تعانق الراعي الذي كان يمسح دموعه وهي تقول مواسية إياه:

" لا تدير بال ابني حسون، هاي خطيبتك تحملها. إنها تبيع خبالات"

كانت عزيزة قد انتزعت المدية من يد حسون، الذي اراد ان يذبح بها النعجة. ووقفت في مكانها ممسكة بالمدية في حالة التأهب للدفاع عن النفس وطعن كل من يقترب منها. عرفت امها ذلك وعرفت انها لا مانع لديها من ان تطعنها هي الأخرى، لذلك تجنبتها واتجهت نحو حسون. واما النعجة التي نجت من الموت فراحت تركض في ارجاء الباحة الواسعة طليقة حرة سعيدة. يبدو ان الصفعة التي تلقاها الراعي من فتاة، قد هزت كرامته حتى العظم، ولذلك لم ينصع لرجاء خالتها المزعومة التي طلبت منه ان يتخذ مكانه في الغرفة، بل ترك النعجة في الحوش، متوجها صوب الباب ليغادر هذا البيت الذي تضرب فيه النساء الرجال بلا شفقة إلى الأبد.

وفي تلك الليلة بالذات، انسحبت إلى غرفتها وكتبت رسالة إلى كمال تخبره فيها انها قررت ان تترك والدتها إلى الأبد، وانها ستسافر إليه في يوم الجمعة القادم ولذلك عليه ان ينتظرها في المحطة التي اتفقا عليها. واخرجت من بين اوراق المرحوم والدها مظروفا وطابعا بريديا. وانتظرت إلى ان نامت امها. ومع بدئها بالشخير، تسللت تاركة البيت باتجاه مركز الشرطة الذي تقابله دائرة البريد. وبعد ان طبعت قبلة على المظروف، رمته في الصندوق الأصفر المثبت على جدار بناية البريد. وحين عادت إلى البيت، احست بنفسها خفيفة مثل ريشة في مهب الريح وإن ثقلا هائلا قد ازيل عن كاهلها.

جمعت احتياجاتها الضرورية في صرة صغيرة، اخفت بينها سلسلة ذهبية بخمس ليرات عثمانية، سبق ان اهداها لها المرحوم والدها لمناسبة نجاحها في الصف السادس الابتدائي بتفوق ووضعت مدخراتها من النقود في محفظة صغيرة اشترتها من السوق، اخفتها كلها في زوايا غرفتها. وحين حل

يوم الجمعة، استيقظت مبكرة وتوجهت مع الظلام الدامس إلى محطة القطار دون أن تشعر بها أمها ودون أن يراها احد من ابناء طرفها. حين تحرك القطار تنفست الصعداء. وقبل أن يصل المرحلة القادمة اشرقت الشمس وبدأت تملأ الكون بأشعتها الذهبية الدافئة. وبدت لها الآفاق اللانهائية والمرتفعات الممتدة على مدى البصر، جميلة وغريبة تتمتع بها لأول مرة في حياتها. واجمل ما فيها أنها تركض بالاتجاه المعاكس وتبدو كما لو أنها تتسابق مع حركة القطار.

عندما ظهر مفتش التذاكر في عربتها، اخرجت محفظة نقودها الصغيرة من جيبها استعدادا لدفع الثمن. حين جاء دورها سألها المفتش عن وجهتها. قالت أنها ستنزل في محطة باب الشيخ. سألها باستغراب:

" تسافرين إلى العاصمة وحدك؟"

اجابت بتلعثم:

" كلا، شقيقي ينتظرني في محطة باب الشيخ"

بعد أن قطع لها بطاقة بمبلغ مائة وخمسين فلسا واصل المفتش سيره قائلا:

" الله وياك"

وصل القطار إلى محطة باب الشيخ في حوالي الساعة العاشرة صباحا. وقبل أن يتوقف عن الحركة، توجهت عزيزة إلى النافذة تبحث في الزحام بعينيها القلقتين عن وجه كمال دون جدوى. وراح قلبها يدق بسرعة وسيل من الأسئلة يتماوج في راسها:

ترى، هل تسلم الرسالة؟

هل سيأتي لاستقبالها؟

ماذا تفعل إذا لم يأت؟ إلى اين تذهب؟ متى يرجع القطار القادم إلى بلدتها؟ يجب عليها أن تعثر على مفتش التذاكر وتسأله عن موعد تحرك القطار العائد إلى بلدتها. ولكن أين هو المفتش. لقد ضاع هو الآخر في الزحام.

هل عرقله حادث؟

كان المسافرون يتدافعون لترك العربة بسرعة ويبدو عليهم كما لو أنهم يخشون من أن يتحرك القطار قبل أن يترجلوا. سألت رجلا قرويا يتأبط ديكا متعبا وصرة صغيرة وهو يحاول أن يشق الزحام:

" عمي، هل هذه محطة باب الشيخ؟"

" أي نعم بنتي، هاي محطة باب الشيخ"

فكرت لو تبقى جالسة في القطار على أمل أن تعود إلى حيث جاءت، بيد أن دافعا خفيا حفزها على أن تترك العربة وتترجل منتظرة على الرصيف المقابل. وجرفتها الموجة البشرية إلى خارج العربة دون إرادتها. ورأت أنه من المستحسن أن تقف في مكانها إلى أن يتلاشى الزحام ثم بعد ذلك تواجه مصيرها وحدها وتقرر ما تشاء. على أنها ظلت تبحث بعينيها القلقتين عن مفتش التذاكر الذي لا شك أنه اختفى في غياهب القطار الهائل الذي لا بداية له ولا نهاية. وسرعان ما أطلق القطار صفيرا عاليا طويلا ثم تحرك ببطء وهو ينفث البخار مثل حيوان خرافي هائل، واصلاً مسيرته إلى حيث لا تدري. كان الرصيف لا يزال مزدحما بالناس، رغم اختفاء القطار، وهم يتحركون ذهابا وإيابا، دون أن تدري من اين يأتون وإلى أين يذهبون. لاحظت شاب يافع بشعر أسود طويل، يرتدي قميصا أبيض وبنطلونا أزرق، لا يبدو عليه أنه من المسافرين، حركاتها القلقة ونظراتها الساهمة التي تلتفت يمنة ويسرة، وشك في أمرها. واقترب منها بحذر، متأملا وجهها الجميل الطري، رغم آثار السفر البادية عليها. وراحت هي الأخرى تدقق النظر بفضول في وجهه المريح. قال الشاب بغنج انها إذا ترغب يمكن أن تذهب معه، وهو

يسكن غير بعيد من هنا وأنه سيدفع لها دينارا واحدا ويعاملها بحب لم تذقه في حياتها. عرفت ماذا يريد منها هذا الشاب الأرعن. وفكرت في حسون الراعي الذي انتزعت منه المدية التي أراد أن يذبح بها النعجة. قالت بصوت صارم ووجه متجهم وهي تمد يدها إلى حذائها:

" تولي، لو انزع حذائي؟"

في هذه اللحظة ظهر ثلاثة شبان يرتدون الملابس العسكرية البيضاء الخاصة بطلبة كلية الشرطة، كان أحدهم كمال، ما أن تعرفت عليه عزيزة إلا وعانقته بقوة وهي لا تصدق عينيها. وما لبث الشاب أن أطلق ساقيه للريح. وبعد أن تمت عملية التعارف التي أكد فيها كمال أنها خطيبته وهما من خيرة أصدقائه، بل بمثابة أخوين له، مشوا قليلا إلى خارج مجال محطة القطار، حيث بانتظارهم السيارة العائدة لصديق كمال الشاب الأسمر الوسيم صباح، الذي يبدو عليه الثراء والأبهة. وانطلقت السيارة بهم إلى حيث لا تدري. كانت قد سمعت باسم العاصمة فقط بين جدران صف الدراسة ولم تر في حياتها سوى بلدتها الصغيرة. هذه هي العاصمة إذاً، أكواخ طينية واطئة، مياه آسنة هنا وهناك، جواميس هزيلة، شوارع عريضة، أنواع السيارات، عمارات وبيوت كبيرة، أسواق جميلة. إنها فعلا ألف ليلة وليلة كما قالت عنها مدرّسة التاريخ. بعد نزهة استطلاعية لمعالم المدينة التي استغرقت أكثر من ساعة، دعاهم صباح إلى تناول طعام الغداء في أحد المطاعم الجميلة الواقعة في شارع السعدون وذلك بمناسبة وصول خطيبة صديقه الحميم كمال بسلامة. كان جو المطعم باردا، داكنا وهادئا، بخلاف القيظ الشديد والضوضاء في الخارج. همست عزيزة في أذن كمال تسأله إذا ما كان هو الآخر يحس بالفرق في درجة الحرارة. وشرح لها بأن السبب هو جهاز يشتغل على الكهرباء، يبث الهواء البارد، وبدون هذا الجهاز لا يتمكن الإنسان من تحمل درجات الحرارة العالية في العاصمة. ورغم أن صباح، كان يتظاهر بعدم

الالتفات إلى عزيزة، إلا أنه في الحقيقة، كان يسترق إليها بنظرات خاطفة تطبع ملامحها في ذهنه بكل وضوح. وراح يحسد في داخله كمال على هذه الزهرة الصحراوية التي لا يستحق قطفها، هو الغبي الذي ولدته أمه أبلها منذ البداية. ولعل مبادرته إلى دعوتهم جاءت من هذا الباب. هذا الباب الذي قد يؤدي للتسلل إلى قلبها البدوي النقي. وما أن اتخذوا أماكنهم في أحد الأركان، إلا وحضر النادل وأشعل الشمعة الموضوعة على المائدة. وقبل أن ينظر في قائمة المأكولات، طلب لنفسه زجاجة بيرة مثلجة ثم التفت إلى الآخرين سائلا إذا ما كانوا يشاركونه في شرب البيرة أيضا. اتفق الآخران على البيرة، وأما عزيزة فطلبوا لها عصير برتقال. كانت هذه لا تزال تحت تأثير صدمة الهرب التي فجرها الراعي حسون. وبدا لها كل شيء كما لو أنه مجرد حلم تتحرك صوره أمام عينيها تارة بسرعة وأخرى ببطء. وأوحى لها جو الوليمة الراقي بأنها ستعيش مع كمال في بيت جميل يضاهي هذا الجو إن لم يكن أحسن منه. وكانت الملابس العسكرية البيضاء الجميلة توحي لها أنهم ضباط، وإلا كيف يدعوهم هذا الشاب الوسيم صباح إلى مثل هذه الوليمة التي لا بد أنها ستكلف كثيرا. عندما تركهم صباح لقضاء حاجة، همست في أذن كمال قائلة إن هذه الدعوة تبدو باهظة جدا، لماذا كل هذه الكلفة؟ أجابها بصوت مسموع سمعه صاحبه سرمد:

" دعيه يصرف يا بنت، إنه ابن شيخ من شيوخ الجنوب"

علق سرمد بصوت هادئ:

" إذا منعناه من الصرف علينا، لصرف على غيرنا. لا تخافي عليه، نصف كوت العمارة ملكهم"

عندما عاد صباح إلى مكانه، نقل له سرمد نص الحديث الذي دار حوله. شكرهم في داخله لهذا الإطراء الذي لم يتوقعه. وشعر أنه بذلك قد أصاب

الهدف، ولكنه أراد أن يكون متواضعا، فقال قبل أن يطلب ثلاث زجاجات اخرى:

" لا تصدقيهم يا أختي عزيزة، إنهم يكذبون"

احست عزيزة بشيء من الكبرياء دون أن تعرف السبب، بيد أنها اقتنعت بأنها قد تحولت، بشكل من الأشكال، إلى المحور الرئيس للحديث. فتحت البيرة شهيتهم للأكل. اتفقوا جميعا على تناول قوزي على تمن.

في حوالي الساعة الثانية والنصف غادروا المطعم، على أن يتم إيصال كل من عزيزة وكمال إلى مسكن الأولى. كان قد اجر لها غرفة في زقاق ضيق لا يمكن قطعه إلا مشيا على الأقدام. وعندما أبدى صباح سخريته من أوضاع المنطقة الشعبية الوسخة، خجل كمال وأحس بالإحراج ولكي يبرر موقفه قال أنه لم يحصل على السكن المطلوب بعد، وإن هذا الحل هو مؤقت. تدخل سرمد قائلا، وهو يوجه كلامه إلى كمال:

" لماذا هذا التبختر على الفراغ؟ قل أن وضعي المادي لا يساعدني وكفى. وهذا ليس عيبا. العيب هو في الغرور"

أدى حرج كمال إلى الانفعال. قال بغضب:

" انت لا تتدخل فيما لا يعنيك"

قال صباح بمرح وهو يحاول تهدئتهم:

" صلوا على النبي يا شباب. لسنا في معرض الحروب الأهلية"

ثم التفت إلى عزيزة قائلا:

" شوفي يا أختي، هذا كله من فعل البيرة. ترى كيف سيكون وضعنا لو شربنا العرق؟ والآن هيا لنوصل الجماعة إلى البيت قبل أن نتحول إلى بؤرة لتجمع أولاد المحلة"

وعندما أراد كمال أن يصرفهما كي يختلي بها في الغرفة، تعمدا أن يفسدا عليه خطته، ثم أن صباح أراد أن يعرف أين يقع البيت بالضبط، وقال:

" إننا لن نترككما، إلا بعد أن نشرب الشاي عندكما"

كانت عزيزة تراقب كل واحد منهم بانتباه شديد وذكاء فطري، يمكنها من تشخيص الأمور بشكل جيد. وضعت كل واحد منهم في ميزانها الداخلي وراحت تقيسه مرة بموازين امرأة وأخرى بموازين ريفية ساذجة تمتلك طبيعة الحيلة الثعلبية. ولولا فضل البيرة التي اظهرت حقيقتهم بشفافية، لما تمكنت أن تتعرف عليهم بهذا الشكل. والشخص الوحيد الذي ظل غامضا أمامها هو سرمد الذي استرعى احترامها بشكل خاص. وادركت فورا أنها بإمكانها أن تلعب بكمال وصباح كما تشاء، بيد أن سرمد من طينة أخرى لا يمكن تحريكه بسهولة. وأبلغتها حاستها النسوية السادسة أن كمال إنما استدرجها إلى العاصمة كي يتمتع بها فحسب. وأنه لا يمكن أن يكون زوجا أبدا، ذلك لأنه يحب نفسه أكثر من أي شيء آخر في الدنيا. وهذا الأسمر الجميل والمدلل الثري ابن الشيخ لا يمكن له أن يتزوج بمحض إرادته ولا شك أنه مخطوب من ابنة عمه منذ الصغر. وأما بالنسبة لها هي، فإنها رأت أن القدر قد دفع بها إلى أن تهدم كل الجسور التي تربطها بأمها وأنها الآن قد دخلت مستنقعا اسمه العاصمة، وما عليها سوى أن تتعلم السباحة الجيدة في مياهه الآسنة.

هذا هو البيت، لا شك أنه من بقايا الزمن العثماني المنقرض، تسكنه خمس عوائل بأطفال قليلين، عائلتان في الطابق العلوي وثلاث عوائل في الطابق الأرضي، قال عنه صباح إنه بيت جميل ورومانتيكي. الغرف كلها تشكل دائرة تحيط بالباحة التي يمكن أن يقال عنها إنها واسعة. وتلك هي الغرفة التي ستسكنها عزيزة. وحدها أم مع.. كمال؟ لا تدري، ولكنها تدري ماذا ستفعل إذا تركها وحدها. كانت الغرفة تحتوي على سرير ومنضدة وكرسيين وطباخ كهربائي بسيط مع دولاب للملابس ورفوف للأواني.

عندما جلبت عزيزة الصينية المحتوية على قوري الشاي والأقداح، قال كمال:

" اليوم نفتتح بيت خطيبتي عزيزة على بركة الله ورسوله"

ارادت أن تصحح كلامه وتقول بيتي وبيت كمال، بيد أن إباءها حال دون ذلك. ورغم أنها انقبضت من كلامه، إلا أنها تمكنت من الحيلولة دون أن يظهر ذلك الانطباع على وجهها. ومما زاد في غيظها أنها عرفت من سير كلامهم أنهم يسكنون في القسم الداخلي، انهم يجب أن يتواجدوا هناك قبل الساعة السابعة مساءاً. إنها إذاً يجب أن تقضي أيامها ولياليها في هذا الجحر كأي ثعلب في غاره.

بدأت مشكلتهم الأولى بعد أن بقيا وحدهما في الغرفة. حاول أن يقبلها، فلم تستجب لطلبه. كانت باردة، لا رغبة لها حتى في أن تمسك يديه. حاول إقناعها بكل الوسائل والوعود والآمال التي كانت لا تجد طريقها إلى قلبها، إذ انها كانت تحس بأن كل كلمة تصدر من فمه إنما هي مجرد كذبة لا يمكن تصديقها. أراد أن يفهم منها سر هذا الانقلاب المفاجئ وكان جوابها أن مثل هذا الانقلاب حصل عنده فحسب. وإنها حين تتذكر الأيام الماضية، تلاحظ مدى الفرق الكبير في سلوكه وتصوراته ولذلك ترجوه أن يتركها هذا اليوم هي وشأنها لأنها متعبة جدا وخائرة القوى تريد أن ترتاح ويمكنه الآن أن يذهب إلى قسمه الداخلي، لأنها تريد أن تكون وحدها وتنام وأنها غير مستعدة أن تمارس معه أي نوع من الغزل، لذلك عليه أن يؤجل كل تلك الأشياء إلى يوم آخر وأن أمامهم زمناً كافياً لممارسة الحب براحة تامة. رجاها بخنوع أن تنزع ملابسها كي يتمتع بمنظر جسدها عاريا أو تريه على الأقل فخذيها وما بينهما، متعهدا أنه سيكتفي بالنظر فقط دون أن يلمسها. ولما أصرت على موقفها بعناد غريب، سألها بخنوع إذا ما كانت تكرهه أم تحبه؟ اجابت باحتقار أنها لو كانت تكرهه لما هربت تاركة أمها وحدها. سألها إذا ما كانت

نادمة على فعلتها، أجابت أنها أقدمت على عمل لا يمكن تغييره. إن قدرها قد عصف بها إلى أن تحط في العاصمة وإنها ستبقى هنا دون أن تندم، لأنها هي التي قررت أن تأتي إلى هنا وليس أي إنسان آخر.

أحس أن رغبته في مضاجعتها لا تقاوم. وأنه لا يمكنه أن يتركها دون أن يحقق هدفه من تحويلها من عذراء إلى امرأة ناضجة تعرف أهمية العلاقة مع رجلها. ورأى أنه كرجل يجب عليه أن يفرض عليها إرادته بالقوة. وأن هذه اللحظة هي الحاسمة. شاءت أم أبت، ليلة الدخلة لا يمكن تأجيلها. وإن أي تأجيل سيكون انتصارا لها هي وهزيمة له وحده. إنها تريد أن تعامله كأداة طيعة وكأي خرقه لتنظيف الصحون. وعليها أن تعرف جيدا مع من تجادل وتمانع. وأحست به وهو يتحول إلى حيوان مفترس، قائلا:

" أنت زوجتي المقبلة وأنا زوجك المقبل، غدا سنذهب إلى المحكمة لعقد القران"

قالت بوهن وصوت محطم فيه إصرار:

" ولكن..."

وقبل أن تكمل كلامها، انقض عليها على حين غرة مثل صقر ظهر من الفراغ، نازعا ملابسها وساحبا تنورتها بقوة، واضعاً كفيه الكبيرتين على يديها الناعمتين ضاغطا عليهما بكل جسمه. كانت قد دفنت في السرير تحت ثقله الذي لا يقاوم. احست بشيء مؤلم ينزلق إلى داخلها، تصاحبه رائحة الكحول المقززة الصادرة من فمه الذي كان يتنفس بصعوبة. وخاب ظنها في هذه اللحظة التي حلمت بها لسنوات عدة.

قالت له بألم، وهي لا تزال ممدة في الفراش مثل جثة هامدة، دون أن تنظر في وجهه، وبلغة طالبة أثبتت ذكاءها في المدرسة:

" إنك اغتصبتني بالقوة وملكت جسدي، وأما قلبي ففقدته إلى الأبد"

رقد إلى جانبها مثل ثور محطم، أُلقي به من عل في هاوية لا قرار لها. وتساءل في نفسه: ترى، هل أثبت لها رجولته فعلا؟ لا بد أنها قد اقتنعت برجولته، لذلك قالت إنك ملكت جسدي. ولكن ما فائدة أن يمتلك الإنسان القلب دون الجسد. هذا الكلام هراء، لا يوجد سوى في الأفلام المصرية والهندية. الرجل هو الرجل. قال له أحد أقاربه من أعماق الريف ذات يوم أنه في يوم الدخلة، داس على رجل عروسه بقوة، وحين سحبت رجلها، أراها نجوم الظهيرة. وبعد ذلك رفعت ساقيها راضية مرضية. التقاليد هي التقاليد، جاءت من الأجداد وهي التي تحكم. ولتذهب هي إلى الجحيم بفلسفتها وقلبها.

طلبت منه أن يريها الحمام كي تزيل من جسدها آثار الدم. عندما تركا الغرفة لمرافقتها إلى الحمام في الطابق الأرضي، وقعت عيونهما على امرأة جميلة تلبس ثوبا قصيرا، تقف أمام باب الغرفة الملاصقة لغرفتهما. تقدمت منهما قائلة بأدب:

" أخي أنت ارجع إلى الغرفة، سأرافقها أنا إلى الحمام. أنا جارتكم"

ولما كانت عزيزة تمشي بصعوبة، لذا مدت يدها تمسك يد المرأة، متكئة عليها. هبطا السلم ببطء وحين أصبحتا في الحمام، قالت المرأة بصوت خافت أنها سمعت كل الكلام الذي دار في غرفتها، ذلك أن الجدار عبارة عن خشب خفيف مضغوط. قالت عزيزة وهي تنفس عن نفسها:

" اغتصبني النذل"

قالت المرأة وهي تظن أنه خطيبها فعلا:

" ثم ماذا، إنه خطيبك. ستذهبان غدا إلى المحكمة وتعقدان القران وينتهي كل شيء"

أجابت عزيزة بصوت متعب:

" الأمر ليس بهذه السهولة يا عزيزتي. إنه كذاب"

علقت المرأة:

" ككل الرجال حين يريدون الحصول على مأربهم من النساء، نحن الغبيات"

ساعدتها الجارة الجديدة في نزع ملابسها وعلمتها كيفية استعمال الدُش وخلط الماء الحار بالبارد وعاونتها أيضا في الغسل ثم نصحتها أن تمتنع عن مضاجعته لمدة أسبوع كي يلتئم الجرح. وحين تركتا الحمام قالت عزيزة انها بحاجة إليها، لأنها ستعيش وحدها في الغرفة. واكدت لها جارتها بأنها هي الأخرى تعيش وحدها وانها بحاجة إليها أيضا. خلال صعودهـ ا السلم ببطء، قالت:

" انا اسمي عزيزة، ما اسمك انت؟"

أجابت الجارة بارتياح:

" انا اختك، اسمي زينة"

* * *

كانت تلك بداية الصداقة بينهما. صداقة من نوع جديد تلعب فيها الحاجة الداخلية والنفسية دورا حاسما. وجدتا انهما تلتقيان في امور كثيرة. وان حياتيهما متشابهتان. وأول موضوع اشتركتا فيه برأي موحد، لا تختلفان فيه، هو الموقف من الرجل، هذا العنصر الغريب الذي لا يمكن الاعتماد عليه. وعندما غادرها كمال، مثقلا بحالة نفسية غريبة يكتنفها الإحباط والخجل، أو هكذا كان يمثل أمامها، جاءت إليها زينة سائلة إياها ما إذا كانت تريد أن تبقى وحدها أم تسمح لها بمجالستها، ذلك انها هي الأخرى وحيدة في غرفتها. استقبلتها عزيزة بصدر رحب وشكرتها لاقتراحها الذي جاء في مكانه، قائلة انها تحس بوحشة غريبة جعلتها أن تفكر بالعودة

إلى أمها الوحيدة. حين اتخذت زينة مكانها على الكرسي جنبها، بادرت عزيزة قائلة بحرقة وألم أنها لو كانت تعرف بأنها ستبقى منفردة دون أن يسكن هو معها، لما هربت وتركت بلدتها وأمها. ولكن هذا هو قدرها ومن حسن حظها أن الله أرسل لها هذه الجارة الطيبة التي هي بمثابة أخت لها. وبعد أن روت عزيزة قصة علاقتها بكمال منذ اليوم الأول، إلى أن خاب ظنها فيه وإلى الأبد، فتحت زينة هي الأخرى قلبها لها راوية قصة زواجها الذي خذلها منذ وصولهما إلى العاصمة. ادعى خطيبها الذي أقنع أهلها الفقراء، بالزواج منها، بأنه يملك العقارات والأملاك الواسعة في العاصمة. وهكذا تم عقد القران في البلدة القريبة من العاصمة. وتبين أنه لا يملك حتى شبرا من الأرض. ولما كان زوجها المفروض عليها لا يملك شيئا من متاع الدنيا، فقد أجبرها على ممارسة الدعارة كي يتمكن من شراء قنينة العرق الذي كان لا يستطيع العيش بدونه. ولما كان وضعهم المادي الصعب لا يساعدهم على شراء العرق المصنوع رسميا، لذا بدأ بشراء العرق المغشوش المصنوع في البيوت بصورة سرية وكان أن فقد بصره ثم مات بعد ذلك بأسابيع. وكان سبب الوفاة، كما قال الطبيب، هو الإصابة بتسمم الدم جراء تناول العرق المغشوش بكميات كبيرة. قالت عزيزة بلهجة من كبرت عشر سنوات إضافية:

" لقد انزلقنا في هذا المستنقع الذي لا قرار له ولا ضفة، وما علينا سوى أن نتعلم فيه السباحة كي نصل إلى شاطئ الأمان"

علقت زينة بلهجة من اختبر الحياة:

" قوتنا في تكاتفنا وعلينا أن لا نصبح ألعوبة بيد الرجال"

" إنني فتحت عيني عليك يا زينة في غربتي هذه. إن شاء الله لن تخذليني. أقسم بالله العظيم سوف أقاسمك السراء والضراء"

كانت زينة تكبر عزيزة التي لم تتجاوز الثامنة عشر من عمرها بثلاث سنوات. ورغم خبرتها الواسعة في شئون الحياة والتعامل مع الرجال، فإنها منحت صديقتها الجديدة منذ الوهلة الأولى كل الثقة والاحترام. ووجدت نفسها، من حيث تريد أو لا تريد، خاضعة لمشيئتها ومنقادة لها، دون أن تصطنع عزيزة شيئا من هذا القبيل. ويبدو أنها هكذا نشأت في البيت: خدمة الآخرين والخضوع لأوامرهم بروحية متواضعة وقناعة، الأمر الذي كان يؤدي دوما إلى أن تعلن أمها أمام الآخرين بأن ابنتها ستكون زوجة مطيعة ومثالية للزوج الذي يحظى بها. ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعل عزيزة أن تنشد لها أكثر فأكثر، هي التي لا تطيق الانصياع بسهولة، ولكنها وجدت فيها كنزا لا يفنى في إسداء النصائح والإرشادات الثمينة بلهجة غير آمرة. أول نصيحة سمعتها منها هي أن لا تنامي معه قبل انقضاء أسبوع. وقررت أن تلتزم بهذا الكلام الذي التزمت به فعلا، إذ أن كمال جاءها بعد ثلاثة أيام هائجا يريد مضاجعتها فورا. وكانت قد تسلحت بقضيب حديدي عثرت عليه في غرفة يطلق عليها اسم "غرفة المتروكات"، أخفته تحت فراشها. كما وتسلحت أيضاً بنصائح زينة التي حفظتها عن ظهر قلب: كوني هادئة معه، معسولة اللسان، قدمي له الوعود ثم أجليها إلى أن تحصلين منه على ما تحتاجين. إذا كان لا يريد الزواج منك، فيجب أن يساعدك ماديا، لأنك لست عاهرة كي تبيعي جسدك وتعيشين من ورائه. وإذا كان في وضع لا يمكنه مساعدتك ماديا، فعليه أن لا يزورك مرة أخرى، إذ ذاك سنحل مشكلتنا بالشكل الذي نريده نحن.

أحست بنفسها ممثلة تتقن أداء دورها بشكل ناجح. حين أراد أن ينزع ملابسه، طلبت منه بهدوء أن يجلس قربها لأنها تريد أن تتكلم معه في بعض شئونهما. سألته في بادئ الأمر إذا ما كان لا يزال يحبها؟ ولما أقسم لها بمقدساته أنه يحبها أكثر من أي وقت مضى، سألته إذا ما كان يقبل أن

تجوع حبيبته لمدة ثلاثة أيام؟ وبعد أن قدم لها مختلف الأعذار، قالت أنه يجب أن يحدد موقفه نهائيا إذا ما كان يريد منها الزواج أم لا؟ وأنها لا تريد أن تبقى محظية إلى الأبد. ثم أنها بحاجة إلى مساعدة شهرية ثابتة، وإلا فأنها ستضطر إلى العودة إلى أمها. يبدو أن السيد كمال، عند سماعه هذه المطالب، خفت رغبته الجنسية الهائجة. وأدرك أنه يقف أمام مسئولية خلقها هو بنفسه وعليه أن يعالجها بنفسه أيضاً. قال وهو لا يفكر في بناء عش زوجية، سواء معها أم مع غيرها:

" تعرفين يا حبيبتي وضعي، انا كطالب لا اتمكن من الزواج، لذلك يجب ان نؤجل هذا الموضوع إلى إشعار آخر. وأما المساعدة الشهرية فهي من حقك. سأدفع لك شهريا عشرة دنانير، ولكنك يجب أن توقعي على ورقة يسمونها كمبيالة، كي أتمكن بواسطتها الحصول على المبلغ من الوالدة. إنها مجرد عملية شكلية لا علاقة لها بالدين"

وحين أراد التقرب منها، أخرجت له نهديها النافرين، سامحة له بالتمتع بهما ليس اكثر، معللة ذلك بكون الجرح لم يندمل بعد. وأنها لا تريد أن تتعرض إلى نزيف دموي. كان الوقت عصرا حين ودعها. نصحها أن لا تذهب إلى السوق وحدها، خشية من أن تضيع في زحام المدينة، بل أن تخرج دوما مع جارتها زينة. ووعدها أنه سيزورها قريبا، دون أن يحدد اليوم المعين.

في يوم الجمعة التالي زارها صباح وحده في الساعة الحادية عشرة صباحا وهو يرتدي الملابس المدنية العادية. كان هادئا على غير عادته التي وجدته في المرة الأولى. سألته عن كمال وإذا ما كان سيزورها هذا اليوم؟ أجاب أنه سافر يوم الخميس إلى أهله وسيرجع يوم السبت. ثم هز رأسه بسخرية، قائلا:

" اسمحي لي يا عزيزة، وارجو أن لا تغضبي، إن قلت لك بأن كمال أكبر حمار. كيف يمكن للإنسان أن يترك مثل هذه الحورية ويسافر إلى أهله؟ أليست هذه جريمة؟"

احمرت وجنتا عزيزة التي بدت أجمل، وقالت كما لو أنها تريد أن تصحح خطأً:

" إنه سافر كي يجلب معه المساعدة الشهرية التي قطعها لي"

سأل صباح بفضول:

" هل يمكنني أن أعرف كم هو المبلغ الذي قطعه لك؟"

قالت بزهو وهي تعرف بأن المبلغ أعلى من راتب شرطي، الذي لا يتجاوز سبعة دنانير:

" عشرة دنانير"

عاد إليه مرحه القديم وعلق ضاحكا:

" وهل يحتاج مثل هذا المبلغ إلى السفر؟"

شكت عزيزة في نيته وخافت منه، رغم أنها مالت إليه بقوة، إذ وجدته أرق وأريح وأجمل من كمال الذي كانت تجده جافا متشنجا. كانا لا يزالان واقفين في الغرفة. سحبت له الكرسي ورجته أن يتخذ مكانه عليه. وحين جلس، استرخصت منه أنها يجب أن تتركه لهنيهة. هز رأسه بالإيجاب، قائلا:

" تفضلي"

كانت زينة جالسة على كرسيها جنب الجدار الخشبي الخفيف تسترق السمع إلى ما يدور من الكلام هناك. دخلت عزيزة متلصصة بخطوات وئيدة، واضعة ظهر يمناها على فمها وهي تقول هامسة:

" هذا صديق كمال، زيارته لي مشبوهة لا أعرف كيف أتصرف معه"

قالت زينة بصوت خافت:

" رأيته، إنه ابن الشيخ الذي حدثتني عنه، إنه معجب بك جدا. يبدو أنه واقع في الحب. كوني لطيفة معه وداريه على أحسن شكل. إنه صيد ثمين. لا تنسي إننا نسبح في مستنقع كبير ونحتاج مثل هذه النماذج"

قالت عزيزة بلهجة توسل:

"اريدك ان تأتين إلي بعد خمس دقائق وتشاركينا المجلس"

" حسن، سأكون عندك بعد خمس دقائق بالضبط"

حين عادت إليه، قال بود:

" طالت الدقيقة إلى دهر بغيابك"

اجابت بسخرية مصطنعة، ولكنها في الحقيقة ارتاحت لكلامه:

" نفاق. كلكم منافقون يا رجال"

قال بحركة تمثيلية بارعة:

" صحيح، كلامك صحيح ورب الكعبة، ولكنني اقول ما احس به، وبدلا من أن أسافر إلى أهلي جئت إليك، كي أتمتع بجمالك فقط لا اكثر"

قالت بحيرة:

" ولكن كيف أواجه كمال؟ وماذا أقول له إذا عرف بوجودك عندي؟"

أجاب كالمنتصر:

" هذا السؤال يجب أن يوجهه كمال إلى نفسه. هل تعرفين إلى أين ذهب الأفندي قبل يومين؟ انا لا اكذب، يمكنني أن أقول هذا الكلام أمامه مباشرة"

اقتربت منه بدلال واضعة يدها على ركبته قائلة بصوت دافئ:

" قل لي الحقيقة يا صباح، الكلام سيبقى بيننا فقط"

احس بخدر لذيذ ينساب من يدها الدافئة إلى أعصابه المتوترة التي سرعان ما تحولت إلى نشوة غريبة تسري في دمائه، قال كالحالم:

" ذهب إلى الماخور في محلة الميدان"

في هذه اللحظة دخلت زينة وهي تطرق على الباب المفتوح:

" تفضلي يا زينة، هذا صباح صديق كمال. وهذه صديقتي زينة"

وبعد أن انتهت عملية التعارف والمصافحة الودية، واصلت عزيزة كلامها بسذاجة ويدها لا زالت موضوعة على ساق كمال:

" انظري يا عزيزة، صباح يقول أن كمال ذهب قبل يومين إلى الماخور، الا تقولان لي ما هو الماخور؟"

نبهها صباح بصوت خافت أن لا ترفع صوتها، ذلك أن كلمة ماخور تدل على شيء قبيح مثل الزنا، حيث يمارس الرجال الجنس مع العاهرات مقابل النقود. قالت عزيزة بصوت خافت وكأنها وجدت حلا للغز:

" قل كلجية وخلصنا"

وضحكوا بصوت عال. عندما بدءوا بشرب الشاي، اقترح عليهما صباح أن يدعوهما إلى أحد المطاعم الراقية لتناول طعام الغداء. قالت عزيزة أنها لا مانع لديها من حيث المبدأ، ذلك أن المطعم الذي ارتادوه قبل أيام كان جميلا جدا، ولكنها تترك القرار لصديقتها الحميمة زينة. توقعت زينة مثل هذا الكلام منها وراحت تفكر في أيجاد جواب يلائم فلسفتهما، بشأن المستنقع، التي اتفقتا عليها منذ تعارفهما. قالت وهي تخرج الكلمات من فمها باتزان:

" انا لا مانع لدي أيضا، ولكننا بصراحة لسنا مستعدتين للظهور أمام الناس ومعك بالذات بهذه الملابس المزرية. نحن بحاجة إلى ملابس جديدة تليق بمقامك ومقام المطعم الراقي. أليس كذلك يا عزيزة؟"

علقت عزيزة بارتياح لهذا الجواب الذي لم تتوقعه:

" أحسنت يا زينة"

مد كمال يده إلى جيب سترته الداخلية وأخرج رزمة من الدنانير، قائلا:

" هذا كلام صحيح، لكل مقام مقال"

قدم لكل منهما مبلغ خمسين دينارا، متسائلا:

" هل يكفي هذا المبلغ لشراء الملابس؟"

وحين شكرتاه وبالغتا في الشكر والإطناب، حتى أن زينة قبلت يده، أعاد بقية الرزمة إلى مكانها بكبرياء وهو يقول:

" من المستحسن أن لا يعرف كمال بعلاقتي معكما، وإلا سيقطع المساعدة الشهرية عنك يا عزيزة. سنؤجل الدعوة إلى وقت آخر ولحين شرائكما الملابس المطلوبة. وأما الآن فسأذهب كي أجلب لنا ثلاث وجبات كباب أم عندكما ما هو أفضل من الكباب؟"

أجابت زينة بدلال:

" طبعا عندنا ما هو أفضل من الكباب بكثير، ولكنه مع الأسف لا يؤكل"

ضحك صباح معجبا بالتعليق، قائلا وهو يترك الغرفة:

" إنه يؤكل أيضا، ولكن بطريقة أخرى يا إبليس"

حين اختلتا ببعضهما، قالت عزيزة لصاحبتها أنها تستغرب من جرأتها التي لا حدود لها، فردتها هذه بأن المستنقع الذي وقعتا فيه لا حدود له أيضا، فإما أن تكوني نعجة أو ذئبا. مرت هنيهة صمت ما لبثت أن خرقتها زينة، قائلة:

" انظري يا عزيزة، يا عزيزتي، إننا في كل الأحوال سنبيع جسدينا والكل يعرف بأننا شابتين جميلتين، ولذلك يجب أن يكون ثمننا غاليا دون تهافت، وإلا سنتحول إلى سلعة رخيصة مبتذلة تؤدي بنا إلى اللجوء إلى محلة الميدان التي لا يمكننا الخروج من وحلها"

قالت عزيزة وهي تبحث في ثنايا المطبخ عن بعض الصحون:

" أنا لا يسعني يا زينة، إلا أن أشكر الله العلي القدير الذي بعثك إلي، وإلا كان الهلاك المحتم بانتظاري"

لاحظت زينة أنها عبثا تحاول البحث عن صحون للكباب المنتظر. سحبتها من يدها، طالبة إليها الكف عن البحث، فهي لن تعثر على ما تريد:

" هيا لنذهب إلى شقتي، إنها اكبر بكثير من غرفتك الصغيرة. سنجهز المائدة هناك وننتظره"

تركتا بابي الغرفتين مفتوحين. غطت زينة المائدة بغطاء من القماش الأبيض نظيف ثم اخرجت ثلاثة صحون خزفية ووعاءاً كبيراً من دولاب بواجهة زجاجية. شغلت الراديو، كانت تنساب منه أغنية "وين رايح وين..." . وراحت زينة التي بدأت تدندن مع الأغنية، تتخذ مكانها على الكرسي جنب عزيزة. قالت عزيزة ساهمة شاردة وبخجل واضح:

" اقول يا زينة، إن هذا الولد المدلل صباح، أعطانا مبلغا كبيرا جدا. كيف يكون موقفنا إذا طالبنا بالمجامعة؟"

اجابت زينة دون تفكير:

" إننا حين استلمنا المبلغ منه، نكون قد وافقنا على الموضوع مقدما. يمكننا أن نقول له لا، ولكننا يجب أن نبرر رفضنا. واعتقد لا يوجد لدينا أي مبرر، سوى عدم التئام الجرح عندك، آنذاك يتأجل الموضوع إلى وقت آخر، كما اجلنا العزيمة"

" انت إذاً لا مانع لديك"

" كلا، أبدا. المبلل ما يخاف المطر"

قالت عزيزة وعلامات الخجل ما زالت بادية على وجهها:

" انا في الحقيقة اشتهيه، وهو كما قلت اكثر جاذبية من كمال الجاف، ولكن الجرح لم يلتئم فعلا. وأنا أخشى من النزيف. هل أصارحه بالموضوع؟"

" لم لا؟ الموضوع يتعلق بصحتك وهو لا شك يفهم هذا الشيء. إنه يختلف عن الثور كمال. لنر كيف يكون الأمر. الولد مؤدب جدا"

بعد حوالي نصف الساعة، ظهر صباح وبيده كيس ورقي كبير يحتوي على كمية كبيرة من شرائح الكباب، الذي ما زال يحتفظ بحرارته وتتصاعد

منه رائحة نفاذة مع كمية من الفلافل والطرشي والمخضرات وثلاث علب بيرة مثلجة. قال بعد أن وضع الأشياء كلها على المائدة وهو يفتح إحدى العلب:

" هذه بيرة، إنها طيبة جدا. جلبت لكل واحد منا علبة كي نشرب نخب صداقتنا، فإذا انتن موافقات، افتحها كلها. وفي حالة عدم الموافقة، سأشربها كلها وحدي، لأنني لا أريد أن أجبركن على الشرب"

وجهت عزيزة أنظارها المتسائلة إلى زينة، تنتظر منها الجواب. فهمت زينة محتوى نظراتها، قالت وهي تمد يدها إلى إحدى العلب:

" نخب الصداقة لا يرفض، وإلا نجلب النحس على انفسنا"

قبل أن يشربوا من العلب مباشرة، اخرجت زينة ثلاثة كؤوس من الدولاب ذي الواجهة الزجاجية، وقرعوا الكؤوس الثلاثة نخب الصداقة الأبدية.

(٩)

كان السيد كمال بك مدير الشرطة لا يزال جالسا على الأريكة التي شهدت أول مجامعة له مع زينة التي يأسف أنه أهملها طيلة الوقت، إذ أنه وجد فارقا كبيرا بينهما وأن النوعية التي مارستها زينة تختلف اختلافا كبيرا مما هو عليه عند عزيزة، وحين قارن ذلك كله مع زوجته، وجد أنها أشبه بجثة هامدة لا دماء فيها ولا حرارة. ولذلك لو كان بإمكانه، لمنع الجلوس عليه من قبل أي شخص كان، ولكن، فكر، أن هذا المكان ليس ملكه، بل ملك الدولة. وقبل أن يسترسل في شروده والتفكير في الأمسية القادمة التي لا بد أنها ستكون جميلة وممتعة جدا، سمع طرقات على الباب، دخل على أثرها الفراش. قال بلهجة محرضة:

" سيدي، هؤلاء المراجعون ناس لا يخجلون فعلا وليس لهم أي شعور باحترام مؤسسات الدولة"

قال كمال بك بلهجة روتينية:

" ألم أقل لك اتصل بضابط أمن الدائرة؟"

" اتصلت به سيدي، يقول أنه لا يتمكن أن يترك مكانه"

قام من مكانه متوجها إلى مكتبه، قائلا بتقاعس:

" يا عم سعيد، لا تخلق لي مشاغبات إضافية، هيا اترك الغرفة وقل لهم أن السكرتير سيأتي في الساعة الواحدة. والذي لا يتمكن من الانتظار، يمكنه أن يأتي غدا صباحا. فهمت؟ هيا البس الباب. ولا أريد أن يزعجني أي مراجع"

قال في نفسه وهو يفكر في سيرة حياة عزيزة التي شقت طريقها مع زينة إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن. وفكر، أنها بفضله هو أصبحت تملك البيوت والحانة وبيت الدعارة. كان من الممكن أن تكون زوجته ويعيشان حياة كريمة وشريفة، ولكنها، كما قالت منذ البداية، أبت أن تمنحه قلبها، واكتفت أن تبيعه جسدها. وبعد سنوات من اغتصابها، حاول أن يقنعها بالزواج، ولكنها أبت بحزم، قائلة أن طائر الحب قد ترك قفصه واختفى في أعماق السماء وأنها لن تتزوج إلا ممن تعشقه بصدق. إذ ذاك تمنح هذا الفارس المنتظر، ليس قلبها فحسب، بل تهبه كل ما تملك. يا ترى من هو هذا الفارس المنتظر، الذي لو عرفه لأراه نجوم الظهيرة ومن ثم أزاح راسه بطلقة واحدة فقط. هل وجدته؟ أم ما زالت تنتظره؟ ألا يمكنني أن أكون أنا الفارس، بعد أن كنت الفارس الأول في حياتها. كم كانت جميلة تلك الأيام والأشهر والسنوات. ألا يمكنه أن يهجر زوجته ويعود إلى عزيزة ويقنعها بالزواج. ولكن، كيف مع سمعتها؟ كيف يمكنه الزواج من عاهرة؟ كلا، إنها ليست عاهرة، بل صاحبة ماخور شبه سري. يمكن أن يكون الزواج سريا. ولكن ما العمل مع زوجته التي لا شك ستفضحه بكل ما فيها من جهد وطاقة. كلا، فكرة الزواج منها غير عملية، وهي تأباها في كل الأحوال. إنها تعلمت أن تكون حرة طليقة كأي طائر يحلق في السماء، وأنها لاشك غير مستعدة للعودة إلى القفص بملء إرادتها. المهم هو التفكير الواقعي البعيد عن الخيال. ينبغي الإقرار بأنها امرأة صعبة للغاية ولكن ما أثار حفيظتها وضخمت تعقيداتها هو هذا الانتقال المفاجئ من البلدة الريفية الصغيرة إلى العاصمة الزاخرة بالحركة والحياة الصاخبة، التي يحسب فيها الإنسان حساب كل

درهم. ومما زاد في صدمتها، مفاتحته إياها باسترجاع المبالغ التي صرفها عليها خلال السنوات الأربع الماضية. إذ ذاك عرفت لماذا كانت توقع على الكمبيالات بانتظام. ومما زاد من حقدها عليه أنه سجل عليها ضمن قوائم حساباته حتى مصاريف بطاقات الدخول إلى السينما والسندويشات التي اشتراها لها الخ من المصاريف التافهة التي لا يقوم بها حتى اليهودي المفلس. كانت خيبتها تجاهه لا توصف. قالت له وهي تكتم غيظها، ضاغطة على أسنانها بقوة:

" سأعيد لك كل فلس صرفته علي. ابحث عن الدفاتر العتيقة بشكل جيد. ولكنك يجب أن تنتظر لحين بيع بعض الأملاك. لقد اثبت فعلا بأنك إنسان تافه"

وحين عرضت عليه فكرة تصفية الديون مقابل استملاك الأموال غير المنقولة باسمه، رفض مدعيا أنه بحاجة إلى النقود. ولم يكتف بهذا فحسب، بل فرض عليها فائدة سنوية لا تقل عن ١٠ بالمائة. والآن تربح الجائزة الأولى في اليانصيب الذي لا يقل عن مبلغ خمسة آلاف دينار. صحيح، من قال إنه حظ العاهرات. تمطر عليها الدنانير من حيث لا تدري. ومسك بالقلم والورقة وهو يجمع ويضرب ويقسم إلى أن توقف عند الرقم ٥٢٠٠ دينار، مبلغ يمكن أن يشتري به عشرة بيوت محترمة، يمكن أن يخصص أحدها لمحظية سرية لا يحس بها أحد. لماذا إذاً التفكير بالزواج من عزيزة المدللة. ولكنه رغم ذلك يعرف أنها صادقة في كلامها، ولذلك قرر أن يكتفي بتسلم مبلغ ٥٠٠٠ دينار لا غير على أن يعتبر الكسر ٢٠٠ دينار، ثمن بيت متواضع، تبرعا لها. وضرب بقبضته بقوة على المكتب معبرا عن فرحته وهو يقول بصوت عال:

" حظي هو الذي كسب الجائزة الأولى ليس غير"

قام من مكانه وهو لا يزال لا يصدق الرقم المثبت على الورقة الصفراء الصغيرة وراح يذرع أرض الغرفة ذهابا وإيابا. نظر في ساعته. إنها الثانية

عشر والنصف. أحس بالوقت يمضي ببطء. حاول أن يراجع بعض الملفات المعروضة عليه. ولكنه لم يجد في نفسه أي رغبة أو دافع لعمل شيء من هذا القبيل. تراءت له المسافة الواقعة بينه وبين حلول الظلام أشبه بدهر لن ينقضي. إنه مستعجل ليس لرؤية عزيزة فحسب، بل أكثر لتسلم المبلغ الضخم الذي لم يحلم به من قبل. لاشك أنها اشتاقت إليه وسيقضي الليلة كاملة معها. سيعوض فيها ما فاتته من الساعات الجميلة. وفجأة ضغط على زر الجرس الموضوع على مكتبه، كأنه تذكر شيئاً. سرعان ما انفتح الباب وظهر الفراش سعيد قائلا بأدب:

" نعم سيدي"

قال وهو لا يزال واقفا في منتصف الغرفة:

" شوف عم سعيد. أنا يوم غد غير موجود في الغرفة. يجب أن أنجز مهمات وزيارات رسمية في خارج الدائرة. سأكون هنا بعد الواحدة ظهرا. فهمت؟"

" نعم سيدي، لكن المراجعين.."

قال بغضب:

" ليذهبوا إلى الجحيم، هيا البس الباب"

وترك الغرفة مثلما دخلها. وراح السيد كمال بك يتمشى في الغرفة مطرق الرأس وهو لا يزال يفكر بما سيعمله في هذه الأمسية التي هبطت عليه من السماء. وقرر، بعد أن يتسلم منها المبلغ، أن يفتح معها صفحة جديدة وأن يجد حلا معقولا لموضوع تمشية أعمال المطعم والماخور، على أن لا يتنازل عن حصته التي سبق أن امتنعت عن دفعها بحجة ركود العمل. والحصة هذه كانت عبارة عن ١٠ بالمائة من الأرباح الصافية التي كانت تحصل عليها عزيزة شهريا. كانت هذه تسميها خاوة ورشوة، بينما يعتبرها كمال اشتراك شهري للتأمين على ممتلكاتها المنقولة وغير المنقولة. ولما لم تتمكن عزيزة من دفع هذا العبء الإضافي بسبب المصاريف الجانبية الكثيرة، لذا راح كمال

يضايقها بمختلف السبل الإدارية المقيتة. وكان يعاونه في ذلك صاحبه مدير الأمن. كما وقرر السيد كمال أن يفكر في إيجاد حل لغلق قضية القتل التي جرت في الماخور، تلك القضية المعقدة التي احتار فيها كل من حاكم التحقيق والمدعي العام. ولعل غلق القضية يكون من صالحه هو، إذ أن المؤشرات الأولية في عملية التحقيق تؤدي إلى تورط موظفين كبار، هو من ضمنهم، في مجمع العملية. وهو لا يزال بانتظار دوره في التحقيقات التي يفترض أن يجريها حاكم التحقيق. على أن تدخل وزير الداخلية، الذي أراد أن يسد منافذ الفضيحة وعدم وصولها إلى الرأي العام، هو الذي أدى إلى توقف التحقيق في قضية، قد تستغلها المعارضة في فضح فساد الإدارة التي لها صلات مشبوهة بالمواخير الليلية. بيد أن المشكلة تكمن في أن إحالة أوراق القضية إلى الحفظ، مرهونة ببقاء الوزير في منصبه الذي لا يبقى أبديا، فما أن يعزل الوزير القديم، إلا ويحل محله الوزير الجديد الذي يبدأ بنبش وتحريك نواقص الوزير السابق لتعزيز مركزه والظهور بمظهر المصلح الذي يريد القضاء على الفساد. إذ ذاك تبدأ الطامة الكبرى، حيث تظهر الفضائح التي تسترت عليها الحكومة السابقة التي هي في الحقيقة ليست بأسوأ من الجديدة. ورأى أن مجمل القضية أشبه بالعصا الملطخة بالغائط من طرفيها، ولذلك رأى أنه من المستحسن ترك الأمور على حالها مثلما هي دون تحريكها، إذ أن أقل حركة تؤدي إلى إثارة الروائح التي تزكم الأنوف وفضحه هو كقاتل.

في تمام الساعة الواحدة، سمع طرقات منتظمة على الباب الذي يربط غرفته بغرفة السكرتير الذي أثبت وجوده في الموعد المحدد. وحين أمره بالدخول، مد السكرتير رأسه من وراء الباب، مؤكدا أنه تسلم كافة معاملات المراجعين وأن كل شئ اتخذ مجراه بشكل تام. وحين أراد أن يختفي وراء

الـذي نـادى عليـه ان يـدخل. حـين وطـأت قـدماه أرض الغرفـة، ادى تحيـة عسكرية، قائلا:

" نعم سيدي"

نظر إلى ساعته قائلا بارتياح:

" مواعيـدك مـضبوطة جـدا. شـوف مـلازم علـوان، غـدا سـأكون هنـا في الواحدة، ذلك انني قبل الظهر يجب أن أقوم بزيـارات رسمية خـارج الـدائرة. والآن يجب ان انصرف لإنجاز بعض الأعمال الرسميـة في الـوزارة. لقـد دخـت من كثرة الأشغال"

قبل أن يترك الغرفة، ادى السكرتير تحية عسكرية، قائلا:

" الله يساعدك سيدي"

قـاد سيارته الشخصية بنفسه إلى البيـت واستغنى عن حمايتـه الـتي لا وظيفـة لهـا سـوى مراقبـة حركاتـه وسـكناته. اسـتغربت زوجتـه مـن مجيئـه المبكر، إذ أنه يرجع عادة في الرابعة عصرا. آنذاك يكون طعـام الغـداء جـاهزا. واما اليوم، فقد أختل البرنامج، كما قالت زوجتـه. مـع ذلـك سـألته إذا مـا كـان يريـد أن يتنـاول طعـام الغـداء الجـاهز. قـال وهـو ينـزع ملابـسه العـسكرية ويلقيها جانبا ويرتدي دشداشته البيضاء:

" يا حرمة، يجب أن انام الآن، لأن امـامي ليلـة طويلـة مـن التحقيقـات ربمـا تمتد إلى الصباح الباكر"

أرادت زوجته أن تعرف منه متى يـستيقظ مـن النـوم، متـى يتنـاول طعـام الغداء ومتى يغـادر البيت لأنهـا هـي الأخـرى تريـد زيـارة أهلـها، فأجابهـا انـه سيتناول طعامه في الخامسة وسيترك البيت في الظلام الـدامس بـدون سـيارته الشخصية وبالملابس المدنية، لأن هناك إجراءات خاصـة مثـل إلقـاء القـبض على بعض الهاربين من وجه العدالة وعليه أن يشرف على التحقيقـات بنفـسه.

إن كل شيء يجب أن يجري في الظلام. قالت زوجته وهي تتركه مضطجعا في غرفة النوم:

" الله يساعدك يا كمال، حتى في الليل ما تخلص من الشغل"

ما أن اتخذت مكانها في الهول، إلا وبدأ شخيره يلاحقها. سدت الباب وشغلت جهاز الراديو. على أن ذلك لم يقطع الشخير، ولكنه خفف من وطأته. كانت زوجته في الحقيقة لا تزور أهلها أو بالأحرى أمها، كما تقول هي، بل تتظاهر بذلك فحسب، وتكتفي بزيارة جارتها التي يعمل زوجها في المقاولات، و يعرف زوجها ذلك جيدا، ولكن لماذا هذا الادعاء؟ العلم عند الله. وهو لم يحاول قط البحث عن الأسباب التي يعزوها بكل بساطة إلى نوع من الخرف أو النقص الذي يلازم عقل النساء، الذي يراه ناقصا في كل الأحوال.

(١٠)

حين أطبق الظلام الدامس على الكون وبدأ عواء بنات آوى القادم من البساتين البعيدة ينشر الرعب في قلوب الأطفال الذين لم يأووا إلى فراشهم بعد، بدأت السعالي هي الأخرى تملأ درابين وأزقة المدينة. وكان على السيد كمال بك مجيد عزة مدير الشرطة العام، الذي استبدل ملابسه العسكرية بملابس مدنية متواضعة، أن يخترق على غير عادته كل هذا الحشد من العفاريت والساحرات والطناطل التي تحرس الطريق المؤدي إلى بيت عزيزة، إذ أن هذه الكائنات الغريبة، قد بدأت بالظهور في هذا الزقاق بعد حادث القتل الذي جرى في بيت عزيزة، الذي يسمونه زورا وبهتانا بانساخور الذي لا وجود له في عالم العفاريت. كان السيد كمال قد سبق له أن سمع قصة العفاريت والطناطل التي دوخت أفراد شرطته الذين ركبوا رؤوسهم ومن ثم استقلوا سياراتهم الانكليزية القديمة، بحثا عن هذه المخلوقات الغريبة في واضحة النهار. ولم يطلعوا على الحقيقة، إلا بعد أن قطع عليهم الطريق رجل معمم بلحية قصيرة بيضاء، قائلا بلهجة بغدادية أصيلة:

" أولادي، حتى الانكريز يعرفون بأن هذه المخلوقات تظهر في الظلام الدامس، ولذلك تبقى الأزقة خالية من الناس. وإذا صادف أن تواجد إنس هناك، فيجب أن يلقى عليه القبض، لأنه لاشك يحمل نية سيئة في قلبه الأسود"

حين ترك السيد كمال بيته، مشى قليلا فترة لم تتجاوز عشر دقائق إلى موقف سيارات التاكسي. وهناك انتظر حوالي خمس دقائق إلى أن جاءت سيارة تاكسي قديمة يسوقها سائق كهل يبدو عليه التعب والإعياء. وحين تأكد من خلال الضوء الساقط على وجه السائق بأنه غريب لا يعرفه، اقترب منه سائلا إياه ما إذا كان بإمكانه أخذه إلى باب المعظم، ولكن من جهة محلة الميدان. قال السائق بلهجة مرحة ودون أن يلتفت إليه:

" ابني، تضحك عليّ؟ انا أخوك. قل أنا رايح للكلجية وبس"

وضع يديه على نافذة السيارة المفتوحة وانحنى على السائق قائلا:

" استغفر الله يا عمي، هل يبدو علي انني من رواد مثل هذه الأماكن؟ أنا رايح إلى جامع الحيدرخانة"

قال السائق متضايقا وفاقداً صبره:

" اركب وخلصني، أنا جالس على باب الله. سآخذك أينما تريد"

حين بلغوا محلة الميدان، نبه كمال السائق بمواصلة السير إلى شارع غازي فالتوقف في مدخل الزقاق الفرعي الثالث. دس في يده ربع الدينار ثم ترجل هناك، نبهه السائق قائلا:

" دير بالك ابني. هذه محلة السعالي والطناطل وليس محلة الحيدرخانة"

قال وهو يتحسس مسدسه ويتلاشى في ظلام الزقاق:

" لا تخاف عليّ يا عمي، أنا أخوك. سألتف من هناك إلى الحيدرخانة"

عليه الآن أن يقطع مسافة غير قصيرة قبل أن يصل إلى غايته. لا يدري لماذا فكر في الموظفين الصغار الذين يأتون في زحام النهار وفي الصباح الباكر

بباصات المصلحة أو تاكسي النفرات أو مشيا أو بالعربات التي يجرها حصانان. وحين قال " الله يساعدهم"، سمع صوتا جهوريا قادما من أعماق الظلام الدامس، ينفخ في وجهه:

" وأنا أساعدك أنت"

ولم يجد نفسه، إلا وهو على ظهر سعلوة هائلة يتدلى ثدياها الكبيران مثل كيسين يكادان يمسان الأرض. أحس بشعرها الطويل مثل جدائل حبال رفيعة، ينسدل على رأسه ووجهه وينفذ منه رائحة مقززة. وراح يضربها بقدميه محاولا التخلص منها وهو يصيح باحثا عن مسدسه:

" اتركيني، اتركيني وإلا سأقتلك"

لوت يده بقوة، فسقط المسدس على الأرض. أراد أن يقول شيئا، ولكن لسانه لم يسعفه. ولم يحس بنفسه إلا وقد تحول إلى كرة مصنوعة من كومة من الخرق المضغوطة، تتقاذفها أرجل السعالي والطناطل والعفاريت العملاقة. لا يدري كم استغرقت لعبة السعالي معه، ولكن الذي يعرفه حق المعرفة، أنه حين أصبح في دائرة الضوء الصادر من المصباح المعلق على باب بيت عزيزة، انتهى كل شيء. وكأن شيئا لم يكن.

كان منهكا وخائفا ومتعبا جدا. بحث عن مسدسه، ولكنه لم يجده: أخذوه إذاً، هؤلاء الشياطين، لعنة الله عليهم. المهم أنهم لم يقتلوه. وحين وقعت يده على محفظة نقوده، تنفس الصعداء، ذلك أنها لا تحتوي على نقوده، فحسب، بل على هوية البنك والهوية الشخصية وبعض الأوراق المهمة. حين وقعت عيناه على الباب الذي افتقده منذ فترة غير قصيرة، أحس بخفقان غريب في قلبه. وراح يفكر ليس فقط في عزيزة، بل زينة أيضاً، هذه الحورية المغمورة التي سقته اليوم رحيق حبها لأول مرة. مد يده برفق إلى المطرقة البرونزية المثبتة على الباب والتي تمثل قبضة مضمومة، وراح يطرق بخفة عدة طرقات رتيبة وغير قوية، إذ نبهته ذات مرة بأن هذه إنما

مطرقة باب وليست مطرقة حداد، وذلك جواباً على طرقاته القوية الهمجية. انفتح الباب. كانت صورة عليوي هي التي تطغي على راسه قبل انفتاح الباب، بيد أن الوجه الذي أطل عليه من ورائه هذه المرة، هو لإنسان آخر يعرفه أيضاً. إنه شرف الدين. ورحب به هذا بود. ولما تأكد الأخير، بعد أن فتشه جيدا، من أنه لا يحمل مسدسا، سمح له بالدخول إلى غرفة الضيوف. ولما تساءل كمال منذ متى لا يسمح بحمل السلاح، أجاب أنه ليس سوى خادم مطيع ينفذ أوامر باجي، فعليه أن يسألها هي. أراد السيد كمال أن يستجوب شرف الدين كما كان يفعله فيما مضى مع عليوي، بيد أن شرف الدين رفض أن يجيب عن أسئلته، مؤكدا على أنه غير مخول بالتكلم مع الضيوف. وإذا كانت لديه أسئلة معينة فيجب عليه أن يطرحها على باجي نفسها فهي سيدة البيت. علق السيد كمال كما لو أنه يكلم نفسه:

" يبدو أن الأوضاع قد تغيرت هنا. الله يستر"

قال شرف الدين وهو يغادر الغرفة على عجل:

" إن شاء الله"

اتخذ السيد كمال مكانه على أريكة مواجهة للباب كعادته وراح يجيل أنظاره في أنحاء الغرفة التي بدت له مهجورة، خالية وموحشة وهو يعرف أنه ينبغي عليه الانتظار لما لا يقل عن ربع الساعة لحين ظهورها. إنها عادة قديمة لا تتمكن عزيزة من التخلص منها. لتفعل ما تشاء. المهم إنها ستظهر إن عاجلا أم آجلا. وربما تلتجئ إلى هذه الطريقة كي تزيد من شوق الضيف أو تثير فضوله. من يدري، ربما تريد بذلك أن تهينه بصورة غير مباشرة. ولكنها، كما يراها هو، على أي حال امرأة، ناقصة العقل كأي امرأة أخرى. المهم في الأمر أنها ستظهر كالعادة وتلبي طلباته ثم تتصرف معه كأميرة أو ملكة غير متوجة. لم لا؟ أليست هي جميلة وذكية. لتفعل ما تشاء ولتتدلل بما فيه الكفاية. إذ ذاك سيزداد شوقه إليها أكثر فأكثر. مد يده إلى جيب

سترته الداخلية للمرة الثالثة وتأكد من وجود رزمة الكمبيالات. وخطط في ذهنه انه قبل البدء بالحديث عن الديون والكمبيالات، سيأخذها إلى غرفة النوم، على أن يدس في يد شرف الدين مبلغا يذهب به إلى دنخة لشراء المشروبات المطلوبة. وإلى أن يعود هذا إلى البيت، تكون مهمة غرفة النوم قد انتهت. احس بالدقائق تمر ببطء وتتمدد بشكل غريب. نظر في ساعته. مرت نصف الساعة دون ان يأتي احد. فكر في أن يقوم من مكانه ويترك الغرفة للبحث عنها أو عنه، ولكن لم يسبق له أن قام من قبل بمثل هذا التصرف الذي ربما سيؤدي إلى ردة فعل منها، هي التي تتصرف بمزاج غير متوقع. وهي إذا اصرت مرة على كلمة "لا" فمن المستحيل أن تتحول إلى "نعم". إنها عنيدة مثل الثور. ظهر شرف الدين فجأة وقد ارتسمت على وجهه علامات الود وبيده صحن فضي يحتوي على كأس ويسكي بكرات ثلجية. قال وهو يضع امامه الكأس:

" باجي تعتذر للتأخير، إنها في الحمام، ستأتيك فورا"

مد يده إلى الكأس بارتياح قائلا:

" ولا يهمها، لا داعي للعجلة"

بعد انتظار غير قليل، أفرغ خلاله الويسكي في جوفه، ظهرت عزيزة مثل قمر يبزغ في الظلام الدامس بثوب ابيض قصير واردان قصيرة ايضاً. اراد ان يعانقها، ولكنها ردته بيديها معتذرة أنها مصابة بوعكة صحية سلبت راحتها. وقبل أن يعود إلى مكانه كسيرا، صافحها بقوة مهنئا إياها بمناسبة ربحها الجائزة الأولى ثم اقترح عليها بكل وقاحة أن يذهبا اولا إلى غرفة النوم. طلبت منه بهدوء أن يتخذ مكانه على مقعده وعليه أن لا يستعجل في ما يبغيه، فالليل امامهما طويل أم انه يريد العودة إلى زوجته الحامل بسرعة؟ أجاب بارتياح:

" لتذهب الزوجة إلى الجحيم. أمامنا فعلا ليلة كاملة. أنت تبدين اليوم رائعة جدا يا عزيزة"

تساءلت بابتسامة خبيثة:

" هل أنا أروع من زينة، أم أنها أروع مني؟"

امتقع لون وجهه وتغيرت نظراته التي راحت تنجذب إلى الأرض بعد أن كانتا مشدودتين إلى عينيها، سأل بصوت كسير:

" لماذا هذا السؤال؟ أين هي بالمناسبة"

قالت بلهجة احتقار وقد ارتسمت على وجهها علامات خيبة أمل:

" إنه مجرد سؤال ليس إلا، إنها في إجازة عند أهلها، إذا كنت مشتاقا إليها فزرها في بيت أهلها"

عرفت أنها تمكنت من حصره في زاوية ضيقة وشعرت بالانتصار عليه، هو الذي لا يقر الهزيمة أبداً. واصلت وهي تحدق في وجهه المتعب وعينيه الذابلتين:

" يبدو أنك متعب يا كمال. هل لك أشغال كثيرة؟"

كان ينظر في الأرض. رفع رأسه مصطنعا ابتسامة وهو يحاول عبثا التحديق في عينيها السوداوين الجميلتين:

" الأشغال كثيرة طبعا، ولكنها ليست سبب تعبي. الطناطل والسعالي هي التي أتعبتني في الطريق إليك. إنها حولتني إلى كرة قدم تتقاذفها أقدامها بلا رحمة. ألا تقولين لي بربك من أين تأتي هذه المخلوقات الشرسة ليلا وإلى أين تذهب في النهار؟"

قهقهت عزيزة بصوت عال وقالت بلهجة صادقة:

" أنها ليست شرسة يا حبيبي، إنها تملك قلوب الأطفال، ولكنها لا شك قد وجدتك أنت شريرا، قل لي ماذا فعلت هذا اليوم، سأقول لك لماذا ثاروا عليك"

ظهر شرف الدين وبيده الصينية. وضع كأس ويسكي آخر أمامه ثم انسحب بعد أن اخذ الكأس الفارغ وسألها إذا ما كانت تريد أن تشاركه الشرب. قالت إنها ستشرب معه فيما بعد في غرفة النوم. والآن عليه أن لا يغير الموضوع، بل عليه الإجابة الصحيحة والصريحة على سؤالها. نظر إليها ببلاهة وحرج:

" لم افعل اي شيء. كنت في الدائرة ثم جاءت زينة واخبرتني بالموضوع ورجعت إلى البيت في وقت مبكر كي احافظ على نشاطي وعندما اظلمت الدنيا جئت إليك"

علقت عزيزة بابتسامة المنتصر الساخرة:

" هذا هو كل شيء"

" بالضبط"

" وهل تريدني ان اصدقك؟"

اقتنع في داخله بأن زينة لم تعترف لها بموضوع المضاجعة، ولذلك اصر على النفي القاطع امام شبهتها التي لا يمكنها دعمها بدليل، قال محاولا ضبط أعصابه:

" صدقيني"

قالت عزيزة بصوت صارم، لا يتوقع المرء صدوره من امراة رقيقة مثلها:

" أنظر يا كمال، إنك إذا كذبت عليّ، فلن تتخلص هذه المرة من عفاريتي. إنها ستقطع أوصالك وتمسح بها أرض الزقاق"

كان الويسكي قد منحه قوة داخلية حصنته من أن يخاف من هذه الحكاية الخرافية التي لاشك صنعها خياله في لحظة رعب مفاجئة. وبدلا من أن يعلق على كلامها، حمل الكأس ورفعه في وجهها قائلا:

" نخب صداقتنا الأبدية"

وأفرغه كله دفعة واحدة في جوفه. اقترح عليها أن يرسل شرف الدين لشراء بعض المشروبات على حسابه خشية من أن ينتهي أو لا يكفي ما عندها من خزين. رفضت عزيزة الفكرة بشكل قاطع واكدت انه اليوم ضيف عزيز عندها وهناك ما يكفي من أنواع المشروبات التي تكفي أن تسد حاجة عدة ليالي. وبدءا يتجاذبان أطراف أحاديث مختلفة ويستعيدان بعض الذكريات القديمة. وكان هو يتجنب التطرق إلى شؤون عملها الذي تسبب هو في إيقافه ووضعه أمام جملة تعقيدات تشابكت فيها دوائر ضريبة الدخل والشرطة والضمان الاجتماعي والأمن وحادثة القتل الذي لا يزال معلقا في الفراغ. وكانت هي الأخرى قد سكتت عن إثارة الموضوع الذي يئست من علاجه، لذلك اتخذ الحديث اتجاها آخر ادى إلى الهروب من الواقع المر حتى ولو بصورة مؤقتة. احس بنشوة الشرب تصعد إلى راسه وتنتشر في أعصابه وراحت هذه النشوة تضفي، في نظره، على عزيزة هالة من الجمال الأخاذ يكاد يعيده إلى أيام حبهما العذري الذي بدأت تتراءى له بكل تفاصيلها. آه من هذا الحب اللعين الذي لا يمكنه التخلص من حبائله. وآه من هذه الغيرة القاتلة التي تهيمن على كيانه الذي يتضاءل أمامها. ولكن، هل هذه هي المرة الأولى التي تقتحمه مثل هذه الحالة؟ كم مرة بكى أمامها وقرر العودة إليها. ما فائدة أن يعيد لها الاسطوانة؟ ومن يقول إنها مستعدة للعودة إليه؟ إنه هكذا خلق ومن الصعوبة بمكان تغييره. كلا، الطائر الذي تحرر من القفص، لن يعود إليه بمحض إرادته.

مرت اكثر من ساعة، شرب خلالها السيد كمال ثلاثة كؤوس ويسكي مخفف ببلورات الثلج، دون أن يدخلا في الحديث الرسمي الذي حضر خصيصا من أجله. كانا لا يزالان يتبادلان أطراف أحاديث عامة سبق لهما أن كرراها دوما في الأيام الماضية. وحاول هو عدة مرات أن يقترب منها أو يمسك يديها، بيد أنها كانت تصده عنها بدلال، طالبة منه أن يصبر إلى تالي

الليل. وانتظر أكثر من ساعة بأمل مجيء الكأس الرابع، ولكن دون جدوى. واضطر أن يقول لها بأنه بحاجة إلى كأس آخر. قالت مبتسمة بدلال أن ليلا طويلا ما يزال أمامهما وعليه أن لا يفرط في الشرب ويفكر في صحته، ثم أنها تخاف أن ينام ويبدأ بالشخير دون أن تستفيد هي منه أي شيء كما حصل له ذات مرة. قال مدافعا عن نفسه، وعلامات السكر بادية على ملامحه:

" حصل هذا مرة واحدة فقط لا غير، وأنا مستعد الآن للسهرة معك طول الليل. وهل تعرفين لماذا نمت في تلك الليلة؟ إنه الحب، الحب يا عزيزة. أنت لا تعرفين مثل هذه الأشياء يا حبوبة، أنت ما زلت طفلة"

قالت وهي تنادي على شرف الدين:

" انت بحاجة إلى قهوة يا كمال"

أجاب هازا رأسه بالنفي ورافعا يده إلى أعلى:

" كلا، انا بحاجة إلى ويسكي"

عندما ظهر شرف الدين، وضع يده في جيبه وأخرج منه محفظة نقوده، ومدها إليه مواصلاً:

" شرف، اذهب الآن إلى دنخة واجلب ما فيه الكفاية من المشروبات. باجي تقتر علي اليوم وتفكر في صحتي"

قامت عزيزة من مكانها وهي تطلب من شرف الدين أن يجلب فنجان قهوة، ثم توجهت إلى كمال واخذت يديه بين يديها، قائلة برقة:

" كمال، انت هنا من اجل تصفية معاملة تجارية فيما بيننا. هل يجوز تدقيق الديون وانت في حالة سكر؟ بعد ان تشرب قهوتك نصفي حسابات الكمبيالات، انا استلمها منك وانت تستلم مستحقاتك. وبعد ذلك يحق لنا أن نشرب حتى الثمالة ونسهر طول الليل. تمام، أم لا؟"

وبعد أن قبلته من راسه، عادت إلى مكانها. قال كمال كما لو انه استيقظ من نوم عميق:

" يا حبوبة، حقا أنت بنت آدمي شريف. ثقي بالله العظيم كنت قد نسيت مسألة الكمبيالات نسيانا تاما. وماذا لو نسيناها وأتلفناها كلها. إن مجرد التمتع برؤيتك يساوي كلها"

قالت عزيزة بلهجة جادة:

" ولهذا السبب بالذات منعتك من مواصلة الشرب. الدين هو دين الله. سأدفع لك آخر فلس"

ظهر شرف الدين بنفس الصينية، ولكن بفنجان قهوة وضعه على المنضدة أمام كمال. علق هذا بمرح:

" سبحان الذي يبدل الويسكي بالقهوة"

علقت عزيزة من مكانها:

" وسبحان الذي يبدل الكمبيالات بالدنانير"

كان شرف الدين ما يزال واقفا، وقال هو الآخر:

" وسبحان الذي يبدل عليوي بشرف الدين"

وقهقه الثلاثة بصوت عال. حين أطبق عليهم الصمت، ترك شرف الدين الغرفة. قامت عزيزة من مكانها وهي تطلب من كمال أن يعذرها، لأنها يجب أن تتركه وحده لعدة دقائق لقضاء حاجة على أن يذهبا فيما بعد إلى غرفتها. وبعد أن يتسليا بعض الشيء، تبدا تصفية الحسابات والديون، ثم يأتي دور الشرب واللهو.. "تمام يا كمولي؟"

قال بارتياح تام:

" تمام يا حبوبة، كل ما تخططينه مضبوط ضبط العقال"

يعرف كمال أن الدقائق عند عزيزة تعني على الأقل ساعة من الزمان. إنها عادة مزمنة لا يمكن تغييرها، ولكن لهذه العادة إيجابياتها الخاصة بها، لا سيما إذا كان المرء في حالة انتظار هادف. وراح يلهي نفسه بمنظرها في خياله وهي تعري نفسها أمامه وكيف أنها تتغنج وتتدلل وتمانع ثم تنقض

هي عليه كما لو أنها نمرة متوحشة تطوق بمخالبها نمرا وديعا. ويعيد الكرة مرة ومرة إلى أن يستشف لونها وحركاتها وساقيها ونهديها ويديها الدافئتين وشفتيها، إلى أن يتلاشى فيها ويذوب، متحولا إلى قطرات ماء سرعان ما تتحول إلى غيمه فمزنه وواحة خضراء في مجاهل صحراء لا نهائية.

وفكر بجد أن يحرق الكمبيالات أمامها ويستعمل إزاءها سياسة جديدة ويحتفظ بها لنفسه إلى الأبد، إذ أن الزمن الطويل قد أثبت له أنه لا يحبها فحسب، بل مدمن عليها. ولكن، ما العمل مع حب من جانب واحد؟ إنه يريد أن يمتلكها كأي ورقة كمبيالة، يقدسها. وهي لا تريد أن تتحول إلى قطعة مملوكة. لو أنها وافقت أن تتحول إلى مملوكة، لما أهانت الراعي الساذج صاحب النعجة ولما صفعته على وجهه.

مرت ساعة كاملة على شروده. وها هي الأخرى بزغت من جديد. واحست أن فنجان القهوة قد أعاد صوابه إلى رأسه. هو بانتظار الويسكي وهي بانتظار شيء آخر. عرفت أنه بحاجة إلى الشرب. نظرت في ساعتها الذهبية: إنها الحادية عشر والنصف مساءًا. الوقت يمضي بسرعة صاروخية رهيبة. كلا، إنه بالنسبة إليه يتحرك كالسلحفاة. قالت له وهي واقفة كما لو أنها جاءت كي ترافقه إلى مكان آخر:

" هل نصفي الحسابات هنا؟ أم نذهب إلى غرفتي ونأخذ حريتنا هناك"

إنه يعرف جيدا ماذا تعني بعبارة نأخذ حريتنا هناك. قال متنفسا الصعداء:

" نأخذ حريتنا هناك"

أشارت بيدها أن يتحرك:

" إذاً هيا"

كان من عادته فيما مضى عند دخوله غرفة النوم أن يبدأ بنزع ملابسه ويتوجه إلى الحمام لأخذ دُش، يزيل عنه العرق ويستعيد نشاطه، بيد أنه

هذه المرة سألها إذا ما هي مستعدة لنزع ملابسها. طلبت منه ان يأخذ حريته ويتصرف ككل مرة وأنها سوف تأتيه لتدليك ظهره بالليفه. نزعت هي الأخرى ملابسها وشاركته الدُش وهما يتقاذفان بالماء. حين بدأت بتدليك ظهره، سمعت طرقات خفيفة على باب غرفتها أعقبها صوت شرف الدين يسألها إذا ما يجلب لهما ويسكي أم بيرة باردة أم اي شيء آخر. سألته بدورها عما يعجبه من المشروبات. وكان أن طلبت منه أن يجلب لهما بعد خمس دقائق ويسكي مثلجاً مع ماء بارد. قادته إلى فراشها وهما عاريان. بعد مرور خمس دقائق بالضبط، سمعت طرقات قوية متتالية على الباب الخارجي اشبه بالدوي ثم انقطعت فجأة. أرتبك كمال وقام من مكانه بصورة لا إرادية محاولا التوجه إلى ملابسه لارتدائها. مسكت يديه بقوة مانعة إياه من ترك الفراش وطوقت راسه وهي تطمئنه قائلة:

" لا تخف، لا ياتينا احد في مثل هذا الوقت. إنهم شباب مراهقون، يطرقون الباب ويتوارون عن الأنظار. او ربما يريد أحد الطناطل أن يمزح معنا"

وظلت تعانقه مانعة إياه من ترك الفراش وهو يرتجف. وحين نادت عزيزة على شرف الدين، سمعت أصوات غريبة رافقها صياح عال وصرخات تهدد وصفق الباب الخارجي بقوة. وما لبث أن انفتح باب غرفتها بقوة ودخل مقنعان مسلحان وهما يمسكان بشرف الدين. شد أحدهما يدي شرف الدين من الخلف، بينما وجه الآخر فوهة مسدسه إلى العاريين، صائحا بلهجة عسكرية آمرة:

" لا تتحركوا"

عندما أرادت عزيزة أن تسحب يديها من العناق، صاح المقنع وهو يوجه فوهة المسدس عليها مباشرة، قائلا:

" عودي إلى وضعك الأول وإلا سأطلق عليك النار"

عادت عزيزة إلى وضعها الأول، قائلة بتوسل:

" ارجوك لا تقتلنا. خذ ما تشاء، ولكن اتركنا بسلام"

دون أن ينتبه إلى كلامها، التفت إلى صاحبه طالبا منه أن يجلب جهاز التصوير ثم أمر شرف الدين الذي شدت يديه من الخلف أن ينبطح على الأرض أمامه. عاد المقنع الثاني بسرعة وراح يصور العاريين في الفراش من مختلف الجهات. خلال انشغاله بالتصوير، حذرهم المقنع الأول مرارا بأن أي حركة عشوائية ستؤدي إلى إطلاق النار فالموت المحقق. كان كمال يرتجف وتصطك أسنانه. تساءل برجاء إذا ما كان بإمكانه ارتداء ملابسه. أجابه المقنع الأول بأنه يسمح له ذلك بعد أن يجيب بصراحة على الأسئلة الموجهة إليه. ثم وجه كلامه إلى عزيزة طالبا إليها أن تترك الفراش وترتدي ملابسها. وما أن انتهت من ارتداء ملابسها، إلا وتوجه المقنع الثاني إليها وشد عينيها بعصابة ثم عرج إلى كمال وشد عينيه شدا محكما في حين نزعت عزيزة العصابة من عينيها بنفسها وهي تبتسم. ورمى كل من شمس الدين وخير الدين قناعهما جانبا وفك شرف الدين وثاقه بنفسه أيضا. قال شمس الدين موجها كلامه إلى كمال:

" أنت يا رجل، يا بطل الفراش، إذا كنت مستعدا للإجابة على أسئلتنا، فسنسمح لك بارتداء ملابسك. وأما إذا تحايلت وأردت أن تضحك علينا، فستبقى عاريا إلى الأبد. هل تعرف ماذا يعني عاريا إلى الأبد؟"

أجاب مرعوبا ولا زالت أسنانه تصطك:

" نعم يا سيدي نعم"

" إذاً أنت مستعد للإجابة على أسئلتنا"

" سأجيب على كل سؤال أعرفه"

" أعد إليه ملابسه يا سمسم، ولكن فتش جيوبه وضع المحتويات جانبا"

أفرغ شرف الدين جيوب السترة من المحفظة ورزمة الكمبيالات وحزمة مفاتيح، ثم رمى إليه الملابس. ارتداها مثل العميان ثم راح يفتش في جيوبه وقال كمن يريد أن يصحح شيئا:

" إخوان، كل المحتويات الموجود يمكنكم أخذها، ولكن لي رجاء واحد فقط، وهو إعادة المفاتيح إلي، لأنني صاحب عائلة، أرجوكم، أقبل أياديكم"

قال شمس الدين بصوت صارم:

" المفتاح يعود لك عندما تكون صادقا معنا وإلا..."

قالت عزيزة بصوت منكسر مصطنع:

" يا سادة، من أنتم؟ هل أنتم إنس أم جن؟"

أجاب شمس الدين مصطنعا الجد:

" ستعرفين فيما بعد يا سيدتي"

صاحت عزيزة بحركة تمثيلية ناجحة:

" ولكن ماذا تريدون منا؟ هذا الرجل خطيبي. خذوا ما تريدون واتركونا بسلام"

صاح شمس الدين مهددا ومصددا فوهة المسدس إلى صدرها:

" أسكتي يا امرأة، وإلا أطلق عليك النار"

بعد أن انتهى كمال من ارتداء ملابسه، مسكه خير الدين من يده وقاده إلى أريكة قرب المنضدة. اتخذ شمس الدين هو الآخر مكانه قربه وراح يقول:

" انظر يا هذا، نحن نعرف عنك كل شيء. لا أريد أن أكرر عليك ما قلته لك قبل قليل. ليكن دينك (النجاة في الصدق، والتعاون معنا). عند ذلك يمكننا أن نكون ليس أصدقاء، فحسب، بل شركاء جيدين"

لأول مرة بدأ رأس كمال يشتغل ويفكر، ويبدو أنه تمكن أن يخرج من سطوة الصدمة التي شلته. وراح يفكر ويتساءل: ترى، هل هؤلاء يمثلون عصابة سرقة وسطو؟ أم منظمة سياسية تعود إلى إحدى الجماعات اليسارية

الكثيرة التي تفكر في الاستيلاء على السلطة. إنني في كل الأحوال يجب أن اتعاون معهم، وإلا سيكون مصيري القتل. ولماذا اضحي بحياتي؟ وهل هناك في الحياة ما يستأهل أن يموت الإنسان من أجله؟ ماذا ستفعل زوجتي بعد موتي؟ ربما لن يعثروا على جثتي أبدا. وماذا تفيدني كلمات الإطراء التي تغدقها عليّ دائرتي؟ مات بطلا أثناء تأدية الواجب. وقبل أن يبحثوا عن جثتي المدفونة سرا، تصلهم صوري وأنا عار مع عزيزة. ولا شك أن نسخة منها ستصل زوجتي ايضاً. يجب أن ابلع ريقي وانحني أمامهم منفذا كل ما يريدون مني ومع ذلك لابد لي أن أناور معهم بعض الشيء، فربما أفادت المناورة.

قال خير الدين:

" سيدي، هل أشد يديه من الخلف؟"

أجاب شمس الدين بهدوء متناه:

" هذه المسألة يقررها هو بنفسه، إذا تعهد أنه لا يحاول الهرب، فلا داعي لتوثيق يديه"

مسكه خير الدين من شعر راسه وهزه قائلا:

" ماذا تقول؟ هل ستحاول الهرب؟"

أجاب كمال متوسلا:

" لا والله يا سيدي. إلى أين؟ وكيف؟"

" اتركه إذاً يا سمسم. والآن هات القلم والقرطاس واكتب المحضر"

" نعم، سيدي"

بعد هنيهة بدأ التحقيق:

" الاسم الثلاثي؟"

" كامل مجيد عزة"

أشـار شمـس الـدين برأسـه إلى خـير الـدين، وقبـل أن يتجـاوب هـذا مـع السؤال، بادر شرف الدين وناوله صفعة قوية على الجانب الأيسر من وجِهه، أدمعت عينيه. قال شمس الدين باستخفاف:

" ماذا اتفقنا؟ هل تريد أن أوثق يديك من الخلف وأشبعك ركلات؟"

قال وهو لا يزال يرتجف من الخوف:

" إنه فرق بسيط يا سيدي فيه التباس، لم أقصد منه أي شـيء. في البيـت يسموني كامل، ولكنه في السجلات الرسمية: كمال. أرجو المعذرة"

" إذاً أسمك كمال مجيد عزة"

" نعم سيدي"

" تاريخ الولادة؟"

" ١٩١١"

" مكان الولادة؟"

" الفيصلية"

" المهنة؟"

أجاب بعد تردد وتفكير عميقين:

" تاجر"

ناوله خير الدين ركلة قوية عل كتفه. قـال شمـس الـدين باسـتخفاف وهـو يلامس أنفه ووجنتيه بفوهة المسدس:

" ألم أقل لك لا تضحك علينا؟ أجلب لي يا سمسم الطشت والمدية"

هرع شرف الدين إلى المطبخ وجلب المدية الطويلة والطشت. مسك رأس كمالٍ بيديه بقوة وحصره داخل الطشت، واضعا رجله اليمنى على رقبته التي راح يمرر عليها حد السكين. واصل شمس الدين بصوت حازم:

" سأذبحك مثل الخروف وأرسل رأسك بهذا الطشت إلى زوجتك. هل فهمت؟ ألم نتفق على أن لا تكذب علينا؟ والآن، هل نواصل التحقيق مثل الأوادم، أم تريد أن نسلخ جلدك؟ هل تعتقد إننا نمزح معك؟"

قال كمال وهو في منتهى الانهيار وأسنانه تصطك:

" دخيلك سيدي، عدت الآن إلى رشدي"

" اتركه يا سمسم"

أعاده شرف الدين إلى مكانه. أشر شمس الدين إلى شرف الدين بحركات من يديه أن يجلب جهاز التسجيل ويشغله ثم قال بهدوء:

" انظر يا سيد كمال، هذه آخر فرصة أمامك. ويل لك إذا كذبت عليّ هذه المرة. سأريك أجدادك واحدا بعد آخر وهم يرتدون أكفانهم، هل فهمت. والآن قل لي ما هي مهنتك؟"

أجاب فورا:

" مدير شرطة"

تنفس شمس الدين الصعداء وقال بلهجة ارتياح:

" هذا كلام مضبوط. سيد كمال عثرنا في جيوبك على كمية من الكمبيالات التي لم ننظر في محتوياتها. هل يمكنك أن تقول لنا شيئا عن ماهيتها؟"

هنا تدخلت عزيزة قائلة أنها استدانت مبالغ من السيد كمال وإنها بصدد تصفية ديونها هذا اليوم. نهرها شمس الدين بغضب مصطنع قائلا:

" اسكتي أنت. السؤال غير موجه إليك"

ثم تساءل:

" هل هذا الكلام صحيح يا سيد كمال؟"

" نعم يا سيدي، هذا الكلام صحيح"

" حسن، والآن أوجه السؤال إليك يا سيدة عزيزة. أنت أعلنت إفلاسك، كما علمنا وعلم الجميع، فكيف تسددين ديونك؟"

" ربحت الجائزة الأولى في اليانصيب يا سيدي. قدرها خمسة آلاف دينار. إنه يستحق المبلغ كله"

" هل المبلغ موجود عندك أم في متناول البنك؟"

" إنه موجود عندي يا سيدي. يفترض أن أسلمه إياه هذه الليلة"

قال شمس الدين بلهجة آمرة:

" اجلبي المبلغ فورا. نحن سنتكفل تسليمه إياه. أزح العصابة من عينيها يا سمسم. اسمع يا سيد كمال إن المبلغ والكمبيالات ستبقى عندنا كأمانة، نعيدها إليك حين نتأكد من إخلاصك معنا، وبعكسه ستفقد مالك ورأسك. هل فهمت؟"

" نعم يا سيدي"

" هل أنت موافق على هذا الإجراء؟"

" نعم يا سيدي"

بعد فترة صمت، رافقتها أصوات حركة وفتح الدولاب، قال خير الدين:

" هذا هو المبلغ يا سيدي، هل احسبه؟"

" لا داعي لذلك. ضعه مع الكمبيالات في كيس واحد. نحن نتعامل هنا على الثقة. أليس كذلك يا سيد كمال؟"

قال بعد أن هدأ بعض الشيء:

" إن شاء الله يا سيدي"

" والآن نرجع إلى التحقيق. عنوان الدار؟"

" محلة الملوك سيدي، رقم الدار أربعة وأربعين"

" رقم التلفون؟"

" ٢١ ٣١ ٤١ ٧"

" الحالة الاجتماعية؟"

" متزوج"

" عدد الأولاد؟"

" واحد في الطريق"

قال شمس الدين بلهجة واثقة:

" هذه المعلومات كلها صحيحة يا سيد كمال. وإذا استمريت على هذا المنوال، سنصبح شركاء جيدين وإلى الأبد. ستأتي الآن أسئلة معقدة وخطيرة جدا، ربما لا تضرك معرفتها انت فحسب، بل تضرنا نحن ايضا، لذلك يجب أن نكون صادقين مع بعضنا بعضاً، فهل انت الآن مستعد للإجابة عليها؟"

امتقع وجه كمال وانتابه خوف مفاجئ، أجاب بصوت كسير:

" نعم سيدي، ولكن هل يمكنني أن أطلب قليلا من الويسكي والماء؟"

قال شمس الدين بارتياح:

" طبعا يا سيد كمال، هذا حقك الطبيعي. سنحيل طلبك إلى صاحبة البيت"

تناول الكأس بيد مرتجفة وافرغه في جوفه دفعة واحدة ثم اعقبه برشفة من الماء البارد وهو يقدم شكره لتلبية طلبه. وكان يخدمه شرف الدين بصمت:

" سيد كمال، سبق أن جرى في هذا البيت قبل اكثر من سنة حادث ادى إلى مقتل شاب، لم تعرف هويته حتى الآن ودفن في ظروف غامضة ودون إصدار شهادة وفاة صحيحة، بل جرى الاكتفاء بحجة القضاء والقدر وقبره غير معروف حتى الآن. ماذا تعرف عن هذا الحادث وما هي علاقتك به؟ إنك إذا كنت صريحا معنا في هذا الخصوص، دون إخفاء أي شيء، نعطيك الأمان الكامل وستبقى الحقيقة فيما بيننا كأساس لعملنا المشترك وشراكتنا. وأما إذا حاولت التملص، فسنتبع معك سياسة الطشت والمدية. إنك باعترافك، ستكسب أصدقاء مخلصين، مستعدين للدفاع عنك حتى الموت"

قال كمال وهو في حالة انهيار تام وصدمة تجاه هذه الحقيقة التي جوبه بها، بعد ان كان متأكدا من انها أصبحت في طي النسيان:

" انا مستعد أن أتعاون معكم إلى أقصى حد والبي كل ما تريدون، فقط اعفوني من الإجابة عن هذا السؤال إن أمكن"

قال شمس الدين بصوت يدعو إلى الاطمئنان:

" يبدو يا سيد كمال أنك لا تثق بنا، ولكنني اعطيك كلام شرف بأن الحقيقة ستبقى فيما بيننا. إننا بصدد بناء جسر للثقة. فكر في عملنا المشترك. بالمناسبة نقلنا صاحبة البيت وخادمها إلى غرفة أخرى، فهما لن يسمعا منا كلمة واحدة"

" انا اثق بكلامك وسوف اقول لك الحقيقة، ولكن هل يمكنني أن اعرف ماذا ستفعلون بي فيما بعد؟"

اجاب شمس الدين بارتياح:

" سنطرح عليك عدة أسئلة أخرى واقتراحات بسيطة للعمل المقبل، فإذا عرفنا من خلال اجوبتك انك لا تخوننا فيما بعد ومستعد للتعاون معنا نؤدي، نحن وإياك، القسم بعدم خيانة بعضنا بعضاً، ثم نترككم وشأنكم. عندها يمكنكم مواصلة سهرتكم"

قال كمال باستغراب ودهشة:

" ا هكذا تتركوني وشاني؟"

" لم لا؟"

" حتى إذا اعترفت بجرمي كقاتل؟"

" عند ذلك ستكون ثقتنا بك مطلقة"

" هل يمكنني أن أطلب كأسا آخر لهذا الكلام الجميل؟"

" هات يا سمسم بالمشروب والمزة"

بعد فترة استراحة قصيرة، جلب له خلالها شرف الدين ما أراده. أحس كمال بحاجته الماسة إلى الاعتراف بالحقيقة التي كانت تعذبه منذ اكثر من سنة. أراد أن يبدأ بالحديث، بيد ان شمس الدين طلب منه أن ينتظر قليلا لأنه يريد ان يقضي حاجة ضرورية. اخذ المسجل إلى غرفة الضيوف لتبديل البكرة والتأكد إذا ما تم التسجيل بشكل جيد. وعندما تم له ما اراد، عاد إليه واضعا المسجل في مكانه الأول، قائلا له أن بإمكانه البدء بالموضوع:

" نعم، سأبدأ بالموضوع واقول الحقيقة التي تجثم مثل صخرة هائلة على قلبي، وليكن ما يكون. كان ذلك قبل اكثر من عام وكانت الحركة زاخرة إذ ذاك في هذا البيت. كنت ولم ازل احب صاحبة هذا البيت المدعوة عزيزة. والحقيقة انها لم تزل عفيفة لا تشتغل بالدعارة، ولكنها تقود هذا البيت الذي تمارس فيه الدعارة. إنها تقبض الفلوس فقط وأتحدى اي إنسان يدعي انه نام معها. وعرضت عليها الزواج عدة مرات، ولكنها لا تريد أن ترتبط بأي رجل. وربما اخطأت انا بحقها في بداية علاقتنا ولم اتمكن من تصحيح خطأي، ولكننا رغم كل ذلك بقينا أصدقاء. المهم، لنرجع إلى الحادث. القتيل اسمه صباح، أحد أصدقاء الدراسة. تعرف على عزيزة عن طريقي ووقع في غرامها، وارتبط بها بعلاقة سرية من وراء ظهري. وعلمت فيما بعد انه يأتي إلى زيارتها في هذا البيت سرا. كنت في الحقيقة اغار منه، لأنني احسست بأن عزيزة تنجذب إليه اكثر من انجذابها إلي. ولما كنت ما زلت أفكر بالزواج من عزيزة، لذا حذرته من التردد إلى هذا البيت وهددته بالعاقبة الوخيمة. وكان جوابه أن اهانني قائلا بأن قوادا مثلي يجب أن يسكت، وانه يشتري جسدها بالفلوس. وكنت اعرف انه يأتي إلى هنا بصورة سرية تامة وبهوية مزورة. وكنت انا الآخر آتي إلى هنا بصورة سرية وهوية مزورة. ورحت أتابعه، دون أن يحس بي. ذات يوم التقينا صدفة في الممر وجها لوجه. سألته ماذا يفعل هنا؟ قال لي بالحرف الواحد وبكبرياء، انه نام مع عزيزة ثم ادار وجهه

باحتقار مواصلا سيره. أصابتني إهانته مثل لدغة ثعبان سام. كان المكان خاليا، سحبت مسدسي كاتم الصوت وأطلقت رصاصة واحدة على قفاه، بحيث تهشم وجهه تماما. وتواريت عن الأنظار دون أن يراني أحد. وخشية من أن يراني أحد، تسللت إلى هذه الغرفة. كانت عزيزة متمددة على فراشها تعاني من وعكة صحية. سألتني مرعوبة: ما بك؟ لقد طار الدم من وجهك؟ اعترفت لها بأنني قتلت صباح. قالت لي غاضبة انك حرقت بيتي. وأن أباه إذا عرف بالموضوع، فإنه سيهدم البيت على رأسها. وقالت لي إنه سوف لا يكتفي بقتلك فحسبه بل سيسبي عائلتك وعشيرتك. وراحت تتساءل مرعوبة: ماذا افعل الآن؟ ماذا؟ تمكنت من تهدئتها ووضعت لها ولي خطة، تمكنا من تطبيقها بحذافيرها وتلخصت بالآتي:

١. إخراج الزبائن من البيت.
٢. ترك الجثة في مكانها دون مسها أو تحريكها.
٣. أن أترك أنا البيت من الباب الخلفي السري وأعود إليها مع أفراد الشرطة. ومن حسن الحظ كان يوم جمعة، لذلك تمكنت من الحضور بملابسي المدنية بعد المرور بمخفر الشرطة القريب من هنا واصطحاب عدة أفراد للحماية وتسهيل أمور التحقيقات.

اتصلت بحاكم التحقيق وأخبرته بوجود مثل هذه الحالة، فخولني باصطحاب مفوض تحقيق والإشراف بنفسي على التحقيقات. عندما حضرنا في المكان، كانت الجثة لا تزال في مكانها وهي غارقة في بركة من الدماء وقد تناثرت حولها بقايا المخ الذي التصق قسم منه بجدار الممر. أمرت المفوض أن يبحث في جيوبه ويعمل محضرا بالمحتويات. ولما تأكدت بأن الهوية مزورة، ومحفظة النقود لا تحتوي على ما يشير إلى هويته الحقيقية تم وضعها داخل كيس ورقي، احتفظت به عندي. ولما كان الوجه مهشما ومشوها، لذا لم يتمكن أحد من التعرف عليه. تم نقل

الجثة إلى الطب العدلي الذي شخص سبب الموت بطلقة أصابت مؤخرة الرأس وخرجت من محيط الأنف، مما أدت إلى تهشيم الوجه وعدم معرفة صاحبه وأوصى بدفن الجثة فورا لعدم وجود إمكانية لحفظها. وجرى تحقيق سريع مع عزيزة وبعض الزبائن المتواجدين هناك. وأخيرا، تم الاتفاق على أن القاتل مجهول الهوية والتحقيقات جارية. ونشرت الصحافة في اليوم الثاني المعلومات المثبتة في الهوية المزورة لمعرفة أقارب الميت، ولكن أحدا لم يستجب للأمر. وحولت الأوراق للحفظ وربما لغلق القضية نهائيا. هذه هي الحكاية كلها. والحقيقة لم أفكر بإلحاق الأذى به، ناهيك عن قتله. ولكن لسانه هو الذي قتله. وما زال ضميري يؤنبني على هذه الفعلة الشنيعة"

قال شمس الدين بلهجة صارمة:

" كان تصرفك صحيحا يا سيد كمال، إنه تصرف الرجال. وأعتقد إننا سنفهم بعضنا بعضاً بشكل جيد وعلى هذا الأساس"

قال كمال الذي أحس كما لو أنه قد أزاح عن صدره ثقلا هائلا:

" إن شاء الله يا سيدي"

قال شمس الدين بلهجة جادة وحذرة:

" أستاذ كمال، هل يعرف شخص آخر بهذه الحقيقة؟"

" نعم سيدي، عزيزة"

" وهل أنت متأكد من أنها كتمت الحقيقة؟"

" كل التأكيد"

" إذاً أنا الشخص الثالث الذي يعرف الحقيقة"

" بالضبط"

سأل شمس الدين مصطنعا الغباء:

" هل تعرف شيئا عن أهل القتيل؟"

" نعم سيدي، إنه نجل احد الشيوخ الكبار، لو عرف بالحقيقة، لهدم بيوتنا على رؤوسنا كما قالت عزيزة"

قال شمس الدين بإعجاب:

" اكثر من سنة والسر بقي محتفظا بنفسه، شيء جيد. وأما بالنسبة لي، فالسر عندي باب ضاعت مفاتيحه"

قال كمال بلهجة اطمئنان وثقة:

" خلف الله عليك يا سيدي. يمكنني ان أذهب معك حتى إلى الجحيم"

" واما انا فلا اقودك إلا إلى الفردوس. والآن يا استاذ كمال يجب ان نتفق على بعض القضايا والنقاط الأولية فيما بيننا. هل أنت مبدئيا موافق على العمل معنا؟"

تساءل كمال بلطف:

" هل يمكنني ان اعرف طبيعة عملكم؟"

" نعم، أنت محق في سؤالك. انت تعرف بأن الدولة أصبحت تائهة، لا راعي لها والناس يسمونها بحق ولاية بطيخ. إننا نريد تأسيس ولاية بطيخ ثانية تسيطر سيطرة تامة على ولاية بطيخ الأولى. والفرق بيننا وبين الأخيرة، هي إننا سنسرق نصف ما يسرقه أولئك ونعطي منه حصة للفقراء الذين يفترشون الأرض ويلتحفون السماء. ونتعهد بالحفاظ على حياة الناس وممتلكاتهم، باختصار نريد تطبيق نوع من العدالة الاجتماعية"

قال كمال بسذاجة:

" عدالة اجتماعية؟ ولكن، الا يعتبر هذا تدخلا في السياسة؟ أليس من المستحسن أن نكتفي بالسرقة والاغتناء؟ إن الفقراء إذا شبعوا، سينقلبون علينا ويطالبوننا بالمزيد من المال والجاه. أن نسرق نحن

ونغامر بحياتنا ثم نعطي الفقراء الكسالى مما نكسبه بعرق جبيننا؟ هذا ما لا افهمه يا سيدي"

ابتسم شمس الدين بارتياح واستغرق في تفكير عميق لهذا الكلام الذي لم يتوقعه ثم قال:

" يا استاذ كمال انت واقعي اكثر من اللازم، ولكننا إذا كررنا سياسة ولاية بطيخ الأولى، لا نستطيع أن نخطو خطوة واحدة على طريق مشروعنا. إننا من اجل ان نثبت اقدامنا ونكسب سمعة طيبة، يجب ان نقدم شيئا. إن الحياة أخذ وعطاء. وأما ولاية بطيخ الحالية، فتأخذ فقط ولا تقدم اي خدمة للناس"

يبدو أن كمال قد اعجبه الكلام الأخير،هز راسه بالإيجاب وراح يفكر فجاة في مشاريع اكبر، قال بتأن:

" انا افهمك يا سيدي، وانا متجاوب معك كل التجاوب. وانت محق في رأيك حول ولاية بطيخ الآيلة للسقوط. وقبل أن يبادر آخرون لأخذ زمام الأمور، ينبغي ان نبادر نحن لحصرها بأيدينا. ولي اصدقاء مستعدون للعمل معنا. مثلا صديقي السيد حامد رئيس البلدية، إنه يتحدث كثيرا عن العدالة الاجتماعية، ولا سيما بعد أن زار مع وفد رسمي ضم رؤساء البلديات، أحد البلدان الأوروبية. إننا يجب أن نتكلم بهذا الخصوص بصورة مفصلة اكثر"

انتاب شمس الدين شعور لذيذ بالنصر وراحت الأفكار تتزاحم في راسه. ورأى أنه من المستحسن أن يتفق مع صاحبه على موعد معين في مكان آمن، ولكن لابد الآن من طرح أسئلة أخرى تهزه:

" سيد كمال، انت لا تدري كم انا سعيد باللقاء بك"

قاطعه كمال قائلا:

" إن أحسن الصداقات يا أخي تنعقد في الملمات"

" احسنت يا أستاذ كمال. مثلما فهمت منك، يمكن التفاهم مع رئيس البلدية السيد حامد"

" بالضبط"

" ومدير الطابو السيد انور؟ كيف علاقتك به؟"

" إنه لص محترف، لا مانع لديه من بيع هكتار من الأراضي الأميرية بقنينة ويسكي. علاقتي جيدة به. إنه يحب الولائم"

" ومدير الأمن السيد تحسين؟"

اجاب كمال باعتداد:

" لا يخطو خطوة دون استشارتي، ولكنه زير نساء ويحب الشرب"

أراد شمس الدين أن يجس نبض صاحبه ومعرفة مدى تجاوبه الفعلي في العمل المشترك في مجال التطبيق العملي:

" استاذ كمال، يهمني رأيك الشخصي في العمل مع هؤلاء لإنجاح مشروعنا المشترك؟ تصور نفسك انت صاحب المشروع وأنا معاونك"

مسح كمال وجنتيه بيده اليمنى وقال بعد تفكير عميق:

" تريد الحقيقة، عاملهم كما عاملتني واقطع عليهم جسور العودة كي لا ينقلبوا علينا، عدا رئيس البلدية، فهو إنسان من طينة أخرى"

وضع شمس الدين قناعه على وجهه وطلب من خير الدين بإشارات من يديه أن يفعل مثله ثم اشار إلى كل من عزيزة وشرف الدين أن يتركا الغرفة بخفة وقال:

" استاذ كمال، انا انتهيت من كلامي حاليا، بقي أن نتفق على اللقاء القادم"

وبعد أن فك العصابة من عيني كمال، طلب من خير الدين أن يجلب كلاً من عزيزة وخادمها إليهما. قال كمال وهو يفرك عينيه بيديه ويجيلهما حواليه، أنه لا مانع لديه من التحدث عن كل شيء أمام عزيزة

لثقتــه المطلقــة بهــا، ولكنــه لا يعــرف خادمهــا الجديــد، ولــذلك فإنــه لا يستطيع التكلم أمامه بحرية.

وعندما حضرت عزيزة مع شرف الدين، وجه شمس الدين سؤاله إلى كمال قائلا إذا ما كان موافقا على جعل صاحبة البيت هي التي تحسم هذه المسألة، أجاب كمال بأن قرار عزيزة هو الحاسم. قالت عزيزة فورا بأن ثقتها مطلقة بخادمها المطيع. علق شمس الدين بارتياح وهو يوجه كلامه إلى كمال كما لو أنه ينتظر منه جواباً:

" وأنا ثقتي مطلقة بكم جميعا"

أكد كمال:

" وأنا بدوري ثقتي مطلقة بكم جميعا"

وشربوا جميعا نخب الثقة المطلقة. كانت عزيزة واقفة وراء كمال. ـرت إلى شمس الدين بحركات من يدها أن ينزع عصابته، ولكنه لم ـب لطلبها، بل اكتفى بالقول الذي وجهه إلى الجميع:

الثقة المطلقة متوافرة، ولكن لابد أن يرافقها قليل من الحذر. والآن جب أن نتفق على موعد ومكان اللقاء القادم. أرجو أن يقدم الأستاذ كمال، بصفته أحد مسئولي مشروعنا الكبير، مقترحاته بهذا الخصوص"

قال كمال بجد واعتزاز:

" إن عملنا بطبيعة الحال سري ويجب علينا الحفاظ على سريته بكل الـ ـائل الممكنة، لأن ما نريد القيام به، هو من حيث شئنا أم أبينا، عمل سياسي قد يكلف رقابنا. أنا شخصيا مستعد أن أحضر كل يوم بعد السادسة مساء. أقترح في بادئ الأمر أن نلتقي عند الست عزيزة أو في أحد بيوتها الفارغة لحين إيجاد حل أفضل. على فكرة أن بيت عزيزة خاضع للمراقبة عمليا، ولكن لا يوجد عندنا حاليا من يقوم بالمهمة.

ولدى المديرية ثلاثة شواغر لوظيفة شرطي سري، يمكنكم اقتراح ثلاثة أشخاص لملئها على أن يكونوا من خريجي الدراسة الابتدائية. تزكية واحدة من عندي تكفي لتعيينهم فورا. عند ذلك نكون قد حللنا مشكلة الرقابة"

قال شمس الدين باعتداد:

" يمكننا أن نقول بأننا قد بدأنا بالعمل فعلا. سأرسل لك قريبا ثلاثة شبان من هذا التمام يا أستاذ كمال"

" على الرحب والسعة"

" ما هو رأيك لو التقينا بعد أسبوع في مثل هذا اليوم في التاسعة مساء؟"

" لا مانع لدي. وإذا أحببت فيمكنك أن تمر علي في الدائرة كأي مراجع لنتباحث في الأمور الطارئة إن وجدت"

" سأمر عليك حتما، لأنني أريد التحدث مع مدير الطابو بخصوص بعض الأراضي. أعتقد إننا اتفقنا على كل شيء، بقي أن اعرف رأي الست عزيزة إذا ما كانت مستعدة لاستقبالنا في بيتها"

قالت عزيزة بارتياح:

" البيت بيتكم. كل شيء في خدمة المشروع"

نبهه كمال إلى ضرورة الاتصال به على تلفونه الخاص قبل زيارته بشكل عفوي، وأعطاه رقمه. واتفقا على أن يكون أسم شمس الدين الحركي الشيخ إبراهيم. وأوصاه بعدم الاسترسال في التفاصيل، ذلك أن هناك رقابة صارمة على كافة التلفونات، سواء أكانت رسمية أم أهلية.

(١١)

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل عندما ترك كل من شمس الدين وخير الدين غرفة نوم عزيزة التي بقيت وحدها مع كمال. وحين رافقهما شرف الدين إلى الباب الخارجي، سلمه خير الدين مسدسه. وأوصاه شمس الدين أن يكون حذرا من تصرفات كمال تجاه عزيزة، إذ أنه في حالة هيجانه الجنسي قد يحاول اغتصابها، إذ ذاك عليه أن يؤدبه بعلقة محترمة. قال شرف الدين أنه يعرف هذا الخنزير بشكل جيد ولذلك لا داعي للنصيحة ثم اتفقوا أن يتناولوا طعام الفطور في الساعة الثامنة عند عزيزة. وقبل أن يخرجا من الباب، حضرت هذه بسرعة ومنعتهما من ترك البيت، قائلة بصوت خافت أنها ستطرده الآن فورا وعليهما الانتظار في غرفة زينة، ذلك أنها لن تتحمله أكثر من عشر دقائق، بعد ذلك يواصلون سهرتهم حتى مطلع الفجر. توجها إلى غرفة زينة بصمت وهدوء.

عادت عزيزة إلى غرفة نومها وهي تتصنع الغضب والامتعاض وراحت تعاتبه لعدم تمكنه من مقاومة هذه العصابة التي تخاذل أمامهم بسرعة. قال كمال خافضا رأسه ومحدقا في الأرض:

" إن هؤلاء لا يعرفون المزاح يا عزيزة، كلمة خاطئة من عندي كانت تكفي أن يفصلوا راسي عن جسدي. مع ذلك إن هذا الإنسان مؤدب، يحترم مقابله. أعتقد انهم يشتغلون مع حزب سياسي سري معارض"

" وهل تريد أن تتعاون معهم فعلا؟"

" ليس لي خيار آخر يا عزيزة. إنهم سينتصرون، إن عاجلا أم آجلا. الا ترين حال الولاية؟ إنها ولاية بطيخ آيلة في كل الأحوال للسقوط"

" إنك ورطتني أيضا، ما لي وهؤلاء. لقد خسرت خمسة آلاف دينار"

" كلا يا عزيزة، انت دفعت ديونك، وأما الخاسر الحقيقي، فهو أنا، انا فحسب"

" وهل تريد أن تلتقي بهم بعد اسبوع فعلا؟ وهنا في بيتي انا؟"

" أمرنا لله والواحد القهار"

" لقد طارت النشوة من راسي وانا متعبة، هيا اذهب إلى بيتك فزوجتك الفاضلة بانتظارك الآن"

قام من مكانه متعبا كسيرا وهو يقول:

" وانا لم تطر النشوة من راسي فحسب، بل طارت الرجولة من كياني"

ثم راح يدمدم مع نفسه بصوت خافت:

" بقدرة قادر تخلصنا من أخطر عصابة، بقي أن نتخلص من عصابة الطناطل والسعالي"

نادت عزيزة على شرف الدين الذي حضر فورا، وطلبت منه أن يرافق السيد كمال إلى الباب الخارجي. عندما صفق الباب من ورائه، تنفست الصعداء وتوجهت إلى غرفة زينة وراحت تعانق كل من شمس الدين وخير الدين ثم لحق بهم شرف الدين وبدأ العناق من جديد، وهم يهنئون بعضهم بعضاً للنجاح المنقطع النظير للعملية. وحين بدأوا

يقرعون الكؤوس نخب النجاح الباهر، أراد شمس الدين أن يعرف من عزيزة رأي كمال بخصوص مجمل العملية. حدثتهم هذه بكل تفصيل عما دار بينهما قبل مغادرته البيت. وتأكدوا من أنه لا يخونهم وأنه مستعد للتعاون معهم. قال شمس الدين إن ثقته غير مطلقة به، لذلك ينبغي عليهم أن يضعوه أمام اختبارات عديدة، فإذا تمكن فعلا من تعيين ثلاثة أشخاص من جماعتهم كأفراد شرطة سرية مثلا، فإنه سيكون قد نجح في الاختبار الأول. ورأى شمس الدين، طالما أن الحديدة حارة وقبل أن يسطو غيرهم على الوظائف الثلاث الشاغرة، ينبغي العمل فورا من أجل إيجاد ثلاثة شبان من أقرب أقاربهم الذين تتوافر فيهم الشروط المطلوبة. وقرروا أن يقوموا بزيارة أقاربهم في منطقة مربي الجواميس في ضاحية العاصمة ليشرفوا بأنفسهم على اختيار المرشحين.

كان التعب والنعاس باديين عليهم إلى درجة أنهم تكاسلوا في الذهاب إلى بيتهم، لذلك قضوا ليلتهم عند عزيزة. شمس الدين اضطجع في غرفتها، وكل من شرف الدين وخير الدين استلقيا على الكنبات في غرفة الضيوف، على أن يستيقظوا في التاسعة صباحا.

قبل أن يتركوا البيت بعد تناول طعام الفطور، رأى شمس الدين أن بقاء عزيزة بمفردها في البيت غير صحيح لذلك اقترح أن يبقى شرف الدين معها ويكون حذرا جدا تجاه أي مفاجأة أو طارئ. ونصحه أن لا يفتح الباب، إلا بعد أن يصعد السطح ويتأكد هناك من هوية الطارق. عارضت عزيزة الفكرة فورا، قائلة أن جنيتها قد اتصلت بها الآن وطلبت منها أن تخبرهم بأن قوتهم تكمن في ثلاثتهم، لذلك ستبقى هي وحدها في البيت لأنها متعبة جدا وتريد أن تنام. واتجه الثلاثة إلى موقف الباص المؤدي إلى منطقة مربي الجواميس.

مستنقعات بمياه آسنة استلقت فيها جواميس ضامرة، ولكنها تبدو سعيدة لتوفر بعض الرطوبة، نساء حافيات ورجال وأولاد حفاة بأجساد هزيلة، ينتقلون من بركة آسنة إلى أخرى وهم يحاولون تحريك الجواميس الثقيلة وتوجيهها إلى جهة ما. مئات الأكواخ الطينية المسيجة بجدران منخفضة مصنوعة من روث البهائم، يعيش فيها البشر والحيوان بصورة مشتركة، تنتشر على امتداد البصر وتلتصق ببعضها بعضاً كما لو أنها تريد أن تتماسك فيما بينها وتحيل دون السقوط. قال شمس الدين وهو يرفع أطراف عباءته ويحاول أن يتجنب الطريق الموحل:

" هنا يحتاج الإنسان إلى زوج جزمه وقارب"

واصطف من ورائه كل من خير الدين وشرف الدين وهما يتتبعان خطواته مثل مسيرة البط. وفجأة توقف شمس الدين. وبحركة آلية توقف الاثنان أيضا وهما بانتظار ما سيفعله صاحبهما. قال هذا دون أن يلتفت إليهما:

" يا جماعة لن نصل إلى هدفنا بهذه الطريقة، يجب أن ننزع أحذيتنا ونمشي حفاة. صدق من قال (عليّ وليس على مداسي)"

نزع شمس الدين حذاءه وتأبط الفردتين. وفعل الآخران مثله وهما يقولان أمرنا لله. وغاصت أرجلهم في الطين. سأل شرف الدين إذا ما كان شمس الدين متأكدا من أن هذا الدرب يؤدي إلى بيت قريبه. أجابه شمس الدين باعتداد أنه قضى طفولته وصباه في هذا المكان وإنه يتمكن من العثور على بيت خاله حتى في الظلام الدامس. وبعد قطع مسافة غير قصيرة من التعرجات والأزقة الضيقة التي تحرسها الكلاب الهائجة، وقف شمس الدين أمام باب من الصفيح، يمتد على جانبية جدار طيني أعلى من بقية الجدران الواطئة. كان الباب نصف مفتوح، فبدت الباحة

الداخلية واسعة بشكل غير مألوف، تنتهي بمجموعة من الأكواخ المبنية جنب بعضها بعضاً. قال خير الدين بتهكم:

" يبدو أن خالك إقطاعي ورئيس عشيرة البو رايات"

علق شمس الدين بجد:

" لو بقي في الريف، لكان شبه إقطاعي، لكن الشيخ طرده، لأنه رفض أن يعطيه حصته. طبعا بعد أن نال منه علقه محترمة"

قال شرف الدين بخبث:

" يعني خالك شوعي"

" لا أعرف، ولكن الذي أعرفه انه لا يفرق بين الشوعي والشيعي"

تساءل خير الدين:

" وهل هناك فرق بين الكلمتين؟"

أراد شمس الدين أن يغير الموضوع، فقال لهما أنهم إذا أرادوا أن ينالوا رضى خاله ويحصلوا على غداء دسم، فعليهم أن ينادوه بالشيخ ويقبلوه من كتفيه. عندها طرق شمس الدين الباب، خرج شاب تجاوز الثامنة عشرة من العمر، طويل القامة، رشيق، وقف وجها لوجه أمامهم، مدققا في ملامح شمس الدين كما لو أنه يريد أن يستذكر هذا الوجه الذي سبق أن رآه في مكان ما. كان شمس الدين هو الآخر يدقق في ملامح الشاب، قال متسائلا:

" انت مو محيسن؟"

يبدو أن الشاب عرفه من صوته، قال وهو يهم بعناقه:

" شمس الدين"

وقادهم الشاب إلى داخل الدار وأعطاهم إبريقا من الماء كي يغسلوا به أقدامهم الموحلة. وراح أسم شمس الدين يدور على ألسن النساء والرجال واستمر الترحيب والعناق وتم التعارف بين القوم وصديقي

شمس الدين، اللذين نفذا تعليماته بحذافيرها. وأمر الخال بذبح (فسيفس) ديك رومي وإعداد طعام الغداء. وبحساب تقويم الخال، تبين أن شمس الدين لم يزر خاله منذ أكثر من خمسة أعوام. وقبل أن يتطرق إلى الموضوع الذي جاء من أجله، سأل خاله عن الأوضاع عند مربي الجواميس وما هي المشاكل التي يعانون منها وكيفية علاقتهم بالدولة وهل هناك مستوصفات ومدارس تكفي لحاجة المنطقة؟ قال خاله باستغراب وخشية، خافضا صوته المرتفع:

" ابني شمس الدين، مالك وهذا الكلام، أنا لم أتكلم ربعه، وهذا مصيري. تذكر أن للحائط آذاناً"

ضحك شمس الدين وقال وهو يحاول أن يحشم خاله:

" نحن النشامى نجر آذانهم وما نخاف يا خالي، وهل صحيح أن نخاف ولاية بطيخ؟ أريد منك الجواب على أسئلتي. إننا نريد أن نفرض ضلعنا على الدولة، وإلا سيسحقوننا بأحذيتهم"

رفع الخال رأسه وحك لحيته البيضاء الخفيفة قائلا:

" إن شاء الله ندوسهم بمداسنا يا ابني شمس الدين، ولكن كيف؟ ها أنك ترى كل شيء بعينيك؟ أنت بطران يا ابني، تسألني عن المستوصفات والمدارس؟ الله كريم هو وحده يجب أن يعالج الأمور"

كانت أحداث الليلة الماضية ونجاحهم في تنفيذ خطتهم، قد أثرت تأثيرا حاسما على الثلاثة لا سيما شمس الدين، الذي اجتاحته نشوة غريبة رفعته إلى مصاف رجل عظيم، يمكنه أن يصنع كل شيء. وعرف في أعماقه بأن مصدر هذه النشوة ليس نجاحه في تنفيذ خطة الأمس فحسب، بل حبه لعزيزة التي بعثت الثقة المطلقة بنفسه. وفكر أنه يجب أن لا يقطع زياراته إلى خاله. ورأى أنه يجب أن يزور في وقت لاحق سريع كلاً من دنخة والخياط أيوب وصاحب المطعم سالم الجريوع. إنه بحاجة

ماسة إلى هؤلاء، كما أنهم أيضا بحاجة إليه أو إلى أكاذيبه في أسوأ الأحوال. وإنه إذ تمكن بحيلته من إرغام كمال على العمل معه في مشروعه بخصوص ولاية بطيخ، فإنه يتمكن من جذب أولئك إليه بدون أي صعوبة. وأما ما يخص التعامل مع كل من السيد حامد، رئيس البلدية والسيد أنور، مدير الطابو والسيد تحسين، مدير الأمن، فيجب أن يطبخ وسيلة جديدة بمعاونة عزيزة و زينة وساهرة ومن المستحسن أن يتصل بهم شخصيا بوسيلة ما.

بعد مداولات وأحاديث مختلفة والإيحاء لخاله ببعض الأشياء الغامضة التي فهمها بغريزته الفلاحية الذكية، التي استمرت إلى وقت الغداء، أدرك الخال أن ابن أخته، الذي طلع على خاله، مقدم على عمل ما وأنه يستحيل أن يدوس على تخته جرك، بل أنه يعني ما يقول.

في تمام الساعة الثانية ظهرا، انتهوا من تناول طعام الغداء: ديك رومي على تمن وثريد دليمي. ومع بدء شرب الشاي، فاتح شمس الدين خاله بحاجته إلى ثلاثة شبان مضبوطين من خريجي الدراسة الابتدائية أو المتوسطة لتعيينهم في إحدى دوائر الدولة براتب لم يحلموا به من قبل. كان هذا هو ما يتوقعه الخال، رغم ذلك كان وقع المفاجأة كبيراً وساراً على الخال الذي بدا أنه لم يصدق كلامه. بيد أنه فكر فجأة في عباءة شمس الدين الغالية التي أوحت له بصلات وعلاقات بهذا الشكل أو ذاك بمؤسسات الدولة. ولابد أن شمس الدين صادق في ادعائه، إذ أنه ليس من النوع الذي يقوم بنصب المقالب والضحك على الذقون. ولكن الخال يعرف أن التعيين في دوائر الدولة، بما فيه تعيين شرطي، له ثمنه الذي يجب ن يقدم إلى الشخص المسئول عن التعيين. قال الخال بلهجة مرحة:

" يا ابن أختي، يبدو أن لك علاقات خاصة بالسلطة، عندنا شباب مضبوطون يبوسون أيدك. بس نريد نعرف كم سعر التعيين، حتى نشوف شغلنا"

قال شمس الدين باعتزاز:

" عزيمة واحدة فقط لا اكثر، فسيفس على تمن"

انتفض الخال في كما لو انه أصيب بصدمة ووجه كلامه إلى زوجته:

" سمعت يا حرمة؟ روحي جيبي الأولاد"

غابت الزوجة حوالي ربع الساعة ثم ظهرت ومعها خمسة أولاد ما بين سن الخامسة عشر والحادية والعشرين وكل واحد منهم يحمل بيده راديو صغير ترانسستر. قسم منهم يسمع الأغاني الشعبية والقسم الآخر يلهو بسماع الأخبار والتعليقات. يبدو أن تصرف الشبان المائع لم يعجب شمس الدين. قال بصوت جاد فيه احتجاج:

" الذين اعمارهم تقل عن الثامنة عشر، لا اريدهم، ولكنني قد احتاجهم بعد بلوغهم سن الرشد، ولكن بدون راديوات"

يبدو أن الخال أعجبته الجملة الأخيرة من كلام ابن أخته، فقال آمرا الأولاد:

" احترموا المجلس وسدوا الراديونات يا أولاد الكلب، ألم تشبعوا من هذا الهراء؟"

أراد شمس الدين أن يمنح الأمر مسحة طبيعية، قال موجها كلامه إلى خاله:

" هذا هو الفرق بيننا وبين الشباب يا خالي، إنهم بحاجة إلى ونسة وطرب. ماذا تتوقع منهم، هم محصورون بين الجواميس والأوحال"

قال محيسن الذي جاء مع الأم ضمن الشبان الخمسة:

" رحم الله والديك يا ابن عمتي، والله هذا الكلام مضبوط. أحنه وياك وياك حتى الموت"

وبدأ شمس الدين يحقق مع محيسن الذي سبق له أن أكمل الدراسة المتوسطة، وذلك كي يتعرف عليه عن كثب وإذا ما كان أهلا لمسلك الشرطة السرية. قال محيسن إنه مستعد للقيام بأي عمل، يمكن أن يعيش من ورائه، المهم أن يتخلص من هذا الوحل الذي قطعه يوميا عدة مرات لبلوغ مدرسته المتوسطة في شارع غازي. وتمكن شمس الدين أن يشخص شابين آخرين من أقاربه، ممن يمكن الاعتماد عليهم اعتمادا كليا. وهكذا تمكن من تشخيص ثلاثة مرشحين ممن يحتاجهم هو فعلا، قبل أن يحتاجهم كمال. وطلب منهم أن يأتوا معه ويجلبوا معهم حاجياتهم الضرورية ويرتدوا بنطلوناتهم بدلا من الدشاديش التي لا تتلاءم مع وظائفهم المقبلة. وعندما أرادوا أن يجلبوا معهم راديواتهم، قال لهم أن هناك واجبات أخرى أهم بكثير من الاستماع إلى الربابة.

حين أراد شمس الدين أن يودع خاله وأهله، فكر هذا في أحذيتهم التي ينبغي أن لا تتلطخ بالأوحال، فصاح على أحد إخوانه الصغار أن يخرج العربة التي يجرها بغل، من الكراج ويوصل شمس الدين وصديقيه والأولاد إلى رأس الزقاق الذي تنتهي فيه الأوحال. وكان أن حقق الأخ الأصغر ما طلبه الأخ الكبير.

في الطريق ركز شمس الدين كلامه إلى أبناء خاله الثلاثة الشبان الذين وافقوا على العمل في أي مهنة يمكنهم العيش من ورائها، وأعلمهم بأنه هو المسؤول الرئيسي عنهم. وأن هذه المسألة يجب أن تبقى سراً فيما بينهم. قال أولاد الخال إنهم لن ينفذوا سوى أوامره، ذلك أنه ليس ابن عمتهم فحسب، بل الرجل الذي دبر لهم خبزهم. وأكد له محيسن بأنه مستعد أن يحقق لابن عمته كل ما يريده بما فيه ذبح أي إنسان لا يعجب

ابن عمته شمس الدين. أحس شمس الدين بالزهو لكلام ابن الخال وقال:

" انا فخور بكم يا أولاد خالي، هذا ما كنت أتوقعه منكم. إننا بتكاتفنا يمكننا تحقيق المعجزات"

في حوالي الساعة الخامسة مساء وصلوا إلى البيت المخصص لشمس الدين وجماعته. ونبه شمس الدين الأولاد بأن شروط العمل في الوظيفة الجديدة قد تكون بالنسبة إليهم قاسية، ولكنهم يجب أن يتحملوها، ولذلك أخبرهم انهم لا يجوز لهم ترك البيت خلال هذه الفترة التي ستستمر إلى اليوم الثاني. لم يهمهم هذا الكلام، إذ أنهم كانوا قد اعتادوا على الملل الذي تعلموا أن يتغلبوا عليه بمختلف أنواع الألعاب التي يختلقونها من لا شئ. وهكذا قضوا وقتهم دون عناء يذكر، إلى أن اجتاحهم سلطان النوم وطار بهم إلى عنان السماء. قال لهم أنهم سيسكنون هنا لحين قبولهم، إذ يأخذونهم فيما بعد إلى احد الأقسام الداخلية التي تتكفل الدولة بمصاريفها. بقي شرف الدين وخير الدين مع الشبان الثلاثة، في حين أخذ شمس الدين عليوي معه، متجها إلى عزيزة. وعندما وصلوا إلى هناك، راح عليوي يقفز فرحا للقائه بعزيزة وهو يتلعثم:

" والله باجي كل الوقت افكر فيك"

عانقته عزيزة بود قائلة:

" وانا افكر فيك طول الوقت يا عليوي"

أتصل شمس الدين بكمال على رقم تلفونه الخاص فور وصوله البيت. وكان أن أجاب من الطرف الآخر محدثه الذي تعرف على صوته مباشرة، قائلا:

" أهلا وسهلا بصديقي العزيز، أنا مشتاق إليك فعلا. ما هي أخبارك؟ متى سنلتقي؟"

" متى ما شئت يا عزيزي. إننا يجب أن نلتقي في أسرع وقت ممكن، لأنني فعلا مشتاق إليك. والثلاثة جاهزون"

" بارك الله فيك يا أخي شيخ إبراهيم. هكذا يكون الشغل. يمكنك أن تأتيني غدا في الساعة العاشرة صباحا إلى الدوام. أجلب معك الأولاد إن أمكن كي ننجز معاملاتهم فورا. وبعد ذلك سنمر على كل من السيد حامد، رئيس البلدية والسيد أنور، مدير الطابو وأما السيد تحسين، مدير الأمن، فيجب أن نمر عليه في وقت آخر، إذ أنه يجب أن يوقع على طلبات كثيرة ويمشي المعاملات المتراكمة"

وتواعدا على أن يلتقيا غدا في مكتبه.

كانت عزيزة التي أشرت إلى عليوي أن يبتعد عن المكان، واقفة قرب شمس الدين تستمع إلى الحوار الجاري في التلفون، مذهولة وهي تكاد لا تصدق أذنيها، قالت وهي تضربه برقة على وجهه:

" الا تقل لي من أي طينة أنت؟"

قال باعتزاز مبتسما:

" أنا من طينة الطناطل والسعالي وأؤمن بالمثل القائل: يجب أن تكون أحد اثنين لا ثالث لهما، ذئبا أو خروفا"

فكرت عزيزة بعض الشيء، ثم قالت ساهمة:

" ذئبا أو خروفا.. مثل جميل ينطبق عليّ أيضا. منذ اللحظة التي وصلت فيها إلى العاصمة طبقت هذا المثل بصورة عفوية دون أن أعرفه. إذاً أنا ذئبة وأنت ذئب"

وضع يديه على كتفيها قائلا بصوت خافت:

" أنت لست ذئبة يا حبوبة، أنت جنية تحرسك الطناطل والسعالي"

قالت عزيزة بدلال وغنج:

" كلا، انا لست جنية، بل لي جنية تنبئني بكل شيء قبل وقوعه"

تساءل شمس الدين بجد وفضول:

" هل يمكنها أن تخبرنا كيف يكون لقاؤنا يوم غد؟"

قالت بلهجة واثقة:

" على أحسن ما يرام، ولكنك يجب أن تدعوهم إلى وليمة، لأنهم سينجزون لك أعمالا كبيرة تدهشك"

" تقصدين لنا"

" ليكن لنا، إنك من حيث أريد أو لا اريد، حشرتني في مشاريعك الجهنمية. أين تريد ان تقوم بهذه الوليمة؟"

" هذا سؤال محرج يا حبوبة. اين تريدين أن نقيمها؟"

" إذا مشت الأمور كما تشتهيها انت، وابديت ارتياحك حولها، فسنقيمها عندنا هنا. سأطلب من زينة وساهرة أن ترقصا شبه عاريتين. سأجعلهم يركعون تحت اقدامنا. وما عليك انت، إلا ان تملي عليهم طلباتك"

طوقها بقوة ثم حاول أن يسحبها باتجاه غرفة النوم وهو يقول:

" هذا الكلام عليه دُش"

" انتظر قليلا"

قالت عزيزة ثم نادت على عليوي الذي جاء بسرعة وطلبت منه أن يذهب إلى الجماعة في البيت الآخر وينبههم بعدم المبالغة في السهر. عليهم ان يكونوا هنا في تمام الساعة الثامنة صباحا بدون تأخير، مفهوم؟ وقبل أن يطلق عليوي ساقيه للريح، سألها إذا ما يرجع إليها أم يبقى عندهم. طلبت منه أن يبقى عندهم، كي ينبههم غدا للاستيقاظ في الوقت المناسب.

سألها شمس الدين وهما يدخلان غرفة النوم، كيف قضت وقتها بمفردها في البيت، اجابت أنها قرات رواية الجاسوسة الحسناء، قال أنه كان لا يقرأ الروايات البوليسية، لأنها كانت تؤثر على سلوكه وتصرفاته، ولذلك انصرف إلى قراءة الروايات الغرامية بحثا عن الحب الذي لم يجده سوى في بطون الكتب والأفلام السينمائية. سألته إذا ما لا يزال يبحث عن الحب. أجاب وهو يحدق في عينيها باستسلام:

" كلا، لم اعد ابحث عن الحب، لأنني وجدته. ولكنني أبحث عن المغامرات التي افتقدتها في قراءاتي"

" وهل انت متاكد من انك وجدت الحب فعلا؟"

" كل التاكيد، ذلك انه شدني إلى الحياة الحقيقية وانقذني من التسكع والسكن في المقبرة. أنا في هذه اللحظة أملك العالم كله. ولولا عيناك لما اقدمت على ما فعلته ليلة امس"

" هيا إذاً إلى زاوية الحب، لنر إلى متى يدوم حبنا"

(١٢)

ابلغ كمال سكرتير مكتبه أن يلغي كل المواعيد الواقعة بين الساعة العاشرة صباحا والثانية بعد الظهر، وعليه أن يتواجد في غرفته طيلة الوقت، وذلك بسبب زيارة شخصية مهمة لها علاقة مباشرة بأمن الدولة. كما ابلغ الفراش سعيد أن يمنع دخول أي شخص إلى غرفته ومن المستحسن أن يقول للزائر أن المدير غير موجود، كي يتفادى هذا أي انتظار:

" نعم سيدي، المدير غير موجود. هذه احسن طريقة للتخلص من المراجعين الفضوليين الذين لا شغل لهم ولا عمل، سوى التسكع في أروقة دوائر الدولة والبحث عن الدفاتر العتيقة كأي يهودي أعلن إفلاسه"

وعندما ظهر شمس الدين مع رهطه أمام باب المدير، مخترقا كل الحواجز بسهولة، استيقظ العم سعيد، فراش السيد كمال، مدير الشرطة، من غفوته ووقف بوجههم قائلا بصورة عفوية:

" وين، وين، قفوا، المدير غير موجود"

اضطرب شمس الدين للحظات. وبدت له العملية غير طبيعية. قال بهدوء أنه شيخ مشايخ ألبو رايات وله موعد مهم مع المدير وأنه متأكد

بأن الأستاذ كمال موجود، لأنهما سبق أن اتفقا على الموعد. قال الفراش وهو يتوجه إلى غرفة السكرتير:

" لحظة يا شيخنا"

عرف شمس الدين أن العملية مجرد تمثيلية. أدار وجهه إلى جماعته قائلا:

" هناك نظام في الدوائر الرسمية، يجب الالتزام به"

وقبل أن يرجع الفراش، انفتح الباب أمامهم وظهر السيد كمال ببدلته العسكرية ونياشينه الذهبية. قال وهو يهم بمعانقة شمس الدين:

" هذا الأثول يظل ما يفتهم، أهلا، أهلا وسهلا بكم. شرفتمونا"

أبى كل من شرف الدين وخير الدين إلا أن يظلا واقفين، أما الشبان فجلسوا، حسب طلب كمال، بالقرب منه. قال شمس الدين بلهجة أخوية دافئة:

" هؤلاء هم خدمك، يموتون من أجلك وأجل الدولة. لك اللحم ولي العظم. إنهم أولاد أخوالي"

تبين من خلال الاستفسار إن أحدهم من خريجي الدراسة المتوسطة وأما الآخران فرسبا في الصف الثالث المتوسط، أي أنهما يعتبران من خريجي الدراسة الابتدائية ومع ذلك، تحسب لهما السنوات الثلاث في المتوسطة، لغرض التعيين. وبعد أن سألهم في أي مدرسة درسوا، أخبرهم بأن وظيفتهم تكون عبارة عن مواصلة الدراسة في ثلاث مدارس مختلفة. وطمأنهم بأن نجاحهم مضمون مائة بالمائة وأنهم بعد تخرجهم من الثانوية، سيقبلون إما في كلية الشرطة أو الكلية العسكرية. وأما واجباتهم فهي القيام بكتابة التقارير حول ما يدور من الكلام بين الطلبة والمدرسين، سواء في داخل الصف أم خارجه، مثل شتم الباشا و أمير البلاد والانكليز وإثارة التذمر والإدعاء بأن أسعار المواد الغذائية غالية

وعـدم وفـرة إسـالة المـاء والكهربـاء في بعـض المنـاطق والإخبـار عـن التنظيمات السرية للشيوعيين مـن أنصار ستالين والفاشيين مـن انصار هتلـر والقـوميين مـن العـرب والأكـراد ومـن مؤيـدي البـارزانيين..الخ. وأوصاهم بالتقيد بالسرية التامة، إذ أنهم إذا انكشف أمرهم، سيفقدون وظائفهم وتنقطع عنهم رواتبهم البالغة ٢٢ دينارا. هنا قال شمس الدين متباهيا ومحذرا إياهم من مخاطر الثرثرة:

" اسمعوا يا أولاد، راتب الشرطي العادي سبعة دنانير. يعني راتب أحدكم يساوي ثلاثة رواتب شرطي، مفهوم؟ يجب أن تتحول آذانكم إلى لاقطات قوية ويكون السر عندكم بابا ضاعت مفاتيحه"

علق السيد كمال بإعجاب:

" أحسنت يا محفوظ السلامة"

التفت إليه الشبان الثلاثة بصمت وهم لا يصدقون آذانهم. وأراد السيد كمال أن يسمع منهم واحدا واحدا إذا ما كان موافقا على العمل تحت الشروط التي ذكرها. وبعد أن أبدوا موافقتهم، ضغط على زر الجرس، وما لبث أن ظهر أمامهم السكرتير من الباب الجانبي وهو يقول:

" نعم سيدي"

" سيد علوان، هؤلاء الشباب الثلاثة تتوافر فيهم الشروط المطلوبة وزكاهم الشيخ إبراهيم، شيخ مشايخ ألبو رايات. ساعدهم في ملء الاستمارات ثم خذهم إلى قسم طبع الأصابع في مديرية التحقيقات الجنائية.."

هنا التفت إلى الشبان وسألهم إذا ما كان لديهم محكومية سابقة. وعندما أكدوا له بالنفي، قال أنه مجرد سؤال روتيني يجب أن يطرح، ثم التفت إلى سكرتيره، مواصلا:

" بعد الانتهاء من طبع الأصابع خذهم إلى السيد تحسين، مدير الأمن وقل له إنهم من جماعتي"

قطع حديثه، موجها كلامه إلى شمس الدين، يسأله إذا ما كان الشبان يريدون السكن مع أهلهم أم في القسم الداخلي؟. تشاور هذا معهم، فأجمعوا على أن السكن في القسم الداخلي أفضل. استحسن السيد كمال الفكرة، بدليل أنهم يتمكنون من مواصلة عملهم هناك أيضا. وهذا عمل إضافي يوفر لهم مخصصات إضافية. قال شمس الدين بارتياح:

" رحم الله والديك يا أستاذ كمال. هيا قوموا يا أولاد وقبلوا يد الأستاذ"

قام الثلاثة بأدب وقبلوا يده ثم عادوا إلى أماكنهم. وجه السيد كمال كلامه مرة أخرى إلى سكرتيره، قائلا:

" وقل للأستاذ تحسين أن يشخص المدارس الشرسة الثلاثة من الآن ويسجل كل واحد منهم في إحداها. وأما بقية الأمور الروتينية فيعرفها هو. طبعا الدوام يبدأ بعد ثلاثة اسابيع"

وقبل أن يطلب من السكرتير الانصراف مع الشبان الثلاثة، سأل شمس الدين إذا ما كان يريد أن يقول شيئا للشبان قبل أن ينصرفوا، قال شمس الدين الذي عرف بأن السيد كمال يريد أن يواصل جلسته معه:

" هذا هو يا أولادي، بعد ثلاثة أسابيع تبدؤون بالدوام، نصيحتي لكم أن اسمعوا كلام رؤسائكم. وسلموا على الأهل"

ترك الشبان الثلاثة الغرفة مع السكرتير. قام السيد كمال من مكانه وراء مكتبه وجلس جنب شمس الدين على نفس الأريكة وهو يتكلم مع نفسه:

" كل المشاكل والبلاوي تأتي من المدارس، مظاهرات، إضرابات، اعتصام وشغب. إننا يجب أن نضع حدا لهؤلاء الفوضويين"

قال شمس الدين وهو يكاد لا يصدق ما جرى أمامه:

" انا لا اعرف كيف اشكرك على هذا العمل الذي اسديته لي بتعيين هؤلاء الشبان يا أستاذ كمال. إنك انقذت عائلات كبيرة من براثن الفقر"

" إذا كان هناك من لا يعرف كيف يشكرك على إنقاذ حياتي، فهو انا. إن حركة خاطئة من اي واحد منا، كان يمكن أن تودي بحياتي. انا مدين لك بها. بالمناسبة فاتحت هذا اليوم السيد أنور مدير الطابو وهو يحب التعارف بك، لأنه يريد أن يجذب شيوخ العشائر للبناء في ضواحي العاصمة. ويبيع الأراضي الأميرية بأسعار مغرية"

قال شمس الدين وهو يفكر في جنية عزيزة التي فتحت أمامه أبواب الحظ:

" استاذ كمال، انا لي عدة مشاريع كبيرة، ولكنني قررت أن اشاركك في كل مشروع ابدا به، ذلك لأنني كسبت فيك اخا مخلصا لا يمكنني الاستغناء عنه"

تصور السيد كمال أن الشيخ، من اجل تحقيق مشاريعه، ربما بحاجة إلى المال، ولذلك يريد أن يشاركه للمساهمة في راس المال الذي يحتاجه، بيد أن شمس الدين قطع عليه تفكيره، مؤكدا انه لا يحتاج منه حتى إلى فلس واحد. كل ما يريده منه هو أن يسهل له الأمور في دوائر الدولة وانه لا مانع لديه أن يشارك معه حتى السيد أنور إن سهل له الأمور. قال السيد كمال وهو يتنفس الصعداء:

" السيد أنور صديقي. وهو صاحب عائلة كبيرة، له مشاكل مالية كبيرة وهو مدمن على الشرب. يمكنك أن تفاتحه بنفسك. وإذا علم أنك صديقي، فسيفتح لك صدره بكل رحابة"

سأل شمس الدين عن الساعة التي يقومون فيها باستراحة الظهيرة فتناول طعام الغداء. أجاب السيد كمال، بعد أن استفسر عن السبب، أنها تقع بين الواحدة والثانية ظهرا. قال شمس الدين وهو ينظر في ساعته التي كانت تشير إلى الثانية عشرة والربع:

" أنا أدعوكما أنت والسيد أنور إلى تناول طعام الغداء في المطعم السوري، هيا هاتفه يا صديقي وأعلمه بالموضوع، وأنت يا شرف الدين، هيا أذهب واحجز لنا الزاوية التي تعرفها. وسنواصل حديثنا مع السيد أنور هناك"

استحسن السيد كمال الفكرة وطرب لها، بيد أنه اشترط أن يكون هو صاحب الوليمة:

" هذا الموضوع لا يحتاج إلى نقاش يا أستاذ كمال. أنا مسؤول عن الدعوات وليس غيري. والآن تفضل اتصل به"

قال السيد أنور من الطرف الآخر أنه سعيد بالتعارف مع الشيخ شمس الدين شيخ مشايخ البو رايات وأنه سيتواجد في المطعم في تمام الساعة الواحدة. حين علم شرف الدين بمحتوى المكالمة، غادر الغرفة فورا.

أراد السيد كمال أن يخابر حمايته الخاصة لتجهيز سيارة حكومية لنقلهم إلى المطعم، بيد أن شمس الدين قاطعه قائلا بأن المسافة مشيا لا تتعدى عشر دقائق وأنه يفضل المشي ولا يريد أحداث ضجة لا داعي لها، ثم أن الموظف الحكومي، مهما كانت منزلته يجب أن يختلط بالناس ويمشي بينهم، حيث تزداد شعبيته ويحترمه الناس. رحب السيد كمال بالفكرة ووجدها فرصة جيدة لحركة الجسم والتخلص من الرسميات والاطلاع مباشرة على أحوال الناس وكيف يتصرفون في الأسواق، وكيف تكون ردود فعلهم حين يشاهدون مسئولا كبيرا يمشي في السوق

بلا حماية. وراح كمال يترجم أفكاره إلى أقوال، كي يسمعها صديقه شمس الدين الذي يبدو له أنه إقطاعي شعبي يختلف عن الإقطاعيين الأرستقراطيين الذين يتعالون على بني جلدتهم. أيده شمس الدين إلى حد ما ولكنه حذره من المبالغة في التواضع والشعبية، ذلك أن هناك ناساً همج، يمكن أن يستغلوها ويسيئوا فهمها واستعمالها. هناك من تحترمه، فيعتقد أنك تخاف منه. واتفقا على أن الناس أنواع، لذلك ينبغي أن يكون التعامل معهم متباينا وليس على نمط واحد والحر تكفيه الإشارة. قال السيد كمال وهو يقوم من مكانه:

" المهم إننا نفهم بعضنا بعضاً"

قال شمس الدين، يقوم هو الآخر:

" بارك الله فيك. وسنظل نفهم بعضنا من الآن وإلى الأبد"

عندما بلغوا مركز المدينة، بدت لهم حركة غير طبيعية وحشد من الناس وهم يسيرون في مظاهرة ويهتفون بسقوط ولاية بطيخ والمعاهدة الإنكليزية والموت للإقطاع وعاشت الشعبية وعاش الاستقلال. علق شمس الدين وهو يراقب الحشد بقلق:

" يبدو أن الحابل قد اختلط بالنابل، لنبتعد عن هذا المكان يا أستاذ كمال"

قال كمال، دون أن يبدي أي أثر للقلق:

" لا داعي للخوف، إن رشاشات ماء الإطفائية بانتظارهم قرب مركز الشرطة، وما أن توجه إليهم خراطيم الماء، إلا وتظهر الشرطة،فيذهب كل واحد منهم إما إلى شأنه أو إلى الموقف، طبعا بعد أن ينال علقه محترمة. وأما إذا تمادوا في غيهم وبالغوا في تطاولهم على حرمة الدولة، فتطلق عليهم النار"

أراد شمس الدين أن يعلق على كلامه ويستنكره ويدافع عن المتظاهرين وشعاراتهم التي أعجبته وألهبت حماسه، بيد أنه فكر مليا وآثر الصمت على الكلام الذي قد ينسف مشاريعه وهي في المهد.

تساءل بفضول وخشية:

" وماذا سيكون مصير الموقوفين؟"

" الله يعلم كم من الزمن يبقون في التحقيق. اشهر، سنوات.."

قال بصورة عفوية:

" حقا أنها ولاية بطيخ"

قال كمال باستغراب:

" وهل اكتشفت هذه الحقيقة الآن؟ هيا لنبتعد عن المكان قبل أن نتورط بتهمة المشاركة فيها"

وتلاشوا في زقاق جانبي، يؤدي بهم هو الآخر إلى هدفهم. هذا هو المطعم السوري أمامهم. قال السيد كمال أن الاختيار موفق، إذ أنه سبق أن تناول هنا وجبة كباب شهية. كان صاحب المطعم سالم الجربوع ينتظرهم أمام الباب مع شرف الدين. وراح يرحب بهم ويغالي في ترحيبه حتى أنه قبل كتفي شمس الدين،الأمر الذي أذهل السيد كمال الذي راح يصدق بأنه إنما يتصادق فعلا مع إقطاعي كبير. وقادهم سالم الجربوع إلى الركن المخصص لهم وهو يتباهى بضيوفه الكبار أمام زبائنه الذين ركزوا عيونهم على العباءات الغالية التي ترافقها البدلة الرسمية لكبير الشرطة. وأقروا في قرارة نفوسهم أن المكان آمن وسلامتهم مضمونه من سطو العصابات المفاجئ في رابعة النهار. وهذا هو السر في الازدحام الذي يتصف به هذا المطعم.

وقبل أن يجلب الخدم المقبلات وأقراص الخبز الحار، حضر السيد أنور الذي يتميز وجهه بالبشاشة والحبور وراح يعانقهم جميعا كما لو

أنهم أصدقاء قدماء واتخذ مكانه جنب شمس الدين. وراح السيد كمال يلعب دوره في التعريف:

" استاذ انور مدير الطابو العام صديقي المخلص وهذا هو أخي وصديقي الشيخ إبراهيم، شيخ مشايخ البو رايات"

ثم التفت إلى كل من شرف الدين وخير الدين، وقدمهما كمستشارين. وأشر عليهما شمس الدين، بعد أن ظلا واقفين، أن يتخذا مكانيهما على الكرسيين المنتصبين بينه وبين كمال. أراد شمس الدين أن يطلب، بالإضافة إلى الكباب، تمن على قوزي، بيد أن الضيفين اكتفيا بوجبة دسمة من الكباب.

كان السيد انور، او انور افندي او الأستاذ انور، لا يهمه الألقاب بقدر ما يهمه الشخص الذي يناديه باللقب المعين، فله خبرة عجيبة في معرفة شخصية الإنسان الذي يستعمل أو يوجد له لقبا معينا، وغايته من استعمال اللقب، فالذين ينادونه بلقب افندي هم من المراجعين العاديين الذين لا خير من ورائهم فهم عادة من الذين يملكون معاملات الطابو البيضاء المتبقية من الزمن العثماني التي يجب أن تبدل بوثيقة الطابو السوداء. هذه مسألة يجب ترويجها، سواء شاء مدير الطابو أم ابى. إلا انه يمكنه انتزاع رشوة من الذين يريدون أن تتم المعاملة بسرعة ولا سيما إذا كان صاحب المعاملة رجلا ثريا أو يهوديا له عقارات واسعة يريد بيعها بسرعة. أما لقب السيد او الأستاذ فيستعملهما الموظفون وزملاء العمل الذين لا مصلحة لهم فيما يسمى بالطابو، ذلك أنهم لا يملكون شبرا من الأرض. وأما اللقب المفضل الذي يدر عليه الهدايا السخية والمال، هو لقب بك، فالذي يستعمل معه هذا اللقب، فإنه لا شك ثري يريد أن يشتري الأرض. وراح ينتظر على أحر من الجمر هذه الإشارة التي لا يعرفها حتى صديقه السيد كمال.

رائحة الكباب المشوي التي بلغت ركنهم قد فتحت شهيتهم وهيجت أمعاءهم. هم المعتادون على الأكلات الشهية الجيدة. وعندما جلب النادل شرائح الكباب المغطاة بأقراص الخبز الحار، لم يتمكنوا من الصبر، بحجة أن التأخير في تناول الكباب سيؤدي إلى تعرضه للبرد القادم من المبردة. وأطبق عليهم السكون الذي تتطلبه، ليس آداب المائدة فحسب، بل أفاعي الجوع التي حركتها الرائحة النفاذة للكباب الذي يشتهر به هذا المطعم فقط. هذا المطعم الذي يفترض أن يرى لقاءاتهم المقبلة والمتكررة. وفكر شمس الدين اكثر من مرة، بأن الطريق إلى تحقيق ولاية بطيخ الجديدة، التي يحمل مفتاحها في جيبه، لابد سيمر من هنا. وعندما انتهوا من تناول طعامهم وقبل أن تأتي أقداح الشاي، اقترب منه شمس الدين، قائلا بأدب:

" انور بك، أنا سعيد جدا وفخور بالتعارف بكم"

تنفس أنور الصعداء:

" وأنا رأيت فيكم أخا عزيزا يا إبراهيم بك"

تفاهما بينهما حول الموضوع، دون أن يتطرقا إليه بشكل مباشر. وفهم منه شمس الدين أنه لا يريد أن يتحدث إليه بشأن العقارات والأملاك الأميرية، التي فاتحه بها، أمام السيد كمال، ولذلك اقترح عليه أن يزوره في الدائرة، كي يطلعه على الخرائط التي تحتوي على الأراضي الزراعية والأميرية والمشاعة إلى جانب الأراضي المعدة للبناء. وعندما قام السيد كمال من مكانه متوجها إلى التواليت، قال أنور بك هامسا في أذن شمس الدين وهو يؤشر بيده إليه:

" لا أريد أن يطلع هذا على ما يدور بيننا من كلام"

أعطاه رقم تلفونه واقترح عليه أن يزوره في الدائرة في أسرع وقت ممكن، ذلك أن هناك عرصات واسعة معروضة للبيع بأسعار مغرية. وأكد

عليه أنه لا يريد أن يعرف السيد كمال أي شيء عن هذا الموضوع. ارتاح شمس الدين للراي ووجد أن العمل، في مثل هذه الأمور، مع شخص واحد، أحسن بكثير من العمل مع شخصين. واقر في داخله أن أنور بك أذكى منه في هذا المجال. وتبين له من ملامح وجهه التي أظهرت الاشمئزاز، أن له تجربة سيئة مع كمال. وتوصل شمس الدين في ذهنه إلى استنتاج مرده المنافسات والصراعات الموجودة بين الموظفين، لذلك عليه أن يعرف جيدا كيف يستغل هذا الضعف لصالح زمرته. حين انتهوا من شرب الوجبة الثانية من الشاي، نظر كل من السيد كمال وأنور بك إلى ساعتهما وهما، في الوقت الذي يشكران شمس الدين على هذا الكرم الحاتمي، يعتذران منه لعدم تمكنهما من البقاء معه فترة أطول بسبب ضرورة اللحاق بالدوام. علق شمس الدين وهو يودعهما ويرافقهما مع كل من خير الدين وشرف الدين إلى الباب الرئيسي للمطعم:

" الواجب هو الواجب والدولة فوق الجميع"

ثم عادوا إلى مكانهم الأول وهم يتبادلون النظرات بزهو وانتصار. اتخذوا أماكنهم بصمت ووقار مصطنع يصاحبهم صمت مطبق، خرقه شرف الدين باقتراح طلب وجبة شاي ثم ما لبث أن اشر إلى النادل الذي افهمه بحركة من يده بما يريد. وكان أن جلب صاحب المطعم سالم الجربوع الشاي بنفسه، قال وهو ينحني احتراما:

" إن شاء الله مرتاحين يا محفوظ السلامة"

أجاب شمس الدين وهو يؤشر إليه بالجلوس:

" كل الراحة يا أخي سالم الجربوع"

تردد سالم وظل واقفا وهو يقول:

" استغفر الله يا محفوظ السلامة، كيف أجلس في مكان كان يشغله قبل دقائق رئيس الشرطة ومدير الطابو"

قال شمس الدين بلهجة آمرة:

" اجلس يا سالم الجربوع، هؤلاء نحركهم بإصبع واحدة لا اكثر، خراك عليهم. كلمني عن الشغل، كيف تمشي الأمور؟"

اتخذ سالم مكانه على الكرسي مثل صبي مؤدب، واضعا يديه على ركبتيه في صورة متشنجة وهو يقول:

" قدومكم يا محفوظ السلامة جلب البركة للمطعم. منذ اليوم الذي دخلتم هنا، يتهافت الزبائن إلينا باستمرار، حتى إننا اضطررنا، كما ترون، لجلب كراسي ومناضد جديدة، كي نستوعب كل الزبائن الجدد"

قال شمس الدين بكبرياء:

" وهل عرفت سبب هذا الإقبال على مطعمك"

أجاب سالم دون تفكير:

" السبب انتم يا محفوظ السلامة. الناس يعرفون بأنكم حامي المطعم. إنهم بحاجة إلى الأمن والطمانينة"

قال شمس الدين بلهجته الآمرة الأولى، ولكن بنكهة فيها طيبة:

" انظر يا سالم الجربوع، انا ابن عشيرة، ولا شك انت الآخر ابن عشيرة، انا انظر إليك مثل اخي. إذا عندك طلب أو مشكلة مع أي جهة، فأنا مستعد لمساعدتك. كل ما في الأمر هو أن تفاتحني بطلبك"

قام سالم الجربوع من مكانه وقبل شمس الدين من كتفيه، وهو يقول:

" الحمد لله الذي ارسلك إلي يا محفوظ السلامة، انا سأظل خادمك المطيع. لي رجاء واحد فقط لا يمكن أن يحققه سوى صديقك مدير الطابو. وأنا مستعد أن ادفع له كل ما يريده"

تنفس شمس الدين الصعداء، إذ انه احس بأنه قد اصاب كبد الموضوع. وانتظر هنيهة أن يكمل سالم كلامه، بيد أن هذا توقف عن

الكلام، كأنه ينتظر إجابة، فبادر شمس الدين قائلا انه سيلتقي قريبا بمدير الطابو وعليه أن يشرح له طلبه كي يعقب له معاملته. وتبين من كلام سالم انه يحتاج إلى قطعة أرض للبناء صغيرة. ولما أراد سالم أن يدفع له المبلغ سلفا، رفض شمس الدين رفضا قاطعا، مؤكدا أن المبلغ لا يمكن أن يدفع إلا بعد استملاك الأرض والحصول على الطابو الأسود، ثم سأله عن المنطقة التي يريد أن يبني فيها بيته المنتظر. أجاب سالم أن المنطقة لاتهمه، بقدر ما يهمه أن تكون قطعة الأرض في العاصمة. علق شمس الدين أن البيت يجب أن يكون قريبا من مطعمه. هذه أمنية يا محفوظ السلامة، قال سالم ذلك وهو يقبل يد شمس الدين.

حين أمر شمس الدين شرف الدين بدفع الحساب، أقسم سالم الجربوع بطلاقه وبكل مقدساته انه لن يستلم منهم فلسا واحدا قائلا، أن ضيوفا مثله ومثل كبير الشرطة ومدير الطابو، لا يشرفون مطعمه فحسب، بل يرفعون من هيبته وصيته أمام الزبائن والناس العاديين. إجابةً على هذا التعليق الذي ارتاح له شمس الدين، عانقه بقوة قائلا له انه منذ الآن فصاعدا يعتبره أخا وصديقا ثم قرب فمه من اذنه كأنه لا يريد أن يسمعه أحد:

" إذا كنت تحتاج إلى أراضي أخرى، فيمكنني تدبيرها. انا اخوك"

أجاب سالم الجربوع فرحا:

" هذه أمنية العمر يا محفوظ السلامة. الحمد لله ، الفلوس موجودة"

قال شمس الدين منصرفا بتباه:

" سنتحدث في الموضوع بالتفصيل في لقاء قريب"

(١٣)

عندما أصبحوا خارج المطعم، راحوا يتبادلون النظرات فيما بينهم بصمت وفرح وغبطة وسرور وانشراح. وكل واحد منهم يفكر في داخله بطريقته الخاصة ويحمد ربه على النجاح الذي حالفهم حتى هذه اللحظة، دون أن ينكشف أمرهم. وأدى بهم الأمر إلى أن يفكروا بجد، كل الجد، في قوة خارقة تقف إلى جانبهم وتحميهم. وتساءل كل واحد منهم في نفسه على طريقته الخاصة عن روح هذه القوة الخارقة وماهيتها؟ هل هي روح المزار الذي سكنوه؟ هل هي سحر المقبرة؟ هل هي سحر الملائكة التي تحرس آلاف الأرواح الساكنة في سمائها؟ أم هي سحر جنية عزيزة التي تقود جيشا من السعالي والطناطل؟ أم أن السر يكمن في طريقة شمس الدين الشجاعة في إدارة الأمور؟ ربما أنه خرج فعلا من القبر، كما قال عنه ذات يوم أحد أفراد الشرطة الذي أقسم اليمين بأنه رآه بأم عينيه، حين كان يطارده، بأنه قد اختفى في قبر، فاضطر إذ ذاك أن يتركه وشأنه. قطع عليهم تفكيرهم وشرودهم، متسول معوق طاعن في السن وهو يستجدي الإحسان. التفت شمس الدين إلى خير الدين وأشار إليه بحركة من يده أن يضع في يده شيئا من المال. قام بحركته وكأنه لا يريد أن يخرج من شروده. قال خير الدين أن أصغر عملة عنده هي فئة

الدينار الواحد الذي هو كثير جدا على متسول. أجابه شمس الدين بنبرة نائم:

" أعطيه دينارا، الا تراه يستحقه؟"

تناول الشحاذ المبلغ بلهفة وهرع إلى شمس الدين يقبله من كتفه وهو يقول:

" الله يجازيك يا محفوظ السلامة، الله يجازيك ويوفقك طول العمر"

نظر شمس الدين في ساعته، قائلا بعد تفكير قصير:

" هيا لنذهب إلى الخياط أيوب"

كان القيظ لا يزال في شدته، رغم ميلان الشمس الوهاجة إلى الغروب. قطعوا الزحام بصمت وهدوء وهم يعودون إلى شرودهم الذي قطعه عليهم المتسول الطاعن في السن. شعر خير الدين كما لو أنهم يسيرون على الصراط المستقيم الذي راح يتحول من حبل غليظ إلى خيط رفيع اشبه بشعرة وانهم يتلوون في مشيتهم وتدور بهم الأرض كي تقذف بهم لا محالة في أعماق واد لا قرار له. وانهم سيقعون في هذه الداهية إن عاجلا أم آجلا. شرف الدين كان يفكر في شئ آخر هو خوفه من ان يتركهم شمس الدين ويذهب مع عزيزة إلى مكان مجهول وينصرف خير الدين هو الآخر إلى شأنه، فيبقى هو وحده يواجه مصيره دون سند من احد ويضطر للعودة للسكن في المقبرة، إذ انه لا يمكنه القيام بأي شيء دون صديقيه الحميمين اللذين يعتبر نفسه ظلهما، ولا سيما شمس الدين. ولذلك عليه ان يلتصق بأذيال شمس الدين الذي يستمد قوته من قوة جنية عزيزة. وأما شمس الدين، الذي فرض نفسه عن حق على جماعته منذ اليوم الأول من قرارهم، فيفكر بشكل آخر، يختلف كل الاختلاف عن افكار كل من صديقيه خير الدين وشرف الدين. وهو يعرف محتوى افكارهما حق المعرفة. إنه قبل كل شيء يستمد قوته من تبعيتهما له بشكل أعمى

ومطلق. وهو يعرف انه بحاجة إليهما وانه لا يتمكن من أن يخطو خطوة واحدة بدونهما. ربما أنهما في نظره لا يعرفان هذه الحقيقة، ولكنهما في الحقيقة التي يقرها هو، يحتاجان إليه أيضا. وهو لا يريد أن يقول بأنهما يحتاجانه، اكثر مما هو بحاجة إليهما. إنه يعرف انهما بحاجة إليه وهو بحاجة إليهما. وهذه الخبرة التي توصل إليها، ليست بنت اليوم، بل أنها ترجع إلى سنوات طويلة أمضوها مع بعضهم بعضاً. وفي خضم عوادي الزمن والأحداث المتعاقبة، تبين لهم ثلاثتهم انهم يكملون بعضهم بعضاً. وقد سبق لهم أن سمعوا من اكثر من شخص واحد واكثر من مرة بأنهم، ثلاثة اعجاز في لباس واحد. ويعرف هو شيئا آخر، توصلوا إليه في لقائهم الأخير في المقبرة، وهو سر عدم توصلهم، في الفترة الماضية، إلى ما توصلوا إليه في الأيام الثلاثة الماضية، والذي يكمن في عدم وجود راس يوجههم بالشكل المطلوب. وهكذا تمكن أن يفرض نفسه عليهما وينتزع منهما اعترافا اختياريا بذلك. ويعرف جيدا أنهما باعترافهما الاختياري، قد فرضا نفسيهما عليه هو الآخر. إنهم ثلاثة أجزاء من كل واحد لا يمكن أن يتجزأ. الواحد للكل والكل للواحد. إذاً أي انفطار أو شرخ في هذه الوحدة، سيؤدي إلى الإخفاق. وإنه يجب أن يلعب دوره الحاسم في الحيلولة دون هذا الإخفاق الذي لا شك، لا يؤدي بهما إلى السكن من جديد في المقبرة فحسب، بل إلى الموت المحقق. ولكل هذا وجد أنه خلق من أجل إتمام مهمة أو رسالة، لا يمكن أن يحققها غيره. وأن هناك قوة غيبية فوق طاقة البشر، تساعده لإنجاز هذا الواجب. المهم هو إنجاز الواجب، سواء بالسرقة والسطو أم القفز فوق الجثث أو النصب والاحتيال أو عن طريق عاهرة أو بوساطة جنية تأتي بالمعجزات. كل شيء يهون من أجل إنجاز المهمة المقدسة. مهمة الإطاحة بولاية بطيخ والإتيان بولاية بطيخ جديدة. إنه يؤمن بعبقريته

التي لا حدود لها ويؤمن بالقوة الخارقة والغيبية التي تقف إلى جانبه. إنه يؤمن بالنجاح. وهو متأكد انه ما أن يمد يده إلى شيء، إلا ويتطاير الخير من جوانبه. عليه أن لا يتوقف عن العمل. وأن أي توقف يؤدي إلى الإخفاق ونسيان التجربة المكتسبة والبطء في الحركة. إذا ينبغي التحرك إلى درجة الطيش. يجب عليك ان تكتسح الأحداث، قبل أن تكتسحك الأحداث. عليك أن تؤمن بكل جوارحك بأن قوة غيبية خارقة تقف وراءك وتحميك. ما عليك إلا أن تفكر بهذه القوة التي يمكنك ان تفصل بها رأس من تشاء من جسده أو سمل عينيه أو صب الرصاص المصهور في حلقه. انت تفعل كل ذلك براحة ضمير، ذلك انك تؤدي واجبك لتحقيق الرسالة التي كلفت من أجل تحقيقها. وعليك في كل الأحوال الاحتفاظ بهدوئك ورباطة جأشك. وينبغي عليك أن لا تفكر بمصيرك ولا تهاب الموت. إذ أن الموت سيأتيك ذات يوم، إن آجلا أم عاجلا. وكلما توغلت في فرض الموت على الآخرين، كلما ابتعد عنك الموت. الموت، الموت، الموت. ما أتعسه من كلمة، لا يهابها إلا الجبناء ولذلك لا يقع في فخها السريع، سوى الجبناء الذين لا يعرفون بأن الموت ليس سوى الغفوة الأخيرة في سلسلة النوم الطويل، الذي لا يريدون الاستيقاظ من سلطانه المخدر اللذيذ في أحيان كثيرة.

إنه إذاً، الشيخ شمس الدين آل ألبو رايات، العبقري الذي لا يصد له أمر، ينحني أمامه الفقير والغني. وتطبع القبلات على كتفيه ويديه، دون أن يتمنى ذلك، بل ودون أن يحلم بذلك في حياته. سواء أكان ذلك في حياته الماضية أم المقبلة. إن القبلات تمطر عليه كما تمطر السماء مطرا مدرارا على الأرض القاحلة. لابد هناك قوة سحرية غيبية خارقة تقف وراء ظهره، تحميه وتمده بالقوة والسطوة والجبروت.

ها هي الواجهة الزجاجية لمحل خياطة أيوب وقد ازدانت بمختلف الصور لرجال أنيقين بمواقف مختلفة وهم يرتدون البدلات الأوروبية. وقفوا أمام الواجهة، يعاينون الصور، وكل واحد منهم يتصور نفسه واحدا من هؤلاء. لم لا؟ ألم يرتدوا البنطلونات والقمصان قبل اضطرارهم لارتداء الملابس العربية، التي لا زالوا يجدونها غريبة عليهم، ناهيك أنها تعرقل الحركة السريعة التي يحتاجونها بحكم عملهم؟ قطع شمس الدين الصمت وكأنه قرأ أفكارهم:

" هيبة، والله هيبة، ولكن أيهما أكثر هيبة، لباسنا العربي أم البدلة الأوروبية؟"

أجاب خير الدين فورا:

" هل نسيتم؟ إننا سبق واتفقنا على الجمع بين الاثنتين"

قال شرف الدين بشيء من التذمر:

" لم ننس هذا الكلام يا مولاي، ولكننا لم ندفع بعد ثمن الملابس التي نرتديها، وتريدنا الآن أن نشتري ثلاث بدلات أوروبية جديدة؟"

تدخل شمس الدين محاولا تهدئتهما وهو يقول إنه أراد أن يعرف أيهما أكثر هيبة فقط ليس أكثر. وإذا دبرنا المبلغ المطلوب، فيمكن أن نفكر ليس في شراء البدلات الأوروبية فحسب، بل سيارة أوروبية أيضا، إذ أن لقب يا محفوظ السلامة بدون سيارة فخمة مجرد هراء وضحك على الذقون. ودخلوا المحل. استقبلهم الخياط أيوب بالعناق وفسح لهم الطريق لاتخاذ أماكنهم في الركن الخاص به وأوصى أحد عماله بإحضار أربعة أقداح شاي. سأل أيوب إذا ما كانوا مرتاحين بملابسهم العربية الجديدة؟ أجاب شمس الدين بأنهم منذ اليوم الذي ارتدوا فيه هذه الملابس، يمطر عليهم الخير والبركة. وحين أراد أن يسأله عن تكاليف الملابس، طلب منه أيوب أن يؤجل الحديث في هذا الموضوع إلى إشعار

آخر. قال شمس الدين إن الدين هو دين الله يجب أن يسدد ثم انه يريد ان يشتري منه بضاعة جديدة. قال أيوب إن البدلات الاوروبية اكثر هيبة في الدوائر الحكومية وتتماشى مع روح العصر. قال شمس الدين كما لو انه تذكر شيئا:

" على ذكر الدوائر الحكومية، تذكرت مسألة ربما تهمك. وعندما طرح عليّ الموضوع تذكرتك فورا. إنها فرصة ثمينة يجب أن لا تفوتك يا اخي ايوب. وبالمناسبة جئنا إليك هذا اليوم بسرعة لهذا السبب"

تحولت اذنا أيوب إلى لاقطتين هوائيتين تنتظران المفاجأة وهو يقول:

" إن شاء الله بيها الخير"

قال شمس الدين بكبرياء:

" كل الخير يا صديقي ايوب. هناك اراضي حكومية للبيع بأسعار مغرية، زراعية على النهر مباشرة وقطع للبناء داخل حدود بلدية العاصمة. عليك أن تقرر بسرعة لأن الطلب كبير"

قفز أيوب في مكانه فرحا وهو يقول:

" الأرض، الأرض، ابحث عنها بلهفة. هذه النقود التي تحت أيدينا لا قيمة لها. الأرض والذهب هما المال الأصيل"

أراد أيوب أن يدخل في تفاصيل الموضوع، بيد أن شمس الدين طمأنه بأنه سيحصل على حصته التي يريدها حتما وأما التفاصيل الأخرى فسيدخلانها في زيارته القريبة له وانه يريد ان يتكلم معه في بعض الأمور الأخرى التي تتطلب الثقة التي هو جدير بها. قال أيوب وهو يضرب صدره بيده:

" انا اخوك في الملمات والمسرات. يمكنك الاعتماد عليّ في كل شيء، يكفي أن السجن هو الذي جمعنا ووطد صداقتنا"

وقبل أن يتركوا المحل، أخذ أيوب قياساتهم بدقة وعناية وأراهم مجموعة من الألوان، فاختاروا قماشا أزرق داكنا مقلما بخطوط بيضاء. كما وخيرهم فيما إذا كانوا يريدون الاحتفاظ بالملابس العربية أم إعادتها إليه. قال شمس الدين أنهم سيفكرون في هذا الأمر فيما بعد.

عندما أصبحوا في الشارع، وقفوا هنيهة على الرصيف وهم يلتفتون يمنة ويسرة وكأنهم يبحثون عن اتجاه معين كي يسلكوه. سأل شمس الدين بلهجة حائرة:

" ماذا قررتما؟"

قالا بصوت واحد:

" القرار بيدك أنت يا محفوظ السلامة"

قال شمس الدين بأمر:

" والآن، بدون محفوظ السلامة، أعيد إليكما القرار، وقررا ما نفعله"

قال شرف الدين، نرجع إلى البيت، لأن باجي في انتظارنا.

قال خير الدين، أعتقد إننا يجب أن نمر على دنخة. علق شمس الدين، مؤيدا الرأي الأخير:

" الواجب هو الواجب، وأما باجي فعليها الانتظار في البيت"

خفت موجة الحر، إذ أن الشمس غابت وراء الأفق المطرز ببساتين النخيل الغارقة في خليط من الألوان الزرقاء والبنفسجية والبرتقالية. وارتفع نسيم منعش من النهر. قال شمس الدين متأملا:

" إننا يجب أن لا ننسى في حياتنا ثلاثة أشياء أبدا، المقبرة، دنخة وأيوب الخياط"

علق شرف الدين بصورة لا إرادية:

" وباجي؟ هل تنساها يا محفوظ السلامة؟"

" كلا يا محفوظ السلامة، عزيزة هي القمة وهؤلاء هم السفوح. بدون السفوح لا يمكنك الوصول إلى القمة، مفهوم؟"

هز شرف الدين رأسا موافقا وهو يقول:

" لا يمكنني التغلب عليك يا محفوظ السلامة"

بلغوا محل دنخة الذي استقبلهم بترحاب صادق وعناق حار وقادهم إلى غرفة صغيرة وهو يكرر: شرفتمونا، شرفتمونا. قال شمس الدين أنهم على استعجال وعليهم قضاء بعض الأشغال، لذلك لا يمكنهم البقاء عنده طويلا. إنهم فقط يريدون معرفة إذا ما كان بحاجة إلى شيء. أبى دنخة إلا أن يجلسوا قليلا وأن يشربوا عنده قليلا أيضا، فهو لن يدعهم ينصرفون إلا بعد أن يأخذوا عنده قسطا من الراحة. دون أن يسألهم جلب قناني البيرة المثلجة وقنينة ويسكي بلاك أند وايت مع قارورة تحتوي على مكعبات الثلج. قال شمس الدين وقد صدمته المفاجأة:

" دنخة حبيبي، هل تريد أن تغرقنا بالمشروبات؟"

" نحن أصدقاء وإخوان يا محفوظ السلامة. الله يعلم كم كنت أشتاق إليكم"

كان دنخة واقفا. سحب شمس الدين كرسيا وطلب منه أن يجلس إلى جانبه. بعد الرشفة الثانية من الويسكي المثلج، وضع شمس الدين ساعده على عنق دنخة وهو يقول:

" هل تدري لماذا جئت إليك اليوم يا أخي دنخة؟ هناك أراضي حكومية تبيعها الدولة بأسعار مغرية، فإذا كنت بحاجة إلى أرض للبناء أو للزراعة، قل لي كي أحجز لك حصتك"

قال دنخة باستغراب وهو لا يصدق أذنيه:

" ارض؟ لي انا؟ انا احلم بالأرض، ولكن كمسيحي لا يحق لي شراء الأرض ولا يمكن تسجيل الطابو باسمي. سأدفع انا ضعف المبلغ المستحق، إذا دبرت لي الأمر"

قال شمس الدين بكبرياء، ومفعول خدر المشروب بدا يسري في كيانه:

" من قال لك هذا الكلام الأهوج؟ يا اخي دنخة، ستأخذ الأرض من شواربي هذه وسأتحول انا إلى ارض لك"

بدا السكر على دنخة هو الآخر وراح يقبله من كتفيه. ويكلمه عن حلمه في بناء بيت لأسرته التي تعيش في شقة صغيرة بالإيجار. اراد أن يترك مكانه ويجلب مبلغا من المال ويدفعه إلى شمس الدين كعربون لتأمين شراء الأرض. اعاده شمس الدين إلى مقعده وهو يقول: الدفع يتم عندما تستلم الأرض يا حبيبي دنخة. كل شيء في وقته. العجلة من الشيطان والصبر من الرحمن.

واتخذوا طريقهم إلى البيت وهم سكارى.

(١٤)

بعد المباشرة بالدوام في الثانويات الثلاث وبعد أن تسلم الشبان الثلاثة رواتبهم في نهاية الشهر، قرروا أن يزوروا خالهم شمس الدين في يوم الجمعة القادم للاستفسار عن صحته وإطلاعه على وضعهم أيضا. واتفقوا فيما بينهم على أن يسلموه رواتبهم كاملة ليتصرف بها كما يشاء، إذ انهم لا يحتاجون مصاريف الأكل والشرب والتنقل بالباص. كل ما يحتاجونه هو بضعة دراهم لقطع تذاكر الدخول للسينما. وأما كيف يتصرف برواتبهم، فمسألة ينبغي عليه هو أن يقررها بنفسه. وهو في كل الأحوال، عندما زار بيتهم في محلة مربي الجواميس وأوجد لهم ثلاثتهم مقاعد الدراسة والسكن في القسم الداخلي، جعل من نفسه باعتراف أولياء أمورهم الرأس المدبر للعائلة. واتفقوا فيما بينهم أن يوصلوه الخبر المهم والسري الذي أبلغهم به مسئولهم الذي يلتقي بهم بصورة سرية في قهوة شعبية قريبة من القسم الداخلي الذي يسكنون فيه. كما اتفقوا فيما بينهم على أن يكون محيسن، أكبرهم سنا، المتحدث باسمهم وحامل الظروف الثلاثة المحتوية على رواتبهم. ولما كانت

المقهى في ذلك اليوم مكتظة بالزبائن، لذا طلب منهم مسئولهم أبو راغب أن يتمشوا بعض الشيء ويتمتعوا بشم الهواء النقي. وفي الطريق سلم لكل واحد منهم مظروفا، قائلا انه بالإضافة إلى احتواء المظروف على الراتب، يحتوي على صورة لشخص مجهول يجري البحث عنه لأسباب يجهلها حتى هو، يمكن عرضها على المقربين منهم بصورة سرية والاستفسار إذا ما كانوا يعرفونه أو يعرفون شيئا عنه وأنه سيعطيهم في وقت لاحق معلومات أخرى بهذا الشأن. وأكد عليهم اكثر من مرة بأن صيغة السؤال يجب أن لا تتجاوز عبارة: هل تعرف هذا الشخص؟ فإذا أجاب المستفسر عنه بنعم، فيجب إيصال اسمه الكامل وعنوانه إليه في أسرع وقت ممكن.

بعد تناول طعام الغداء في القسم الداخلي توجهوا إلى منزل خالهم شمس الدين. رحب بهم هذا في بيته ترحيبا حارا وحين طلب إحضار الغداء، قال محيسن أنهم تغدوا في القسم الداخلي وجاءوا كي يستفسروا عن صحته ويشربوا عنده الشاي. علم شمس الدين بفطرته أن هناك شيئا يريدون طرحه عليه، ولذلك أشار بحركة من عينه إلى كل من شرف الدين وخير الدين أن يتركاه معهم، فانصرفا إلى غرفة خير الدين. بعد أن ق[illegible]ه، شكره محيسن وقال أنهم بفضله يعيشون في بحبوحة ثم مد يده إلى جيبه وأخرج الظروف الثلاثة مادا إياها له وقائلا إنهم لا يحتاجون منها سوى دريهمات للسينما ويخشى أن يفقدوها أو تسرق منهم في القسم الداخلي. شكرهم شمس الدين على هذا الموقف ونصحهم أن يقدموا المبلغ إلى أولياء أمورهم الذين يعيلون عوائل كبيرة، إذ أنه هو نفسه حائر من التصرف بالمبالغ الطائلة الموجودة لديه. ولما أكد له محيسن بعدم تمكن أهلهم من التصرف بالفلوس وأنه سوف ينفقونها على الولائم الفارغة ولما كان وضع المبلغ في البنك غير مسموح به، لذا

يرجو أن يحتفظ بها عنده ويقدم جزءا منها لأهلهم على أن لا يبالغ في العطاء. وافق شمس الدين أن يحتفظ بالمبلغ عنده. وعندما انتهوا من حل هذه المشكلة، فاتحه محيسن بموضوع الصورة التي أخرجها من جيبه واضعا إياها على المنضدة. دقق شمس الدين النظر في الصورة دون أن يعرفها. في هذه اللحظة جلب شرف الدين أدوات الشاي. وحين هم بالانصراف، طلب منه شمس الدين أن ينظر في الصورة، على أن يكون جوابه: نعم أو لا. ما أن ألقى شرف الدين نظرة على الصورة، إلا وهز رأسه بالإيجاب ثم انصرف. نبههم شمس الدين بضرورة عدم التحدث مع مسئولهم عما جرى هنا. وحين اقترح على خاله شمس الدين الاحتفاظ بنسخة من الصور الثلاث عنده للاستفادة منها، انتقده هذا بشدة قائلا:

" انظر يا بني يا محيسن، أنتم تعملون مع أخطر دائرة في الدولة. قد تكون مسألة هذه الصورة التي يحمل كل واحد منكم نسخة منها، مجرد لعبة. قد يأتيك مسئولكم في منتصف الليل ويطلب منكم إعادة الصور إليه، فهل يصح لك أن تقول له بأنك نسيتها عند خالك؟ وهل تدري ماذا سيحصل لك؟ إنهم لا يكتفون بطردك، بل ستتخذ طريقك إلى الحبس وتجري معك أنواع التحقيقات التي يكسرون فيها ضلوعك"

قال محيسن بلهجة ندم:

" بارك الله فيك يا خالي، نعم الخال نحن ما زلنا صبيان نحتاج إلى نصائحك"

عرض شمس الدين الصورة على خير الدين، وكان جوابه نفي معرفة صاحبها. بعد الانتهاء من شرب الشاي، طلب إليهم شمس الدين أن يرافقوه إلى عزيزة كي يسلموا عليها أيضا. في الطريق نصحهم أن يكونوا مستقيمين في كتابة تقاريرهم ولا يعتمدوا على الأكاذيب والافتراءات

والأحقاد الشخصية وليعلموا أنه لا صداقات ولا عداوات في مهنتهم، إنهم مجرد أدوات مثل أعمدة وأسلاك التلفون التي تنقل الكلام بأمانة:

" اقبضوا فلوسكم واضمنوا مستقبلكم ودعوا نارهم تأكل حطبهم. إنها ولاية بطيخ لا أكثر ولا أقل"

بعد أن جرى تبادل كلمات الترحيب بين الشبان الثلاثة وعزيزة اختلى شمس الدين بالأخيرة تاركا إياهم في غرفة الضيوف. حين أصبحا في غرفتها، أخرج شمس الدين الصورة وأراها لها مستفسرا إذا ما سبق لها أن رأت صاحب الصورة. امتقع وجه عزيزة وأطلقت شهقة عميقة، انحدرت على أثرها دمعة كبيرة سالت على وجنتها اليمنى. مسحتها بيدها وهي تقول:

" هذا صباح"

استفسر شمس الدين بفضول:

" من هو صباح؟"

اجابت وآثار الألم بادية على وجهها:

" إنه الشخص الذي اعترف كمال بقتله، والآن اذهب إلى ضيوفك. سنتحدث في الموضوع فيما بعد بالتفصيل"

سأل بفضول:

" هل أنت متأكدة من كلامك"

قبل أن تجيب، هرعت إلى الدولاب. أخرجت حزمة من الصور وراحت تفرقها بسرعة، باحثة عن صورة معينة. وعندما عثرت عليها، شهرتها بوجهه قائلة:

" هاك قارن بينهما، أليست هذه نفس الصورة؟"

قال شمس الدين كالمأخوذ:

" حقا أنها نفس الصورة"

طلبت منه أن يقلب الصورة كي يرى خط يده. وقرأ الخط الجميل الذي كتب بعناية:

" هديتي إلى حبيبتي عزيزة للذكرى والمودة الأبدية. صباح"

أعادت الصور إلى مكانها بشيء من الاعتزاز وتوجها إلى الضيوف. قبل أن يتخذ شمس الدين مكانه إلى جانب محيسن، أعاد له الصورة منبها إياهم بعدم عرضها على أحد والتأكيد على مسئولهم إن أحدا لا يعرفه"

علق محيسن بأدب:

" نعم يا خالي مثل ما تؤمر"

(١٥)

وصل خبر البحث الجدي عن قاتل صباح عن طريق توزيع صورته بواسطة أجهزة الشرطة والمخابرات إلى سمع كمال، حيث زاره صديقه تحسين، مدير الأمن في غرفته وفاتحه مستغربا من الاهتمام الزائد بالقتيل ونشر صورته على نطاق واسع. وكان هذا يعتقد أن كمال يعرف بالخبر. وحين تساءل كمال عمن يتحدث، عرف أن الخبر لم يصله. وحين حدثه عن الموضوع، امتقع وجه كمال وإنقلبت سحنته، فتصور تحسين أن سبب هذا التغيير هو شعوره بإهمال من قبل الجهات العليا لأغراض شخصية. وراح يواسيه، مؤكدا عليه أن لا يأخذ الموضوع بجد. قلب كمال الموضوع قائلا أنه لن يهتم بالأمر ولن يحقق فيه طالما أن الصورة لم تصله شخصيا ثم اختتم كلامه قائلا:

" طز على الدولة كلها"

وأما في الحقيقة، فانه راح يغلي من الداخل وأحس بلوية معوية أدت به إلى التواليت، حيث خلف هناك إسهالا قويا لازمه طيلة النهار. وبقي وحيدا في غرفته لا يريد استقبال احد وهو يضرب أخماسا بأسداد. صاح على علوان سكرتيره الشخصي وطلب منه أن يمنع دخول اي

إنسان إليه. وحين اختلى بنفسه، راح يفكر في مصيره. وأدت به شبهاته إلى التفكير في شخصين لا ثالث لهما وهما عزيزة وشمس الدين الملقب بالشيخ إبراهيم. لا شك أن الأخبارية صادرة عن أحدهما أو كليهما، ولكن لماذا الأخبارية؟ وحين فكر مليا في الموضوع، توقف عند اسم عزيزة التي لاشك أنها ستنتهز هذه الفرصة للانتقام منه. وهو رغم شكه في شمس الدين، إلا أن عقله يوحي له بأن شمس الدين ليس من النوع الذي ينتقم بمثل هذا الشكل. ثم أنه لا مصلحة له في توريطه وليست ثمة خصومة بينهما، تستدعي الانتقام. هذا بالإضافة إلى أنه سيضر نفسه بنفسه. إذاً الفاعل هو لاشك عزيزة التي كانت تهدده دوما بالانتقام. ترى، ماذا ينبغي عليه أن يصنع؟ إنه يعرف مع من ابتلى. إنه رغم كل شيء كان صديق القتيل وهو لم يخطط لقتله. إنه أطلق عليه النار بطريقة عشوائية منفعلة، والسبب هو الغيرة، فحدث ما حدث وتم تسجيل ما كتبه القدر. إنهم بلا شك سيلقون عليه القبض. ربما سيستدعون شمس الدين كشاهد. وحين تجبره المحكمة على أن يحلف بالقرآن قبل أن يدلي بشهادته، فإنه لا شك سيقول الحقيقة، وإلا فما الداعي أن يكذب بغية حمايته؟ إنه قاب قوسين أو أدنى من الإعدام، لا مفر له. ولاشك أن أبا القتيل الذي هو أحد كبار الإقطاعيين ونائب في مجلس النواب، قد فاتح الباشا بالأمر وطلب منه أن يشرف على العملية بنفسه. والباشا يجب في كل الأحوال أن يرضخ لطلبات هؤلاء الإقطاعيين الذين يشكلون أهم دعامات حكمه. إنه قبل كل شيء يجب أن يهدأ ولا يلقي الاتهامات والخيالات جزافا يمينا وشمالا. إن عليه قبل كل شيء أن يتصل بشمس الدين ويجري معه حوارا هادئا وعتابا قد يؤدي إلى نتيجة طيبة، فالرجل ثعلب ماهر في مثل هذه الأمور. ولماذا يفترض أن يظهر شمس الدين كشاهد في المحكمة؟ كلا، من المستحيل أن يحدث

هذا، إذ انه لا يجوز ان يعترف بأنه حقق معه في تلك الليلة الليلاء كأي حاكم تحقيق، وهو ليس من الحماقة بمكان ان يعلن عن حقيقة كونه رئيس عصابة مسلحة خطيرة لا يردعها رادع لتنفيذ مآربها الجشعة. وقرر في نفسه أن يضع خطة معاكسة قد تنقذ ليس حياته فحسب، بل يؤدي إلى تغيير شامل ويجعل منه بطلا كبيرا يشار له بالبنان. وإنه إن لم يبادر مبادرته الحاسمة، فسيبادر غيره، شمس الدين مثلا. وتضيع عليه الفرصة الثمينة. إذ ذاك يلقى عليه القبض من اجل كسب الشعبية على حسابه، فلا يجد نفسه إلا وهو في غياهب السجون أو تحت حبل المشنقة. وراح يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا وهو يرتجف ويداهمه توتر داخلي لا استقرار له. مثل غريق يتشبث بقشة، مد يده المرتجفة إلى جهاز التلفون. أدار قرص الأرقام. أجابه من الطرف الآخر شمس الدين بلطف، قال بلهفة:

" شيخ إبراهيم، انا بحاجة إليك، يجب أن نلتقي هذا اليوم في كل الأحوال"

" هل تريدني ان احضر عندك الآن سيدي؟"

" كلا، ليس الآن، سأحضر انا عندك في البيت، الساعة السادسة مساء"

" سأنتظرك بلهفة سيدي"

عندما أعاد السماعة إلى جهاز التلفون، زالت الرجفة من يديه وداهمه تيار من الراحة الداخلية وتمكن ان يأخذ مكانه على الكنبة وهو يفكر في اللقاء القادم وكيف سيكون. ورأى انه من الأفضل أن يسلم مصيره بيد شمس الدين، ذئب البراري وثعلب الوديان وأن يحشمه على شرفه البدوي الذي هو أمضى سلاح للحيلولة دون صعود المشنقة، وإلا فانه لا

يستطيع أن يجابه الأمر بمفرده ولا يستطيع أن يخذل زوجته الحامل ويسلم مصيرها للمجهول.

حين رن جرس التلفون في منزل عزيزة، كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا. كانا قد انتهيا توا من تناول الفطور. كان شمس الدين مشغولا بالاستماع إلى الأخبار وعزيزة ترتشف الشاي وتدخن. وقبل أن يبلغها شمس الدين بهوية المتحدث، عرفته عزيزة. قال شمس الدين بصورة لا إرادية:

" إنه يريد أن يزورنا في البيت، لاشك أن هناك مسألة مهمة"

قالت عزيزة بعدم ارتياح:

" مهمة بالنسبة إليه فقط، لابد انه بدا يتحسس رقبته"

" إننا يجب أن نساعده"

قالت عزيزة بغضب:

" كيف تريد أن تساعده؟ إنه قاتل. ألم يعترف امامك؟ القاتل يجب أن يعاقب على جريمته"

اجاب شمس الدين بهدوء:

" ربما يأتي لسبب آخر، أو لمجرد الزيارة، ولكن الذي اعرفه أن الرجل في محنة. لا شك أن زيارته لنا لها علاقة بنشر صورة القتيل"

علقت عزيزة متشفية:

" إنه لم يمت بيدي، ولكنه سيموت إن شاء الله بيد الحكومة"

" على كل حال إنها مشكلته هو ولنر ماذا سيقول. ولكن لا تنسي يا عزيزة، إنه فتح امامنا ابواب الخير وهو لا يزال يأتمر بأوامرنا"

قالت عزيزة بعد أن عادت إلى هدوئها:

" ولكن لا تنس أنك منحته الحياة. كان يمكنك أن تقتله كأي كلب"

" لـذلك يجب أن نحتفظ بـه، لا يمكـنني أن اتـصور نفسي بدونـه. لقد ارتبطنـا بـه بخيـوط كـثيرة. وتفكيـك هـذه الخيـوط يعـني نهايتنـا . إنـه يفهمني بشكل جيد ويحترمني وينفذ كل طلباتي. لقد أسسنا صرحا من الثقة، لا يمكنني هدمه في لحظات"

" كيف تريد ان تساعده. إنـه قاتل وهل من الـصحيح مساعدة قاتل؟ الا تعرف أن من يساعد القاتل، يعتبر شريكه في القتل. إن اقل خطأ منك يؤدي إلى كشف كل اسرارنا، لذلك انصحك ان تكون حذرا جدا في هذه القضية؟"

" انـا افهمك جيـدا يـا عزيـزة. انـا لم اربـط ولـن أربـط مـصيري بمـصير كمال. هناك خطوط حمراء لا يجوز تجاوزها. ونحن ينبغي أن نفكر جيدا في مـسألة مهمـة جـدا هـي أن هـذا الرجـل إذا تأكـد بأنـه لا مخـرج لـه مـن محنتـه وأن حبـل المشنقة سيلتف حـول رقبتـه لا محالـة، آنـذاك سينهار ويكشف كل أوراقه، وذلك حسب قاعدة إذا مـت ظمآنـاً فلا نـزل القطـر. بعد ذلك سنكون نحن في خبر كان. الا يكفي انه انهار مرة أمامنا واعترف بكل شيء. ورأيت وضعه بنفسك، فكيف سيكون وضعه هذه المرة يا ترى؟"

علقت عزيزة وكأنها اكتشفت أمرا جديدا:

" نعم، هذه هي طبيعة كمال. أنا أعرفه جيدا"

" ولهذا السبب يجب أن نأخذ بيده للحيلولة دون سقوطه. المهم إننـا لا نستطيع الآن القيام بأي شيء. يجب أن ننتظر مـا ستأتيه الأيـام. وفي ضوء ذلك يمكننا التحرك بالشكل الذي يتطلبه الوضع. المهم إننا يجب أن نوحي له بأننا معه ونساعده بكل إمكاناتنا. اننا يجب أن نحيل دون انهياره".

قالت عزيزة وهي تشعل سيجارة أخرى وتقوم من مكانها متوجهة إلى المطبخ:

" فكر في ولاية بطيخ يا عزيزي، هل نسيتها. ترى كيف سيكون مصيرها إذا تم إلقاء القبض على كمال والتف الحبل حول عنقه؟"

" شيء جميل منك يا حبيبة أن تفكري بمصير ولاية بطيخ. وهذا هو أحد الأسباب المهمة التي دعتني للاهتمام بقضية كمال، ذلك انه أبدى الاستعداد الكامل للتعاون معنا في مشروعنا"

قام هو الآخر من مكانه بغية التوجه إلى لقاء كل من خير الدين وشرف الدين، إذ أحس في داخله أنه بحاجة إلى استشارتهما، لا سيما بعد أن ذكرته عزيزة بمصير ولاية بطيخ. نبه عزيزة بأنه سيمر عليهما في مسكنهما وإنه فيما بعد سيذهب معهما إلى السوق للقاء بعض الأصدقاء، ولكنه في كل الأحوال سيكون في البيت قبل الساعة الخامسة أي قبل ساعة من مجيء كمال. صاحت عزيزة من المطبخ:

" المهم ستكون في البيت قبل مجيء كمال، لأنني لا أريد أن أكون معه وحدي"

" صار يا حبيبتي"

أحس شمس الدين في داخله بهاجس خوف جدي، يقتحمه لأول مرة في حياته. وأوعز السبب إلى المخابرة التلفونية التي شعر خلالها بنبرة غريبة لصوت كمال، تلك النبرة التي لا تخلف وراءها سوى النحس. ورأى أن مصيبة ما إذا وقعت له بعد سلسلة النجاحات المتتالية، فإن السبب إنما هو كمال. هذا السبب المفاجئ الذي لم يكن لا في باله ولا في خياله. وإذا كان كمال هو الرقم واحد في بواعث الخوف، فإن عزيزة تشكل الرقم الثاني. وبقدر ما يتعلق الخوف بعزيزة، فان هذا الخوف غير صادر منها، بل عليها، هي البريئة التي كل ذنبها يكمن في كونها تعرف

الحقيقة بوجهيها، الأول أن الحادثة قد وقعت في منزلها والثاني هو اعترافات كمال التي جرت أمامها وفي منزلها أيضا. إنها إذاً شريكة في الجريمة، تعاقب عليها بالسجن. وأما الخوف الصادر من كمال، فهو قبل كل شيء عليه هو بالذات ومن ثم ينسحب عليهم هم. إنه لا يعرف الحقيقة المتعلقة به فحسب، بل يعرف حقيقته هو، شمس الدين وعصابته. فهو بكلمة واحدة فقط يمكنه أن يلغي كيانهم ويهدم كل ما بنوه خلال فترة قصيرة جدا. إنها ورطة كبيرة، تشابكت فيها أمور كثيرة ومصالح متعددة يجب أن يعثر لها على حل مرض. وفكر في البدائل التي يمكن أن تكون حلولا مرضية: أن ينتقل مع عزيزة إلى مكان آخر يعيشان فيه بحالة اختفاء أو أن يتخلص من كمال بقتله وإخفاء جثته، ذلك أنهم لن يتركوا هذا الأمر يمر عليهم مر الكرام. وها هي التحقيقات الجدية بدأت من جديد. ولابد أنها ستؤدي إلى نتيجة إيجابية لصالحهم هم. إن تحريك القضية بهذا الشكل، لابد أن يؤدي إلى مفاجئات غير مريحة لشلته التي لن تحصل هذه المرة حتى على شبر واحد في المقبرة التي كانوا يسرحون ويمرحون فيها من قبل. شعر بالحيرة وأنه لا يستطيع أن يركز أفكاره على حل ما. إنه بحاجة فعلا إلى الاستشارة. ولا يهمه ممن. إن الأمواج توشك أن تجره إلى الغرق المحتم، كما وتجر معه أيضا كلا من عزيزة، خير الدين، شرف الدين، السيد أنور مدير الطابو، أيوب ودنخة وغيرهم.. وفكر في نفسه متسائلا: أهكذا يتغير الإنسان؟ أين هي جرأته وشجاعته؟ هل زالتا بسبب زوال فقره وبؤسه واستكانته إلى الراحة والخمول؟

كان خير الدين وشرف الدين يلعبان الدومينو حين دخل عليهما شمس الدين. وبخلافه هو، كانا منطلقين يتطاير الفرح من عيونهما. سلم عليهما بتكاسل وهو يتهالك على الكرسي القريب منهما. وعندما

تركا اللعب، طلب منهما أن يواصلاه. قال خير الدين أنهما لن يواصلاه، إلا بعد أن يشاركهما هو الآخر اللعب، فأجاب أن مزاجه لا يساعد على المشاركة في اللعب. قال خير الدين وهو يحدق في عينيه:

" أنت قلق يا شمس الدين على غير عادتك، خير إن شاء الله"

علق شرف الدين بتفاؤل:

" الخير كل الخير ولا يهمكم"

اجاب شمس الدين وكأنه يحذر من عاقبة ما:

" ليس الخير كل الخير يوجد دائما يا شرف الدين. نحن أمام مشكلة كبيرة"

اجاب شرف الدين دون أن يغير من لهجة تفاؤله:

" ولا يهمك يا حبيبي. مشكلة كبيرة تحتاج إلى حل كبير وينتهي كل شيء"

علق شمس الدين متأوها:

" يا ليتني كنت أملك مزاجك يا شرف الدين. على كل حال جئتكم كي استشيركم في أمر يهم مصيرنا المشترك. هذه هي المرة الأولى التي أحس فيها بوجود عقبة أمامنا. عقبة قد تؤدي إلى سقوطنا النهائي، ولذلك يجب علينا أن نتدبر أمورنا بسرعة وروية"

أصاب الذهول كل من شرف الدين وخير الدين وراحا يحدقان في عيني شمس الدين بفضول ورهبة وينتظران بلهفة ما تتفوه به شفتاه. قال شمس الدين وهو يزيح بيده أحجار الدومينو جانبا:

" كان الحظ إلى جانبنا دوما، ولكنه الآن يبدو كما لو أنه انقلب علينا"

وقبل أن يكمل كلامه، علق خير الدين قائلا:

" إن جنية عزيزة معنا. يستحيل أن ينقلب علينا الحظ"

قال شمس الدين بلهجة حادة:

" دعنا الآن من الخرافات يا خير الدين. إننا يجب أن نأخذ الأمور بجد. اليوم عندي موعد في السادسة مع كمال. إن حياته في خطر، إذ أن التحقيقات بدأت للبحث عن قاتل صباح. ويبدو لي أن الباشا قد تدخل في الموضوع شخصيا. ورأيتم الصورة التي وزعوها على أفراد الأمن بأنفسكم. ولاشك أنه سيأتينا اليوم بمعلومات جديدة، لذلك أطلب منكم أن نتدارس الموضوع بكل جد واهتمام. هذه هي باختصار الصورة الموجودة أمامنا. كما ترون أن القضية معقدة: المقبرة والأراضي المحيطة بها قد اشتريناها وقبر القتيل صباح يتواجد فيها دون أن يعرف بذلك أحد غيرنا. حادث القتل جرى في بيت عزيزة. كمال اعترف أمامنا بقتله. هذا يعني إننا كلنا شركاء في الجريمة. وإذا تم إلقاء القبض على كمال، فإنه سينهار فورا وسيعترف على الأول والتالي بدون أي تردد، عند ذلك لا يسعفنا لا المقبرة ولا غير المقبرة. تفضلوا ناقشوا مسألة مصيركم ومصير المسكينة عزيزة"

نزل الكلام عليهما نزول الصاعقة. ظلا مبهوتين لهنيهة لا يستطيعان الكلام، بيد أن كل واحد منهما استغرق في تفكير عميق نقله إلى عالم من التصورات الغريبة والمقترحات المتضاربة بين اليأس والتفاؤل وبين الأمل والخيبة والانهيار والصمود.

أطبق عليهم الصمت لفترة غير قصيرة، خرقه خير الدين قائلا:

" الوضع جدي فعلا، ويحتاج إلى نقاش مستفيض، ولكننا لا نتمكن من البدء بالنقاش إلا بتوفر نقطتين هما: أولا، حضور الأخت عزيزة. ثانيا، الاستماع إلى كلام كمال"

علق شمس الدين فورا:

" هذا كلام جميل يا خير الدين. وأنا أحب أن أضيف إليه اقتراحا، يمكنكم مناقشته، وهو أن لا نكتفي بالاستماع إلى كلام كمال فحسب، بل نضمَّه إلى صفنا فعلا ونفسح المجال أمامه للمساهمة في جميع مناقشاتنا، ذلك أن مصيرنا ومصيره مرتبطان ببعضهما بصورة لا تقبل التجزئة، ثم إننا بذلك نعطيه الأمان والقوة، فلا يحس بالعزلة المقيتة التي تضرنا وتضره"

قال شرف الدين بحماس:

" فكرة جيدة جدا، أنا أؤيدها"

ارتاح شمس الدين للكلام والتفت إلى خير الدين الذي راح يفكر في مدى استعداد كمال للانضمام إلى شلتهم التي هي، في رأيهم، ليست في الحقيقة سوى عصابة صعاليك لا هم لها سوى النصب والاحتيال والادعاء الفارغ بإتيان ولاية بطيخ جديدة تحل محل القديمة المتفسخة. وتساءل في نفسه: ما هي مصلحة مدير شرطة عام في الجلوس مع عصابتهم؟. قال شمس الدين وهو ينظر في ساعته:

" الوقت سيأخذنا يا خير الدين، توكل على الله واحسم الأمر كما فعله شرف الدين"

قال خير الدين بنبرة لا ثقة فيها:

" ولكن، هل يوافق على طلبنا؟"

أجاب شرف الدين:

" أهذا كل ما فكرت فيه طيلة الوقت يا عزيزي؟ إنه على طول الخط يسير معنا جنبا إلى جنب. سنطرح عليه الأمر لمصلحته هو بالذات. على أي حال، إذا قبل بالفكرة، هل توافق على انضمامه؟"

" طبعا أوافق"

قال شمس الدين بارتياح:

" اعتقد إننا اتفقنا على أن نتفق. وإن اتفاقنا فيما بيننا كفيل بأن يتفق الآخرون معنا بدون تردد، إذ إننا باتفاقنا نشكل قوة سحرية لا يمكن الاستهانة بها. إن ما أنجزناه حتى الآن لا يمكن الاستهانة به أبدا. إننا نستمد قوتنا من إنجازاتنا، فلا قوة بلا إنجاز ولا إنجاز بلا قوة. الإنجاز والقوة توأم. ولما كانت المرأة تلعب دورا مهما في الحياة اليومية للناس على اختلاف أنواعهم، لذا فان وجود عزيزة بيننا ظاهرة ضرورية فريدة تضفي على مجلسنا طابعا حضاريا ونكهة إنسانية. إن هذه المرأة رمز للأم والأخت والحبيبة و العشيقة والزوجة، يجب أن نحترم هذا الرمز ونعطيه حقه. وهكذا أعطيناه الحق الذي يستحقه منذ اللحظات الأولى من تعارفنا به. ولولا هذا الاعتراف، لما توصلنا إلى تحقيق هذا الإنجاز، ولذلك، وانطلاقا من هذه الموضوعة السامية، اسمح لنفسي باسمكم، الانحناء أمام عزيزة العظيمة التي تستحق أن تكون ليست عضواً فاعلاً في صفنا، بل رئيسة فخرية لعصابتنا، عفوا لمنظمتنا"

قال شرف الدين بإعجاب:

" من أين لك هذه القابلية يا شمس الدين. إنك خطيب عظيم؟"

عقب خير الدين بزهو:

" إنها القابليات المستترة التي دفنها العرق المغشوش على مدى ثلاثة عقود من الزمن. إنها تخرج إلى النور رويدا رويدا يا صاحبي. إن اول الغيث قطر ثم ينهمر. انتظر قليلا وسترى العجائب"

قال شمس الدين:

" هل رايتم كيف تتفجر القابليات والمواهب التي كانت مدفونة في أعماق المقبرة وبالذات داخل مزار يضم قبرين مجهولين. قرابة ثلاثة عقود من الزمن ونحن نعيش على فضلات المدينة المرمية في المزابل

ونقضي ليالينا داخل المزار جنب القبرين الغريبين علينا، يسكرنا العرق المغشوش المسروق الذي كان يقودنا من حيث شئنا ام ابينا إلى التراشق والتضارب بالأحذية والنعل ثم نفترق وما نلبث أن نتجمع من جديد، ناسين مخاصماتنا الزائلة، إلى أن هدانا الله ذات ليلة إلى الطريق المستقيم الذي اتخذناه إلى محل دنخة وكان ما كان وعلى الله التكلان. في بداية نقاشنا المفترض هذا اليوم مع كمال والحبيبة عزيزة، ينبغي أن لا ننسى هذه الحقيقة التي يجب أن نضعها نصب عيوننا. إن أقل نسيان لها يؤدي بنا إلى الغرور والغرور يؤدي إلى السقوط"

" انت فيلسوف يا شمس الدين"

" كلامك ذهب يا شمس الدين. إنك لا تحمل اسمك اعتباطا"

بناء على اقتراح شمس الدين، قرروا أن يذهبوا إلى السوق ويتصلوا بكل من الخياط أيوب ودنخة وسالم الجربوع الذين سبق أن تم كسبهم رسميا إلى جماعة ولاية بطيخ، بعد توزيع الأراضي عليهم بثمن بخس أو أرخص من الماء، وذلك لاستطلاع رأيهم بشأن الوضع ومزاج الناس في المدينة. ورغم ثقتهم المطلقة بهؤلاء الرجال الثلاثة، فانهم لا ينبغي أن يعرفوا كل شئ، لا سيما ما يتعلق بقضية كمال ومقتل صباح. إنهم في الحقيقة سبق أن سمعوا بالحادثة بشكل عرضي، ولكنهم لم يسمعوا بأي اسم من الأسماء المشاركة فيها. ولم يسمعوا شيئا عن تفاصيلها، لذلك قرروا أن لا يتطرقوا إليها لا من بعيد ولا من قريب. إنهم فقط يريدون أن يعرفوا موقف الناس في حالة حدوث عصيان ضد السلطة. هل هم يقفون إلى جانب الحكومة أم إلى جانب العصيان. قال شرف الدين وهم يتركون البيت:

" إن المسألة تتعلق بحياة كمال ومصيره، لذلك ينبغي أن نلعب كل أوراقنا ونصرف كافة جهودنا من أجل الحفاظ عليه، ليس حبا بسواد عينيه، بل لأن مصيرنا هو مصيره. إذا فقدناه نكون قد فقدنا كل شيء"

قال خير الدين كأنه يريد أن يستوضح المسألة أكثر:

" أفهم أننا لا مانع لدينا من القيام بعصيان عام من أجل إنقاذ حياة كمال"

أجاب شمس الدين بنبرة حادة:

" أجل، هذا ما أردت قوله"

علق شرف الدين بحيرة وتساؤل:

" لا خيار آخر لنا، ولكن بقي أن نفكر كيف؟"

أجاب شمس الدين:

" نحن لا نريد أن نخلق الفرص أو نصطنعها، بل أن نستفيد من الفرصة المواتية في وقتها، دون أن نضيعها. إن إضاعة الفرصة المواتية هي أكبر حماقة يقوم بها الإنسان. وسلاحنا في ذلك هو معرفتنا ويقظتنا وإطلاعنا على تفاصيل الأمور. كما ينبغي أن نستفيد من كمال نفسه فهو رجل عسكري، له علاقات واسعة ويعمل منذ فترة غير قصيرة في القوات المسلحة. إنه إذا أحس بأن حياته في خطر، فلا مانع لديه من القيام بأي مغامرة يهرب من خلالها إلى أمام، فسواء فشل أم نجح في محاولته، تتخذ الأمور مجرى آخر"

قال شرف الدين بتهكم:

" نحن إذاً نريد أن نورط الرجل وندفعه إلى هاوية لا قرار لها"

أضاف شمس الدين:

" هو نفسه دخل ورطة لا مخرج منها سوى بورطة أخرى، فما علينا سوى مساعدته في هذه المهمة"

بعد فترة صمت قصيرة قال خير الدين:

" انا لا أريد أن أحبطكما، ولكن السؤال الذي يحركني هو ما العمل، إذا تم إلقاء القبض على كمال واعترف علينا؟ هذا مجرد سؤال"

أجاب شمس الدين بسرعة، كما لو أنه كان يتوقع طرح السؤال:

" هذا ممكن أيضا. في هذه الحالة ننسحب فورا إلى محلة أصحاب الجواميس ومن هناك ننتقل إلى الريف، والمشكلة التي ستجابهنا هي عزيزة"

قال شرف الدين بلهجة متفائلة:

" عزيزة لا تشكل أي مشكلة، يمكنها أن تختفي في محلة أصحاب الجواميس"

قال خير الدين:

" هذه المشكلة سنتدارسها فيما بعد معها هي"

حين بلغوا زحام المدينة، سكتوا عن الكلام. ولاحظوا حركة غريبة، غير اعتيادية في السوق. وراح بعض أصحاب الدكاكين يسد أبوابها وبعضهم الآخر يريد إقناعهم بعدم غلق المحل. وبغتة اجتاحت السوق موجة بشرية مزدحمة راحت تتدافع وتخرق طريقها بين الزحام. وفجأة ظهرت مواكب تحمل لافتات كتبت عليها: " نريد الخبز والديمقراطية.. تسقط الأحلاف الاستعمارية". حاولوا أن يواصلوا سيرهم، ولكنهم لم يتمكنوا من اختراق الموجة البشرية. وحين ظهر رجال الشرطة الخيالة بخيولهم الهائجة، صعد رجل على الأكتاف وحاول أن يلقي خطابا، ولكنه قبل أن يبدأ بالكلام، أطلق عليه أحد أفراد الشرطة رصاصة، أصابت رأسه فسقط على الأرض. وكان أن اختلط الحابل بالنابل حين هجم أفراد الشرطة على المتظاهرين بالعصي والهراوات. وقبل أن يلحق بهم شرطي خيال، تمكن شمس الدين وخير الدين وشرف الدين من

الخروج من الزحام إلى زقاق ضيق وهم يلعنون الشرطة ورجال الحكومة. وعادوا من حيث أتوا وهم ما زالوا تحت صدمة الرصاصة التي أودت بحياة الخطيب الذي لم ينطق بكلمة. قال شرف الدين وهو يقطع الصمت المخيم عليهم:

" هل نحن بحاجة بعد لمعرفة آراء الجماعة؟"

أجاب شمس الدين:

" هذا هو الوضع شاهد وتفرج، الله يلعنك يا كمال، لا شك أنه جالس في سيارته المدرعة الآن يراقب المتظاهرين من مكان ما ويعطي الأوامر لضربهم ونحن نضرب هنا أخماسا بأسداس حول مصيره، ألا لعنة الله عليك وعلى حكومتك. لولا خطواتنا السريعة في القفز، لكسروا رؤوسنا"

" قل هزيمتنا الشنعاء"

علق خير الدين ثم أضاف:

" اني أريد أن أعرف فقط إذا ما كان كمال أفندي سيأتي للموعد هذا اليوم أم لا؟ وما الذي سيطرحه علينا؟"

أجاب شمس الدين بثقة واطمئنان:

" نحن لم نضرب معه أي موعد. هو نفسه صاحب الاقتراح. سننتظره في البيت ونتركه يسترسل في الحديث. ومن المستحسن أن نشغل المسجل ونخفيه في مكان أمين"

(١٦)

كانت الساعة تشير إلى الواحدة ظهرا، حين انتهت عزيزة من عملها في المطبخ. وقبل أن تترك المكان، توقفت أمام المذياع تنتظر انتهاء اغنية :"وين رايح وين..وين الوعد وين" التي اثارت شجونها وذكرياتها القديمة مع صباح، تلك الذكريات التي تتراءى لها الآن مثل سحابة صيف مرت بسرعة تاركة وراءها مزنه خلفت نسيماً منعشا لا يمكن نسيانه. وسقطت من عينها دمعة استقرت على وجنتها اليمنى، ما لبثت أن تلاشت في مكانها بعد أن مسحتها بحركة لا إرادية بيدها. إنها لا زالت تحبه، ولكن ماذا بقي من هذا الحب الذي ترعرع بين جدران أربعة في بيت قديم لا تشاركه فيه سوى زينة التي بقيت متعلقة بها حتى الآن؟ كانت تعتقد أنها ستنسى هذا الحب بمرور الزمن، بيد انها تيقنت بأن ذلك مجرد أمنية مستحيلة التحقيق، ولا سيما ان ثمة أشياء ثابتة، تذكرها به، مرتبطة بعشرات الجذور غير المرئية التي يستحيل إزالتها، ما زالت تتواجد في محيطها. ومن ضمن هذه الأشياء الثابتة كمال الذي يخيم

ظله عليها مثل كابوس ثقيل لا يدعها تستقر. كيف يمكن لقلبها أن يهدأ وهي تعرف بأنه هو الذي اغتاله بغدر. وعليها هي أن تحتفظ بهذا السر في قلبها لأن جناب شمس الدين وبطانته لهم مصلحة في ذلك... كلا، كلا، لا تلقي اللوم على شمس الدين وحده. انك أنت الأخرى لك مصلحة في إخفاء الحقيقة. بدليل أنك كنت تخفين هذه الحقيقة في صدرك قبل أن تتعرفي بشمس الدين. وهذا، من حبه الشديد لك عمل المستحيل لرفع الشبهة عنك. وهو جاد في حبه لك. ألم يطرح عليك الزواج منه؟ وحتى إنه اقترح أن يتزوج صديقاه من صديقتيك على أن تبدءوا جميعا حياة جديدة وتمارسوا مهنة شريفة بعد إعلان التوبة وزيارة قبر الرسول. فكري جيدا في هذا الأمر قبل فوات الأوان. إنك بزواجك ستقطعين الطريق أمام كل الشائعات وستهدمين كل الجسور التي تربطك بالرذيلة التي تسيء إلى سمعتك وكرامتك. انك يجب أن تعيشي مع الواقع الموجود أمامك. لقد ولى زمن الحب العذري ومات صباح سواء غدرا أم بدون غدر. إنه لن يعود. لاشك أن الميت هو الآخر مذنب. ودخل الشيطان بين الغريمين اللذين كانا يريدان امتلاكك كل لنفسه دون أن يشاركه الآخر. كان ذلك حبا وحشيا، حب الامتلاك والسطو والظهور بزهو الديك. كان كمال يعتقد انك ملكه منذ البداية، منذ فترة المراهقة في البلدة الصغيرة التي كان كل شئ فيها رومانتيكيا. ومما زاد في زهوه واعتزازه بنفسه وغروره، انك تركت أهلك وبلدتك من أجله هو. أو هكذا كان يتصور دون أن يعرف وضعك الخاص وسجنك في البيت ومسألة تدخل والدتك من أجل تزويجك من ذلك الراعي البسيط، اعتقادا منها أنها تضمن معيشتك عند قريبها الآمن. كان الغرور قد منع كمال من التفكير أو النظر في هذا الجانب. المهم أنه اقتنع بأنك ركضت وراءه ولذلك أعطى لنفسه الحق في أن ينظر إليك كنظرة السيد إلى العبد. وهل

كان من الضرورة بمكان أن يزورك صباح نفس اليوم الذي تواجد فيه كمال عندك؟ ولنفرض انهما تواجدا هناك عن طريق الصدفة، فلماذا لم يتفاداه صباح ويختلي جانبا؟ هو الذي كون معك علاقة سرية من وراء ظهر كمال، الأمر الذي أثار حفيظته وجاء لينتقم منه، هو الذي جاء بتحد ليعلن عن علاقته بك. وأما كمال، فبمجرد حمله المسدس في مثل هذا المكان يدل على أنه جاء للانتقام. كان يمكن لصباح أن يمنع حدوث الجريمة، ولكن استفزازه لكمال وإهانته له بالشكل الذي حصل قد أفقد توازنه، فلم يعد يتمكن من ضبط أعصابه الهائجة . وها هو اليوم يأتي إلى بيتك في الساعة السادسة سالما هاربا من وجه العدالة كأن شيئا لم يكن وهو بلا شك جاء يطلب المساعدة لتخليصه من محنته. إنها ورطة جديدة يريد أن يسحبها على شمس الدين ورفيقيه. إنه لن يتركك تستقرين وتمارسين حياتك بشكل طبيعي كسائر الناس.

اتخذت مكانها في مقعدها الوثير الخاص بها في غرفة الجلوس واشعلت سيجارة وصدى اغنية: "وين رايح وين؟" ترن في أذنيها وراحت تفكر... احست بقطار الزمن السريع يمر بشكل خارق دون أن تتمكن من اللحاق به. أو بالأحرى لا تريد هي أن تلحق به، اعتقادا منها بأن شبابها سيبقى أبديا دون أن تهزه عوامل الزمن، بيد أنها حين وقفت أمام المرآة، صباح هذا اليوم، لاحظت عدة شعرات بيضاء متفرقة تزين شعرها الأسود. توقفت عندها باهتة تريد قلعها، بيد أن شمس الدين الواقف خلفها الذي ظهر فجأة كالشبح في المرآة، مسك يدها وهو يقول مبتسما:

" ماذا تفعلين يا حبوبة؟ دعيها. إنها نجوم الليل، تزيدك جمالا وحكمة"

وأضافت هي بلهجة يائسة:

" بل عنوسةً وشيخوخةً"

" لا يا حبوبة، لماذا هذا القنوط. أنت تزدادين جمالا مع مرور الزمن، وأنا سأظل أول من يتقدم لطلب يدك، أم أنك تفكرين بغيري؟"

قالت بغنج ودلال:

" إذا بقيت كما هو أنت دون أن تتغير، ستبقى الرجل الأول في حياتي، هذا إذا لم يخلق لنا القدر مشاكل جانبية نحن في غنى عنها"

قال وهو يطوقها بساعديه:

" مثلما جمعنا القدر، هكذا سيكون في عوننا أيضا"

قررت في نفسها أن تحدثه هذه المرة بجد فيما يخص الزواج والاستقرار. وأما قضية زواج كل من زينة وساهرة التي كانت تربطها دوما بمسألة زواجها هي، فرأت أن لا تتدخل فيها على أن توصي شمس الدين بعدم التدخل أيضا للتأثير على خير الدين وشرف الدين. ورأت أنها إذا تزوجت، فإن كمال هو الآخر سيقطع خيط الأمل الواهم المتبقي عنده، إذ ذاك سترتاح من القال والقيل ويوضع كل شيء في مكانه الطبيعي. قادها تفكيرها إلى كمال وما سيجلبه اليوم من المفاجآت. وخمنت في ذهنها أن سبب ضربه هذا الموعد لزيارتهم، له علاقة مباشرة بصورة صباح التي لا شك أنها وزعت على نطاق واسع للبحث عن القاتل ولابد أنهم خصصوا أيضا جائزة مالية ثمينة لمن يعطي معلومات كافية لإلقاء القبض على القاتل وهو يعرف جيدا بأنها هي وشمس الدين وبقية الشلة على علم بالموضوع. لاشك أنه يأتي كي يطلع على موقفهم بخصوص القضية وفيما إذا كانوا يعرفون شيئا عن توزيع الصورة. هذا هو إذاً السبب الرئيس. بقي أن يطلع الإنسان على موقفه هو وما هي إجراءاته للحيلولة دون القبض عليه؟ ومن دون أن تدري لماذا، أحست بنوع من العطف تجاهه، رغم معرفتها كونه قاتلا، ولكن ذليلا.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة بعد الظهر، حين انتهى قمع التظاهرة بقيادة كمال مدير الشرطة العام الذي نفذ أوامر الجهات العليا بحذافيرها، بما فيه استعمال الرصاص حتى القتل إذا اقتضى الأمر. وبالفعل تم قتل مواطن واحد وجرح عدد لا يتجاوز أصابع اليدين. شكره الوزير المسؤول شخصيا عن طريق الهاتف وأبلغه إعجاب الباشا بحزمه ودفاعه المستميت عن دولة القانون ومكافحة الشغب وطمأنه أنه سيتسلم كتاب الشكر قريبا بشكل تحريري. قال في نفسه بحيرة وهو يعيد سماعة الهاتف إلى مكانه:

" كتاب الشكر قريبا بشكل تحريري. وصورة صباح المعممة إلى كل الجهات الرسمية؟ لماذا لم تصلني حتى هذه اللحظة؟ هل هناك من أبلغهم بالموضوع؟ بالحقيقة؟"

وراحت التساؤلات تتلاطم في ذهنه. لماذا طلبوا منه أن يشرف هو بالذات على قمع المظاهرات؟ أليس هذا العمل من اختصاص مدير شرطة المدينة؟ لماذا خولوه باستعمال الرصاص فالقتل. إنه عمليا مسؤول عن إراقة دم هذا الخطيب الذي صعد على الأكتاف، ولكنه قتل دون أن يفتح فمه؟ والشرطي الهداف الذي أطلق النار بدم بارد، إنما سبق له أن أخذ الأمر بذلك منه هو. إنهم لا شك أرادوا وأده كي يقاضوه فيما بعد على أفعاله ومن ثم مجابهته بقتل صباح، أبن الإقطاعي النائب في مجلس النواب، من جماعة "الموافجين" ومن أصدقاء الباشا. ولكن العيب فيك أنت. لماذا طبقت أوامرهم بحذافيرها؟ أو بالأحرى لماذا أمرت بقتل هذا المسكين الذي لم يبد رأيه بعد؟ وحتى إذا أبدى رأيه حول الفساد ووضع مقدرات البلد بأيدي الأجنبي عن طريق التحالفات الاستعمارية، فهل يوجب قتله وهدر دمه بسبب إبداء رأي مخالف لرأي الدولة؟ أنت الآن متهم بقتل نفسين وقبلهما قتلت عزيزة روحيا وذلك

باغتصابها ومعاملتها كعبدة منبوذة. أكان هذا جزاؤك لها، هي التي ضحت بكل شئ من أجل اللحاق بك؟ ألست أنت المسؤول عن انحدارها إلى عالم الدعارة؟ بأي وجه تريد لقاءها في بيتها هذا اليوم. أي خسة هي هذه التي تتميز بها؟ إنك إذا وقفت أمام محكمة عادلة بتهمة قتل رجلين واغتصاب فتاة، لتم الحكم عليك في كل الأحوال بالإعدام مرتين. أليس من المستحسن أن تسحب مسدسك وتوجه فوهته إلى صدغك ثم تضغط على الزناد؟ ولكن جبانا مثلك يستحيل أن يقوم بعمل هو من اختصاص الرجال.

هيا هيّئ نفسك للذهاب إلى موعدك مع شمس الدين، فهو يعرف جيدا كيف يعاملك ويضع الخطط من أجل إخراجك من الوحل. وهو الوحيد الذي يعرف من أي طينة أنت. عندما تذكر اسم شمس الدين، قفز اسم صباح إلى رأسه. وبدأت ضربات قلبه تشتد. ضرب بقوة بكفه على جبينه وهو يقول مع نفسه: " يا إلهي متى تنقذني من هذه المصيبة؟ أريد أن أعرف فقط إذا ما غلقوا هذه القضية أم لا؟ أم ما زالت على طاولة البحث؟ كيف يمكنني الاتصال بالمدعي العام الذي لا يفتح فمه أبدا ولا يختلط بالموظفين، مهما كانت مستوياتهم؟"

نظر في ساعته. إنها الرابعة والنصف. تمكن أن ينقذ نفسه من المهمات الجانبية بتسليمها إلى مدير شرطة المدينة. الجرحى أدخلوا إلى المستشفى. وجرى توقيف من ألقي عليهم القبض. بقيت مسألة الجثة التي أحيلت إلى الطب العدلي الذي رأى أن سبب الموت هو رصاصة بندقية مستقرة في الراس. وحين أراد ممثل وزارة الداخلية ترك الموضوع واعتباره قضاءاً وقدراً، تدخل المدعي العام وأبى إلا أن يقوم بالتحقيق مع المسؤول الأول عن قمع التظاهرة الذي هو السيد كمال

مجيد عزة، مدير الشرطة العام. وتمكنوا من إقناع المدعي العام بتأجيل موعد التحقيق إلى اليوم الثاني.

وعندما حان موعد التحقيق في اليوم الثاني، لم يحضر المدعي العام، رغم الانتظار الطويل. وقيل انه مات بالجلطة الدماغية. وكان التشييع تظاهرة ضخمة اشتركت فيها مجموعات من شرطة المشاة والخيالة ونصبت السرادق لاستقبال المعزين لمدة أسبوع، قدمت فيها القهوة والسجاير الأجنبية وأنواع الأكلات على حساب الدولة.

ونامت القضية وتم إغلاق الملف.

عاد كل من شمس الدين وشرف الدين وخير الدين إلى البيت حوالي الساعة الخامسة إلا ربعا وذلك بعد أن قضوا وقتهم في مطعم سالم الجربوع. لم يحدثوه عما جرى لهم وهو الآخر لم يعرف بموضوع المظاهرة، إلا انهم حين سألوه عن مزاج الناس، قال أن الناس منزعجون من الوضع، الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرا. جيب نقش عواني. كما قرروا أيضا أن لا يفاتحوا عزيزة بموضوع التظاهرة، إذ أن كمال لابد سيحدثهم عن تفاصيلها إن شاءوا أم أبوا.

رغم معرفة عزيزة بأنهم تناولوا غداءهم عند سالم الجربوع، سألتهم إذا ما كانوا جياعا؟ وكان أن اكتفى شمس الدين بالقول:

" سالم الجربوع"

"والشاي؟"

" ننتظره على أحر من الجمر"

عندما بدءوا باحتساء الشاي، سمحوا لأنفسهم بمناقشة موضوع اللقاء بكمال. وتركهم شمس الدين أن يأخذوا حريتهم في النقاش دون أن يتدخل هو. ولاحظ أن عزيزة ساكتة لا تبدي رأيها في الموضوع وأن

فحوى النقاش الدائر بين خير الدين وشرف الدين هو مجرد تكهنات لسبب مجيئه إليهم. وعزيا ذلك إلى وجود خطة عند كمال للقيام بعصيان ضد الحكومة. قال شمس الدين، موجها كلامه إلى عزيزة:

حبوبة، أنت ساكتة. الا تدلين برايك حول الموضوع؟"

اجابت عزيزة كما لو ان الأمر لا يهمها:

" كيف تريدني ان أبدي رايي حول موضوع لا اعرفه؟ إننا بدءا ينبغي ان نسمع كلام كمال ثم نبدي راينا، إذا تطلب الأمر إبداء الراي. إن لكمال الف مشكلة، فبأي منها يبدا يا ترى؟"

علق شمس الدين باعتزاز:

" والله هذا هو الكلام الصحيح يا سادة، وليست حزوراتكم الصبيانية. إنني فخور بك من كل قلبي يا حبوبة"

علق خيرالدين وشرف الدين بصوت واحد:

" ونحن ايضا فخوران بكما كليكما"

وتم الاتفاق على أن يتكلم في حضرة كمال، شمس الدين فقط. وأما الباقون، فلا يحق لهم الكلام، إلا بعد أن يطلب منهم شمس الدين ذلك شخصيا. ويحق لشمس الدين أيضا، إذا اقتضى الأمر، أن يجيب بأجوبة قاطعة، لا تقبل النقاش إلا من كمال.

عندما حان موعد قدوم كمال، سمعوا عدة طرقات على الباب. كانوا جالسين في غرفة الضيوف. هرع شرف الدين إلى الباب. بعد هنيهة انتظار، دخل كمال، يرافقه شرف الدين، وهو متخف بالزي العربي الشعبي ويبدو كما لو أنه من فلاحي الفرات الأوسط وعلامات التجهم بادية على ملامح وجهه. أراد شمس الدين أن يعلق على هيئته المبالغ فيها، ولكنه لم يشأ أن يغير الجو الجدي المكهرب الذي هيمن على

الغرفة. رغم الترحيب الحار من أصحاب البيت، بدا رد فعل كمال فاترا يطبعه نوع من العتاب والخذلان اللذين كان يحاول جادا التغلب عليهما. احس شمس الدين بذلك، فبادر قائلا بلهجة ودية:

" إن شاء الله خير يا أستاذ كمال، نحن إخوانك ولن نقصر بالخدمة"

قال كمال بلهجة عتاب:

" الكلام طويل يا محفوظ السلامة لا ادري من اين ابدأ"

تذكر شمس الدين كلام عزيزة التي قالت إن لكمال الف مشكلة وقال وهو يلتفت إليها، هي التي يبدو عليها المرح والانطلاق:

" حتى لو كانت لك الف مشكلة، فسنعاونك في حلها يا أستاذ كمال، مشكلتك هي مشكلتنا. تفضل خذ راحتك في الكلام"

" هل لي ان اعرب عما يدور في راسي بصراحة؟"

" اجل، في منتهى الصراحة، وإلا فلا"

" انا عندي عتاب، اشك أن الخبر المتعلق بمقتل صباح قد تسرب من هنا"

قال شمس الدين، الذي كان يتوقع طرح السؤال، بلهجة ودية:

" أستاذ كمال، نحن أربعتنا شركاء معك في جريمة قتل صباح، بدليل اننا كتمناها بسرية تامة. إن تسرب الخبر يعني هلاكنا كعصابة، ثم من الذي يقول أن الخبر قد انتشر؟ ما هو دليلك؟ هل صدر بحقك أمر بإلقاء القبض عليك من قبل المدعي العام؟ إننا منذ اليوم الأول من تعارفنا اتفقنا على العمل على أساس الثقة المتبادلة. انت تشكل طابوقة اساسية في جدارنا، فإذا زالت هذه، لا سمح الله، انهار الجدار، فما هي مصلحتنا في نشر الخبر. ينبغي علينا أن نبحث عن الجهة المطلعة على الحقيقة معا، لأن مصيرنا مشترك. هل هناك شيء ملموس احسست به"

أجاب كمال بشرود:

" الشيء الملموس الوحيد الذي أعرفه، هو أنهم وزعوا صورة صباح على كافة دوائر الدولة والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية، عدا دائرتي، في حين الأولى بهم أن يرسلوها إلي قبل أي جهة أخرى. إني أشك فيهم. انهم يريدون محاصرتي"

قال شمس الدين بقناعة:

" هذا ليس دليلاً ملموساً يا أستاذ كمال، ربما هناك إهمال في التوزيع. إن أقل شك بك، يؤدي إلى سحب يدك من الوظيفة فعرض الأوليات إلى المدعي العام والتحقيق معك. إن المسألة ليست سهلة كما ترى"

قال كمال كما لو انه تذكر شيئا:

" ثق إنهم يريدون محاصرتي يا محفوظ السلامة. لقد ورطوني في قضية أخرى، ليست أسهل من الأولى، فوقعت في المطب، دون أن أحس بذلك وكانت النتيجة مقتل شخص برئ، تنسحب مسئوليته علي كمسؤول أول عن قمع التظاهرة"

قال شمس الدين وهو يتناول سيجارتين من العلبة الموضوعة على المنضدة، أعطى إحداها لكمال الذي كان مشغولا بشرب الشاي ووضع الأخرى في فمه:

" هذه فعلا ورطة جديدة يا أستاذ كمال. أنت الآن عمليا متهم بقتل شخصين. إننا ينبغي أن نبحث الآن عن حل جذري للمشكلة وليس البحث عن شخص موهوم يفترض انه نقل الخبر إلى الجهات العليا. إن مشكلتك هي مشكلتنا، ولذلك يجب علينا أن نتدارس الأمر من جميع جوانبه"

قال كمال بشيء من الارتياح:

" وهذا هو السبب الذي قادني إليكم"

مرت هنيهة صمت قصيرة، تبادل خلالها شمس الدين النظرات مع جماعته، قال وهو يلتفت إليهم واحدا واحدا:

" نحن الآن هنا تربطنا الثقة المطلقة ببعضنا. أرجو من كل واحد منكم أن يتذكر إذا ما كان قد سبق له أن فتح فمه أمام أحد ما بخصوص مقتل صباح. أرجو الاعتراف بالخطأ وقول الحقيقة كي يتسنى لنا معالجة الخطأ قبل فوات الأوان. قالت عزيزة باعتزاز:

" أنا السر عندي باب ضاعت مفاتيحه، وكمال نفسه يعرف ذلك جيدا"

علق كمال فورا:

" هذا الكلام صحيح. ثقتي عالية بك يا ست عزيزة وكذلك بالجماعة كلها. لنبحث عن الحل كما تفضلت يا محفوظ السلامة"

قال شمس الدين حائرا:

" الحل، الحل، لو كنت أملك قوة الخالق، لأرجعت الفقيدين إلى الحياة وأبوك الله يرحمه"

قال كمال بيأس:

" ولكن الرصاصة التي تنطلق، لا يمكن أن تعود إلى مكمنها"

قال شمس الدين بعد تفكير عميق:

" إن إناطة مسؤولية قمع التظاهرة عليك يا أستاذ كمال دون شخص آخر وإعطائك مطلق الحرية في التصرف كيفما تشاء في قمعها ونجاحك في مهمتك، كل ذلك يعني أن هناك في الجهات العليا، من يثق بك ثقة مطلقة"

علق كمال فورا:

" ولكن يمكنك أن تقلب الآية يا حبيبي يا محفوظ السلامة. أنا لا يوجد عندي أحد يدافع عني في الجهات العليا، ولكني أعرف شيئا آخر

هو تأكدي من أن أب الفقيد عضو فعال في حزب دولة القانون الذي يملكه الباشا، وأنه هو الذي حرك القضية من أجل محاصرتي"

" هل هذا خبر يقين أخذته من مصدر موثوق، أم أنه مجرد تحليل قمت به أنت مع بعض أصدقائك المتعاطفين معك؟"

" إنه مجرد استنتاج"

" نحن لا نريد استنتاجات، بل أشياء ملموسة وأخبار يقينه"

قال شمس الدين وهو يفكر بجد في إيجاد حل معقول للمشكلة:

" اعتقد إننا يجب أن نركز على مسألة مقتل صباح ونترك قضية التظاهرة وإلا سنفقد المشيتين. يجب أن ندرس القضية منذ بدايتها بالتفصيل. إنني كلما حاولت التفكير فيها، لما تمكنت من إيجاد صورة واضحة عنها. إن الصورة مشتتة وغير مترابطة وتبدو كما لو أن أحدهم قد اخترعها"

علق كمال بارتياح:

" هذا الكلام صحيح، وهذا هو السبب الذي جعل المدعي العام لا يصدق الشائعات التي تدعي بأني أنا القاتل. إن الشيء الذي أنقذني في حينه هو كون الحادثة جرت يوم الجمعة وبعد أقل من ساعة حضرت إلى مكان الحادث بملابسي المدنية"

سأل شمس الدين:

" كيف تم تبليغك بالخبر"

" الست عزيزة اتصلت تلفونيا بشرطة القسم، وهذه أعلمتني بالموضوع"

همس خير الدين في أذن شمس الدين، مذكرا إياه بأنهم سبق وأن سجلوا اعترافات كمال بهذا الخصوص على الكاسيتة. ويمكن العودة

إليها لتفادي أي التباس. تنفس شمس الدين الصعداء لهذه اللفتة المهمة وتساءل وهو يحدق في عيني كمال القلقتين:

" استاذ كمال، قبل أن نتصادق ونتحول إلى أخوين حميمين، حققنا معك بخصوص هذه القضية بالتفصيل. هل تتذكر اقوالك؟"

اجاب كمال بكل ثقة:

" طبعا اتذكرها بحذافيرها"

" وهل كنت صادقا معنا ومع نفسك فيما قلته"

" كل الصدق"

قال شمس الدين بلهجة مطمئنة:

" لا خوف عليك إذاً يا حبيبي يا استاذ كمال. ليس هناك أي دليل يؤشر عليك بالاتهام"

" اعرف ذلك جيدا يا محفوظ السلامة، ولكنك انت تجهل اساليب الشرطة. انا اشتغل في هذا المسلك اللعين واعرف أساليبهم في التوصل إلى الجاني. انا اريد ان اسألك ماذا افعل إذا كشفوا امري؟"

تساءل شمس الدين باستغراب:

" ولكن لماذا يكشفون امرك؟ يبدو انك لا تثق بنا يا استاذ كمال"

قال كمال بخنوع:

" استغفر الله يا محفوظ السلامة. يعلم الله أن ثقتي مطلقة بكم، ولكنني مع ذلك اخاف ان تأتيني الضربة من مكان آخر لم احسب حسابه، ولهذا السبب اريد ان اسأل ماذا افعل إن انكشف امري؟ هل يمكنكم مساعدتي في محنتي؟"

قال شمس الدين بلهجة صادقة:

" انت واحد منا يا استاذ كمال، سنقف إلى جانبك حتى الموت"

قال كمال بإذلال:

" اعرف ذلك حق المعرفة، ولكنني اريد ان اتأكد من نوع المساعدة التي تسدونها لي. إنني اريد ان اطمئن، إذ ان التوتر الداخلي الذي يدمر اعصابي، قد سلب راحتي واقض مضجعي"

" المسألة تتعلق بتحملك لأوضاعنا. اننا مثلا نتكفل بإخفائك عن الأنظار في مكان امين، ريثما ندرس قضيتك بإمعان. وحين تجبرنا الظروف على إخفائك، يجب أن نختفي معك جميعنا ايضا، ذلك ان مصيرنا مشترك لا يتجزا. نحن حين نتكفل بذلك، إنما سنحقق وعدنا بدون مغامرة. وإذا كانت لديك مقترحات بهذا الخصوص، فيمكنك طرحها بكل بساطة وشفافية"

فرك كمال يديه بفرحة طفولية، وقال:

" هذا هو الكلام المضبوط الذي اردت سماعه. مصير مشترك، دعني اعانقك يا اخي يا محفوظ السلامة. انت تمنحني قوة اسطورية لعمل شيء ما"

وهجم على شمس الدين يعانقه ويقبله من وجنتيه وكتفيه. قال شمس الدين وهو يحاول تهدئته وإعادته إلى الواقع:

" لا داعي لعمل شيء الآن يا أستاذ كمال، يجب أن ننتظر ونرى كيف تتطور الأوضاع. المهم الآن هو إنقاذك من هذه الورطة الخبيثة"

" نعم يا حبيبي يا محفوظ السلامة، الأمر والنهي من الآن فصاعدا بيدك انت. سوف لا اتحرك خطوة دون ان استشيرك"

سأل شمس الدين بلهجة مواسية:

" أرجو أن يكون توترك الداخلي قد زال بعض الشيء"

" لقد زال نهائيا يا حبيبي وحلت محله فرحة غريبة لا توصف"

اطبق عليهم صمت عميق استمر لعدة دقائق، تخلله تبادل نظرات من قبل كل من عزيزة وخير الدين. احس شمس الدين أن عزيزة يهزها

تعليق ما. وهي حين تتحدث أو تعلق، إنما عن إدراك وحس واسعين، لا يؤديان إلى أي ورطة في الموقف. حدق شمس الدين في عينيها قائلا:

" أعتقد أن ست عزيزة تريد أن تبدي رأيها في أمر ما. نحن مشتاقون إلى كلامك يا ست عزيزة"

قالت ببشاشة وطيبة:

" إذا سمح لي الأستاذ كمال.."

علق كمال فورا:

" العفو ست عزيزة، تفضلي. أنا افتقدت رأيك على طول الجلسة"

" هل يؤنبك ضميرك لإعطاء الأمر بقتل الخطيب الذي لم ينطق بكلمه؟"

أجاب كمال بلهجة من يريد أن يبرر فعله:

" انظري يا ست عزيزة، إن من يلبس البدلة الرسمية للشرطة، يجب أن لا يفكر بالضمير، وإلا ينبغي عليه أن يرمي بدلته في أقرب مزبلة. أنت، مهما كانت رتبتك، فأنت شرطي عادي بنظر الحكومة، تعاملك كأداة طيعة لتنفيذ أوامرها. ولذلك لم يؤنبني ضميري لإعطاء الأمر بقتل الخطيب، ذلك لأنني لست أنا الذي أعطى الأمر بالقتل. إن الأمر جاء من فوق. وأما أسباب إعطاء الأوامر بالضرب والقتل في مثل هذه الحالات، فمسألة أخرى يمكن فهمها ضمن نظرية ولاية بطيخ التي يعرفها الشيخ شمس الدين أحسن منا جميعا. أليس كذلك يا محفوظ السلامة؟"

أضاف شمس الدين بتواضع:

" كلا أبدا، إنني لست أحسن منكم في فهم هذه النظرية، ولكنني استنتجت من كلامك الحكيم بأننا إذا بدأنا بفكرة تأسيس ولاية بطيخ جديدة، يجب علينا أن لا نستغني عن ارتداء البدلة الرسمية واستعمال القبضة الحديدية لإرساء الأسس المطلوبة في هذا الأمر"

" بالضبط يا محفوظ السلامة. يجب أن نكسر العيون من أول وهلة، وإلا سنتحول إلى قره قوز رخيص"

أحس شمس الدين إن قريحة صاحبه، حول ما يخص ولاية بطيخ، قد بدات تتفتح بشكل مدهش، واستنتج أن السبب الذي يدفعه إلى الركض إلى أمام بهذه السرعة هو خوفه من إلقاء القبض عليه فهو يريد أن يتغدى بهم قبل أن يتعشوا به. ورأى أن مثل هذا التفكير الارتجالي، لاشك سيؤدي بهم إلى اقتراف اخطاء خطيرة تؤدي حتما إلى أن يفقدوا رؤوسهم.. كلا، كلا.. إن مجرد التفكير في هذه المسألة حاليا، سابق لأوانه. إن الظرف غير ناضج. وقال وهو يحاول أن يدفع تفكير صاحبه إلى وجهة اخرى أكثر واقعية وذلك بتهدئة روعه:

" انا أفهم طروحاتك النبيلة يا أستاذ كمال وشروعك الجليل في إنهاء الأوضاع، ولكنني اريد أن أقول لك أن العجلة من الشيطان والصبر من الرحمن. ما زال أمامنا المزيد من الوقت والعمل الجاد قبل البدء بالخطوة الحاسمة"

قال كمال بلهجة يائسة:

" وإذا القي علي القبض؟ سيكون المشروع في خبر كان"

قال شمس الدين محاولا تهدئته:

" كلا، لا يلقى عليك القبض ولا هم يحزنون. وإذا صدر مثل هذا الأمر فان خبره سيصلنا فورا، ثم لدينا الإمكانية الكافية لإبطال مثل هذا الأمر. هل يكفي هذا يا أستاذ كمال؟ واسمح لي أن أقول لك بأن الشخص الذي يصدر مثل هذا الأمر لم يولد بعد"

قال كمال بابتهاج"

" بارك الله فيك يا محفوظ السلامة. الآن ارتاحت نفسي المضطربة وسوف أنام هذه الليلة بدون كوابيس وأحلام مزعجة"

عندما غادرهم كمال، قالت عزيزة، موجهة كلامها إلى شمس الدين:

" ما هذه الوعود الحاتمية التي اغدقتها عليه يا شمسي؟ الا تقل لي من أين تستمد سلطاتك الخيالية هذه؟"

اجاب شمس الدين مبتسما بخبث:

" لا ضريبة على الكلام يا حبوبة. المهم إننا تضامنا معه. ولينطح الجدار. وأما من أين استمد سلطتي، فمنك أنت يا عزيزتي"

(١٧)

سمع كمال في اليوم الثاني، عند مباشرته بالدوام في الساعة الثامنة، خبر وفاة المدعي العام. قال في نفسه بابتهاج وغبطة:

" لقد فعلها الشيخ إبراهيم، شرف الدين افندي"

ثم هرع إلى التلفون ليبلغ شمس الدين بالخبر السعيد. قال له هذا ياستهزاء أنه سمع بالخبر يوم أمس. وكان أن قال في نفسه مرة أخرى:

" فعلتها يا محفوظ السلامة. إن كلامك فيصل حقا"

عندما أعاد السماعة إلى مكانها، وقعت عيناه على بريد اليوم وهو موضوع بعناية في المحفظة المخصصة له. شعر بارتفاع في دقات قلبه وراح يقلبه بيد مرتجفة. ها هي صورة صباح برفقة كتاب رسمي، تلقفه بسرعة وهو يقرأ بلهفة:

....

إلى كافة الدوائر والأقسام والمديريات والشعب

يرجى عرض الصورة المدونة أعلاه على كافة المنتسبين بغض النظر عن درجاتهم الوظيفية والاستفسار عنهم ما إذا كانوا يعرفونه، على أن

تكون الإجابة بنعم أو لا. وفي كلا حالتي الإجابة، يسجل الاسم الكامل مع عنوانه ويرسل إلينا فورا على أن يصلنا جوابكم خلال مدة أسبوع من تاريخ صدور هذا الكتاب.

التوقيع/ مدير التحقيقات الجنائية العام.

وقع الكتاب عليه مثل الصاعقة وخر على الكرسي وهو يعيد قراءة الكتاب، دون أن يصدق عينيه. كنت تريده على أحر من الجمر، فخذه إذاً. أليس هذا الخطاب صادر من مقام الباشا؟ وبالذات بسببك أنت؟ أنت فحسب؟ إنه الآن محاصر فعلا ويجلس مباشرة تحت سيف الوقت الضيق الذي لن يفسح له حتى بمجرد التفكير في المسألة. ما عساه أن يكتب؟ نعم أم لا؟ إن أجاب بنعم، فمصيبة وإن أجاب بلا، فالمصيبة أعظم. ماذا لو لم يستجب للطلب ويهمله؟ إن عدم الاستجابة أيضا مصيبة أخرى. لقد ضيقوا عليه الخناق، فلا منقذ له. هذه هي نهايته. لقد نصبوا له فخا محكما، وهو من حيث يريد أو لا يريد، مكبل في الفخ، لا يمكنه الخروج منه. إنهم لم يكتفوا بنصب فخ واحد له فحسب، بل أوقعوه بكل بساطة في فخ آخر هو مقتل قائد التظاهرة الذي لم يفتح فمه. إنه في قبضتهم في كل الأحوال. وأمامه طريقان لا ثالث لهما، وهما: إما أن يستسلم لهم ليفعلوا به ما يشاءون أو يتمرد عليهم بطريقة ما ويسحب البساط من تحت أقدامهم. وفكر في زوجته ومصيرها في حال إلقاء القبض عليه وتقديمه للمحاكمة، ولكن أين هي الأدلة الثبوتية ضده؟ ألم يشرح له شمس الدين، هذا الابليس الذكي كل شيء؟ وأكد له بكل قناعة أنه بريء ولا خوف عليه؟ إنه بلا شك موضوعي في نظرته. ولكن، كيف ينبغي عليه التصرف الآن؟ نعم أم لا؟ إنه بحاجة إلى شمس الدين. عليه أن يزعجه مرة أخرى، والإزعاج لابد منه. هو نفسه أكد عليه بأنه سيقف

إلى جانبه في الملمات. كما أن الموضوع يهم شمس الدين وعزيزة وشلتهما أيضا. إنها مسألة تقرير مصير الجميع، لذلك يجب أن يتصل بشمس الدين في أسرع وقت ممكن. ينبغي أن يكون جوابهم جماعيا وهو في كل الأحوال لا يريد أن يتحمل المسئولية بمفرده. وراح يتيه في دوامة من التفكير المضطرب، دون أن يتمكن من الاستقرار على راي معين. ثم فكر في جنية عزيزة التي تلعب دور طائر السعادة الذي جلب لها ولشمس الدين كل الخير والبركة، فلابد أن يساعده هذا الطائر الساحر في محنته ايضا وينقذه من المأزق الذي يتلوى فيه. وادى به تفكيره إلى أن يعالج المشكلة وحده، دون أن يعتمد على مساعدة احد، ولكنه سرعان ما وقف أمام السؤال الحائر: "كيف؟". ونقلته افكاره إلى ايام الكلية وبداية حياته العملية حين تم تعيينه ضابطا في احد اقسام الشرطة. وتذكر كيف انهم شكلوا فيما بينهم تنظيما سريا أسموه:"ضباط المقاومة" من أهدافه: مقاومة الظلم والفساد والجهل والاستعمار والعمل من أجل تحقيق الاستقلال الوطني. وتمكنوا من إيجاد الصلة بمجموعة من الضباط في الجيش، تحمل نفس الآراء. وحين جرى الاقتراع السري لانتخاب المسئول الأول،ابى إلا أن يكون هو المسئول الأول بدعوى إنه اكبر سنا وأعلى ثقافة، وكان أن رده صباح باستخفاف بأنه مجرد إمعة انتهازي لا يستحق أن يكون حتى عضوا بسيطا في صفوفهم. ومنذ ذلك اليوم انقطعت صلته بهم. وفكر في إيجاد الصلة من جديد وتحريضهم على القيام بحركة انقلابية، تطيح بالوضع القائم وتزيل ولاية بطيخ، لتحل محلها ولاية بطيخ جديدة بمعاونة شمس الدين ورهطه. آنذاك سيتخلص من القال والقيل ومن حكاية القتل والقتيل. ومن أجل إقناع الطرفين بحتمية نجاح الحركة، سيدعي أمام شمس الدين بأنه يملك تنظيما سريا في القوات المسلحة، وسيدعي أمام تنظيم ضباط المقاومة

بأنه يقود تنظيما شعبيا واسعا في صفوف الجماهير. وارتاح لهذه الفكرة التي داهمته مثل اندلاع شرارة. ولكنه سرعان ما خذل من مشروعه، عندما فكر بسيف ضيق الوقت المسلط عليه. إنه سيحتاج إلى فترة غير قصيرة إلى أن يعثر على الضباط المنتشرين هنا وهناك، ناهيك عن الحاجة إلى الوقت من أجل إقناعهم بالفكرة. مع ذلك توقف عند الفكرة وقرر أن يطرحها على شمس الدين. وهنا عاد إليه حماسه من جديد. ووجد نفسه بعد الاستيلاء على محطة الإذاعة، التي يحرسها بضعة أفراد من الشرطة التابعين له، يلقي بيانا على الجماهير الحاشدة التي تصيح: عاش القائد العظيم، عاشت الثورة. أول إجراء يقوم به بعد نجاح الثورة، هو الحكم بالإعدام على وزير الداخلية بتهمة قتل الخطيب الثوري الذي كان يقود مظاهرة سلمية ضد الحكومة وبذلك يبرئ ذمته من التهمة، على الأقل أخلاقيا. وثاني إجراء يقوم به هو إعدام رئيس الوزراء لتوقيعه على معاهدة استعبادية مع الاستعمار وثالث إجراء هو إقامة نصب تذكاري للشهيد البطل صباح ليزيل بذلك كل أثر يذكر بالجريمة، والإيحاء بأن عصابات الدولة هي التي اغتالته غدرا وظلما. ورابع إجراء هو إلقاء القبض على شمس الدين وعزيزة مع شلتهما ومصادرة أموالهم وذلك بتهمة الدعارة ومخالفة تعاليم الدين الحنيف، إذ أن ديدن الثورة هو العدل الذي يجب أن يطبق حتى على أنصاره. وقبل أن يصل إلى الإجراء الخامس، أيقظه الفراش سعيد من أحلام يقظته قائلا:

" سيدي المقاول عبد الجبار أفندي يريد زيارتكم"

قال وهو يتذكر المكالمة التلفونية التي اتفق بموجبها يوم أمس على اللقاء بالمقاول عبد الجبار أفندي في مكتبه:

" ليتفضل، على الرحب والسعة"

ودخل رجل ضخم وهو يقول بصوت أبح عال:

" عاش من شافك يا أستاذ كمال"

وتعانقا بحرارة. وحين أشر له كمال باتخاذ مكانه على الكرسي القريب من مكتبه، اعتذر المقاول لضيق وقته، وذلك لارتباطه بمجموعة من المواعيد الضرورية. أخرج من جيبه مظروفا سميكا، دسه في يده وهو يقول:

" لا تنسنا في المناقصات الأخرى يا أستاذ كمال"

" أنت دائما في البال يا عبد الجبار أفندي، بالمناسبة تمت الموافقة على مشروع بناء بيوت لضباط الشرطة. استعد للمناقصة القادمة"

قال عبد الجبار أفندي وهو يترك الغرفة:

" أنا خادم الدين والدولة يا كمال بك"

ما أن اغلق الباب، إلا ومد كمال يده إلى جيبه ينظر بلهفة إلى محتوى الظرف: ألف دينار. وتنفس الصعداء، بيد أن كآبة ما بدأت تسري في كيانه وتظلل مزاجه بالسواد والقنوط. وعاد إلى عالم أحلام يقظته التي قطعتها زيارة المقاول عبد الجبار أفندي السعيدة. وتمنى لو كانت الزيارات كلها من هذا النوع.

وفكر أنه بحاجة إلى شمس الدين، هذا الإبليس الذكي، ذي الرأي الصائب في الأمور الحاسمة، حامل أسراره وكاتمها والمستولي على قلب حبيبته ومالك جنيتها الساحرة، التي لا تجلب لهم سوى الخير والنعمة. هنا داهمته حسرة عميقة، حسرة رافقتها شهقة ألم وشوق وأسف لشيء مضى وذهب إلى الأبد دون أن يعود. وقال في نفسه: "أجل سيعود، لابد أن يعود. إنه سيعود عندما يرفعونه على الأكتاف والجماهير تصيح من ورائه:

" عاش قائد الثورة العظيم، عاشت الثورة"

وهـذا الـشيء الـذي سـيعود حتمـا ونادمـا بعـد حجـزه في غياهـب الـسجن، هـو "عزيـزة" المغـرورة، حيـث سيلبـسها الملابـس الـسوداء ويغطـي رأسـها بمـلاءة سـوداء أيـضا، جـاعلا منهـا سـيدة ولايـة بطـيخ الأولى. وحين يدخل عليها لأول مرة بعد الزواج الرسمي، يقول لها:

"الحب القديم لا يصدأ يا حبيبتي"

ويحـاول أن يعيـد إلى أذهانهـا بـأن مـا فعلـه معهـا لأول مـرة لم يكـن اغتصابا، بل رجولة حقيقية وحقا شرعيا أعقبه هذا الزواج بعد عقد من السنين. وعليهـا أن تعـرف جيـدا بأنهـا كانـت ملكـه هـو وحـده، بـدليل أنـه أجرم من أجل هـذا الحـب، وذلـك بقتـل صديقه الحميم صـباح. كمـا وأنـه وقـع مـن أجلـها هـي، هـي فحـسب في الفخ الـذي نـصبه لـه شمـس الـدين. وتحمـل ولم يـزل الـذل والهـوان مـن أجلـها هـي. وحتـى علاقتهـا الـسرية بصباح من وراء ظهره، قد تحملـها علـى مـضض وبمـسامحة يـستحيل أن يقوم بها غيره. علـى أي حـال، سيأخذ كل شـيء مجراه الطبيعـي فيمـا بعـد. وأمـا إذا أخـذت الأمـور تـسلك مجـرى آخـر، فينبغـي عليـه أن يقـر بالواقع المحيط به، فهو على كل حال لـيس بمقدوره لـوي ذراع الأحـداث والتحكم بما لا يمكن التحكم فيه.

قـام مـن مكانـه وراء مكتبـه وراح يـذرع أرض الغرفـة ذهابـا وإيابـا كعادته حين تضيق به الأمور. رأى أن الموقف يتطلـب الـسرعة وأنـه لابـد أن يتـصل بـشمس الـدين في أسـرع وقـت ممكـن. ولجـأ إلى جهـاز الهـاتف، ملاذه الآمن. تبين لـه من المخابرة أن شمس الدين كان نائمـا، فأيقظـه، إذ أنه سمعه بوضوح وهو يتثاءب:

" العفـو يـا محفـوظ الـسلامة، لـيس لـي خيـار آخـر. يجـب أن نلتقـي في أسرع وقت ممكن. لقد دقت الساعة التي كنا نتوقعها"

عرف شمس الدين أن القضية مهمة جدا وخطيرة، قال بصوت جاد:

" أشكرك للمخابرة، أنا حاضر اعتبارا من هذه اللحظة. أنا بانتظار أمرك"

" لا أمرك ظالم. سأزورك مثل يوم أمس"

" سأنتظرك بلهفة، مع السلامة"

عندما انتهت المكالمة التلفونية، أحس بنفسه طليقا حرا مثل طائر هائم في الفضاء، يحمله جناحاه بخفة وحيوية مثل ريشة في مهب الريح، لا يهاب شيئا في السماء اللانهائية الزرقاء، بيد أن هذه الهنيهة من التفكير لم تدم أكثر من لحظات قصيرة سرعان ما انطفأت ليحل محلها خوف من هجمة مفاجئة لصقر هائل لا يبقي منه سوى الريش. وفكر إذا ما كان هو الطائر المسالم أم الصقر الجارح؟ ورأى أن الجواب ليس عنده هو، بل عند شمس الدين الذي يمكنه أن يرى الأشياء من زاوية أخرى وبعينين أخريين.

بعد الانتهاء من المكالمة التلفونية، استيقظ شمس الدين وترك الفراش، إذ أنه لم يتمكن من مواصلة نومه. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف صباحا. قال وهو يداعب وجه عزيزة التي قامت هي الأخرى من مكانها:

" اعتقد إننا، إن شئنا أم أبينا، قد تورطنا بصاحبك كمال افندي"

قالت باستنكار واحتجاج:

" أنا متورطة به منذ أن كنت مراهقة صغيرة. إنه يلتصق بالإنسان مثل الزفت. ويركض وراءك مثل الكلب. مهما طردته، يأتيك وهو يلوي ذيله بخنوع، منتظرا منك العطف والمغفرة. هذا هو كمال بك أفندي. إنه إذا لم يجد أحدا يعاديه، يعادي نفسه، ذلك أنه معجون بالخراء المركز. لا يمكنك التخلص منه بسهولة"

قال بلهجة مهدئة مداعبة:

" انت تبالغين في حقدك عليه يا حبيبتي"

" أنا لست حاقدة عليه. إنه هو يحقد على البشرية. حاول أن تتخلص منه، ولنر إن تمكنت من تحقيق ذلك"

" لا تخافي يا حبوبه. سأفرض عليه شروطا تعجيزية، ينوء تحتها اكبر بعير، فإن تحملها، سيكون جديرا بالعمل معنا، وإلا ينبغي عليه أن يطرق بابا آخر"

قالت عزيزة وهي في طريقها إلى الحمام:

" إذا أحس بأنك تجبره على طرق باب آخر، ينقلب عليك مثل العقرب. إنه سيعترف علينا على هدى المقولة، علي وعلى أعدائي يا رب. لا يهمه ما سيحصل له، بل يهمه ما سيحصل لك. فكر جيدا بما تقرره يا حبيبي، أنت لا تعرف كمال كما اعرفه انا. تذكر انك اهنته ودسست عليه بحذائك وجعلته إنسانا ذليلا لا إذلال بعده"

قال وهو يتوجه نحو المطبخ، بأنه سيعد الفطور على أن يواصلا حديثهما عند تناوله. واكد لها بأنه يهمه جدا أن يستمع إلى ملاحظاتها التي يجدها قيمة جدا. وأنه ينبغي أن يفكر جيدا قبل أن يتورط في دخول مشروع ما معه. وضع الغلاية على النار وهو يفكر في كلام عزيزة ولهجتها الشديدة ضد كمال، تلك اللهجة التي اشتدت في الآونة الأخيرة بشكل ملحوظ.

مع بدء الفطور أراد أن يعرف منها سبب تغير لهجتها ضد كمال، هذا التغير الذي بدأ يحس به في الآونة الأخيرة. وهل يا ترى قد سبق له أن أساء إليها في غفلة منه؟ اجابت بأنه لا يستطيع الإساءة إليها وأما سبب تغير لهجتها فيكمن في أنها بدأت تحس، بأنه يريد أن يشترك مع كمال في مشروع

خطير. وانه في حال اشتراكه معه في مثل هذا المشروع، ستكون نهايتهم الهاوية وبئس المصير. اخذ شمس الدين كلامها بجد وراح يفكر بعمق في مصير العصابة ومصيرها هي بالذات. إنهم كرجال، سبق لهم أن عاشوا عقودا من الزمن في المقبرة، يمكنهم العودة إلى أسلوب حياتهم السابقة في أية لحظة، ولكن، هذه المرة، بمبالغ طائلة وموارد ثابتة في المدينة لا تنضب ولن تنقطع، بيد أن المشكلة تكمن في مصيرها هي ومصير عاطفتهم المشتركة ومصير زواجهما، إذ ثبت لهما انهما لا يتمكنان من العيش دون بعضهما. إنهما ذاقا رحيق الحب الحقيقي. واستغرق شمس الدين في شرود عميق. وفي لحظات قصيرة، أقصر من لمح البصر، داهمه يأس غريب لم يسبق له أن مر به من قبل، وأظلمت الآفاق من حواليه وسدت كل الدروب المؤدية إلى المخارج. واحس براسه يدور في حركة حلزونية تصعد به إلى فوق. احست عزيزة به وقد تغير لونه واصبح شاحبا، شحوب الموتى. سألت خائفة وهي تمسح العرق من جبينه:

" شمس الدين، ما بك؟"

اهتز شمس الدين وانتابته رجفة، أعادته إلى وضعه السابق، قال بصوت مرتجف:

" لا شيء يا حبوبة، كل شيء على ما يرام. فكرت في كلامك بعمق، واستنتجت أن هذا الإنسان غير صادق معنا. إنه يريد أن يستغلنا للتخلص من مشكلته، ولكننا يجب أن نجاريه ونرى إلى أين يؤدي بنا، على أن نكون حذرين جدا معه. لنر ماذا يحمل في جعبته اليوم"

قالت عزيزة بثقة مطلقة وهي ترتشف الشاي من الإستكان:

" انا اعرف ماذا يحمل في جعبته. إنه منذ أن كان طالبا في الكلية، يحلم أن يكون قائدا كبيرا ولو على حساب خراب الدولة أو القيام بانقلاب دموي. كانوا يعقدون اجتماعاتهم في بيتي، ولكنهم لم يتوصلوا إلى أي نتيجة، إذ كان

هو لا هم له سوى الزعامة. وكان أن حدثت، كما قلت من قبل، مشادة بينه وبين صباح. ومنذ ذلك اليوم لم يلتقوا في بيتي"

وراح شمس الدين يدمدم مع نفسه كما لو انه يهذي. وعرفت عزيزة أنه دخل صومعته الداخلية، لذلك تركته يتكلم كما يشاء:

كنت من قبل افكر مثله، ولذلك فهمني جيدا. وهو معجب بإمكاناتي ويعرف بأنني اتمكن من تسهيل الأمور له، ولكنني فكرت ماذا تراني احصل عليه اكثر مما احصل عليه الآن. إن أسواق المدينة كلها تحت سيطرتنا. قنواتنا الثلاث" الخياط أيوب، دنخة وسالم الجربوع، تحولت إلى ينابيع تتدفق منها الفلوس مثل دجلة والفرات. إنه يعرف بهذه الحقيقة جيدا، وبعض الفضل في ذلك يعود إليه. أرسلنا إلى جهاز الأمن والاستخبارات عشرات الشباب الذين يأخذون أوامرهم من عندي مباشرة. تمكنا من لوي ذراع أخطر اللصوص. ولاية بطيخ تحولت بفضلنا إلى ولاية جنة، ولكن لنا نحن، صعاليك المقبرة. مالي ومغامرة قد تطيح برؤوسنا؟ كلا. إنه لا يستطيع إقناعي من أجل الركض وراء خياله. إنه يريد أن يجرني إلى إنقاذ رأسه من حبل المشنقة. وحين يفلح فيما يبغي إليه وتستقيم له الأمور، ينقض علي كانقضاض الصقر على الأرنب وذلك كي يستعيد عزيزته وينتقم للذل الذي تعرض له. كلا، إن الاعيبه لا تنطلي علي...

التفت إليها كما لو انه استيقظ من حلم:

" هل كلامي صحيح يا حبوبة؟"

انشرح وجهها بابتسامة عذبة:

" صحيح جدا يا حبيبي، لأول مرة أسمع منك كلاما من هذا القبيل"

" وانا بدوري اراك تستمعين إلي لأول مرة بجد ايضا"

" صحيح، اعاهدك من الآن فصاعدا بأنني سوف اسمعك بكل جد"

" كلمة خاطئة واحدة قد تؤدي إلى الإطاحة بالرأس، وكلمة صحيحة واحدة قد تؤدي إلى إنقاذ الراس"

واتفقا على أن يشارك كالعادة خير الدين وشرف الدين في اللقاء الذي سيحصل مع كمال في الساعة السادسة. ورأيا انه من المستحسن أن يتركوه يسترسل في الكلام وإفراغ ما في جعبته من آراء، دون مقاطعته أو تقديم الأجوبة على أسئلته والاكتفاء بتحديد موعد آخر معه، تقدم خلاله إجابة تفصيلية على مقترحاته.

أطبق عليهما صمت غير قصير، انشغلا خلاله بمواصلة تناول طعام الفطور. كانا يأكلان بشهية كبيرة. ويبدو أن توصلهما إلى قرار حاسم موحد تجاه كمال، قد لعب دوره في فتح شهيتهما التي لم تكن على ما يرام عند استيقاظهما من النوم على أثر المخابرة المفاجئة. خلال تفكيره بكلام عزيزة، استنتج شمس الدين أنها، من حيث تريد أو لا تريد، حددت موقفها من فكرة ولاية بطيخ، التي جمعتهم منذ البداية، بشكل آخر، لا سيما بعد أن رأت النجاحات التي أحرزها شمس الدين في مجال إيقاف السرقات الليلية والاعتداءات التي لم تتمكن الشرطة من وضع حد لها. ويبدو أن أصحاب المحلات والحوانيت والمخابز والمطاعم والدكاكين، راضون من الموقف، بدليل أنهم لا يتوانون عن دفع أتاواتهم بانتظام. ليس من الضرورة إذاً إزاحة ولاية بطيخ القائمة، لتحل محلها ولاية بطيخ جديدة. يكفي أن ولاية بطيخ تهيمن ليلا على العاصمة. أخبر أحد أصحاب الدكاكين جاره بأنه نسي أن يقفل دكانه بسبب التباس الذي حصل له. وفي وقت متأخر من الليل، استيقظ مذعورا وهو يتذكر ما نساه، فهرع إلى دكانه حافيا، ولما بلغه وجد شرف الدين وهو يجلس القرفصاء أمام دكانه، كأي حارس أمين وهو يعاتبه قائلا:

" هل من الصحيح أن لا تقفل دكانك يا صاحبي؟"

وسرى هذا الخبر في المدينة، كسريان النار في الهشيم. أهي لعبة؟ أم حقيقة؟ لا يهم. المهم أن سمعة الجماعة قد بلغت السقف. وذات يوم تم العثور على جثة أخطر حرامي مرمية في سوق القيصرية، قيل أنه حاول ابتزاز صاحب بار ليلي. إن الأمور إذاً ماشية حسب الأصول، فلماذا الدخول في إيراد ومصرف زائد والركض وراء مغامرات كمال غير المضمونة. ولكن كمال سيظل يشكل مشكلة جدية له ولعصابته.

كانت عزيزة تتأمله بدقة ووجدته غارقا في تفكير عميق، نقله إلى عالم آخر بعيد. كانت تريد أن تعرف أين حط به الرحال، فضربت برقة بملعقتها على حافة الاستكان بعدة ضربات خفيفة، سرعان ما أخرجته من شروده. وراحت تدمدم له بأغنية: وين رايح وين؟...وين الوعد وين؟ وبحركة عشوائية لا إرادية، اندفع نحوها يعانقها بقوة، وهو يقول:

" انا بحاجة إليك فعلا يا عزيزة، لا يمكنني العيش بدونك"

" الطيور على أشكالها تقع. وأنا أحتاجك اكثر مما انت تحتاجني. كنت تفكر في كمال. اليس كذلك؟"

قال بلهجة جادة:

" صحيح، افكر فيه، كنت لا اعرف حقيقته من قبل. انت كشفتيه بشكل صحيح جدا. عرفت الآن أنه يشكل خطرا كبيرا علينا. لو كنت أعرف ذلك، لما عاملته بالشكل الذي حصل. انا لم اكسر عظمه، ولكنه سيحاول أن يكسر رقبتي"

قالت عزيزة بارتياح:

" وأخيرا توصلت إلى الحقيقة، ولكن لا تخف يا حبيبي. إن ذيله بيدنا، يمكننا القضاء عليه متى ما نشاء"

قال شمس الدين بتذمر:

" عدت إلى نفس الاسطوانة القديمة. ليس القتل هو الحل دائما. ولا نريد الانتقام من أحد. القتل هو آخر ما يجب أن نفكر فيه"

أقرت عزيزة في داخلها بأن انفعاله له ما يبرره. وأن صاحبها، الذي تعرف بأن جراته لا حدود لها، هو الآخر إنسان من لحم ودم. وأن مخاوفه طبيعية ومشروعة، فالجراة لها حدودها ايضا، إذ أن الشجاعة ليست مطلقة. وأما الشجاعة المطلقة، فنوع من الغباء.

وصل كمال في الوقت المحدد بسيارة تاكسي شوفرليت اكل عليها الدهر وشرب. لم يكن اتخاذه لمثل هذه السيارة المستهلكة من باب الصدفة. أختارها هو بنفسه، كي لا يتصور أحد بأن راكبها هو مدير الشرطة العام الذي أخفى نفسه بملابس عربية شعبية. وحين انصرف سائق التاكسي، اكد عليه أن يعود إليه في تمام الساعة الثامنة لأخذه إلى حيث جاء. قبل أن يطرق الباب، فتحه شرف الدين بدقائق، كي لا يظل ينتظر أمام الباب، هو المضبوط في مواعيده. تجمعوا كالعادة في غرفة الضيوف. قال كمال بعد الترحيب السريع، بأن أمامهم ساعتين من الوقت، لذلك يجب أن يبدعوا بالموضوع مباشرة. لم تنتظر عزيزة مبادرة أحد للكلام، قالت دون سابق اتفاق،أنه هو الذي اقترح الموعد فالكلام له. لم يعتد كمال على مثل هذه المبادرة التي قامت بها عزيزة، ولذلك راح ينظر إلى شمس الدين، منتظرا رايه. أجاب شمس الدين بشيء من الفتور:

" الم تسمعها يا أستاذ كمال؟ تفضل تكلم، الكلام لك"

حدثهم عن الكتاب الذي يريد الإجابة بنعم أو لا وبأنه حائر بين الإجابتين، ذلك أن كليهما مشكلة قد تؤدي إلى الإطاحة براسه. ثم قال أنه جاء لسببين، الأول: هل يجيب بنعم أو لا أو يهمل الكتاب، دون الإجابة ولينتظر استجابتهم. والسبب الثاني: هو معرفة رايهم في القيام بانتفاضة

تطيح بولاية بطيخ الحالية والإتيان بأخرى تتجاوب مع مستلزمات الظروف الحالية:

" هذا باختصار هو السبب الذي أدى بي إلى أن آخذ من وقتكم وازعج راحتكم، ولذلك اردت أن آخذ من وقتكم ساعتين فقط"

قال شمس الدين بابتسامة ساخرة:

" وهل تريدنا أن نبدي رأينا حول نعم أو لا وتقرير مصير ولاية بطيخ خلال ساعتين فقط؟ هل انت جاد حقا فيما تقول يا أستاذ كمال؟ إن الساعتين ستنتهيان قبل أن نبدأ بالنقاش. واما إذا كنت تريد أن تطرح علينا افكارك ومقترحاتك، على أن نبدي رأينا حولها ومن ثم نناقشها معا في وقت آخر نتفق عليه، فموضوع آخر يمكن الاتفاق عليه. اندفع كمال بسرعة قائلا:

" كلا، كلا، يا محفوظ السلامة. لا يمكن تأجيل الموضوع أبدا، يجب أن نحسم كل شيء في هذا المساء، كي يتسنى لي التحرك على ضوئه. إن حسم الأمور مهم بالنسبة لي جدا"

قال شمس الدين بهدوء:

" يبدو لي أنك منفعل جدا يا أستاذ كمال، وإصدار القرارات في مثل هذه الحالة، سيكون ارتجاليا لا يؤدي إلا إلى الفشل. قبل كل شيء ينبغي أن نحل مشكلتك. لا تنس أنك متهم بقتل شخصين...."

قبل أن يكمل شمس الدين كلامه، قاطعه كمال قائلا:

" شخصين؟ من أين عرفت ذلك؟"

أجاب شمس الدين بثقة مطلقة:

" الكل يعرف ذلك. انت كنت مسؤولا عن سير التظاهرة. والشخص الذي اطلق النار على الخطيب وارداه قتيلا، إنما اخذ الأمر منك انت، ولذلك فإن الحديث عن الانقلاب سابق لأوانه يا أستاذ كمال"

اطرق كمال برأسه وراح ينظر إلى الأسفل ويتأمل طرفي فردتي حذائه، قال بعد هنيهة صمت وهو يرفع راسه الثقيل لينظر في وجه شمس الدين:

" كلامك صحيح يا محفوظ السلامة. يجب إخراجي أولا من الورطتين"

تدخلت عزيزة قائلة بصوت رقيق:

" وما هو حلك انت؟ هل فكرت في حل ما؟"

اضاف شمس الدين مؤيدا عزيزة:

" بالضبط، هذا ما أردت أن أطرحه عليك يا أستاذ كمال"

قال كمال كما لو انه تذكر شيئا:

" انا فكرت في عدة حلول دون أن استقر على حل واحد، ولذلك أريد استشارتكم"

سأل شمس الدين:

" هل من الممكن ذكر حل واحد فقط أو اهم حل في نظرك؟"

أجاب كمال وهو يعبر عن انفعالاته بيديه:

" الحقيقة فكرت في حل غريب، قد لا يرضيكم، ولكنني رغم ذلك لا أخفيه عليكم وأرجو أن لا تؤاخذوني على التفكير في مثل هذا الحل الذي يمكن اعتباره خطوة انهزامية، ولكنها قد تؤدي إلى نتيجة إيجابية لتخليصي من هذه التهمة الجاثمة على صدري. والحل هو طلب مقابلة الباشا شخصيا لأمر مهم. وعند لقائي به أعترف بأن الحادث قد حصل كقضاء وقدر بين صديقين حميمين، كنا فعلا صديقين حميمين والست عزيزة على علم بذلك، وإني مستعد لدفع الدية المطلوبة من عندي مع تقديم الاعتذار لوالد المرحوم ولا مانع لدي من تقبيل يديه ورجليه، فهو مهما كان أبو صديقي المرحوم. وعند تحقيق هذا الحل، نكون قد أجلنا مشروع ولاية بطيخ. إن التأجيل لا يعني الإلغاء"

قال شمس الدين بحماس:

" فكرة جيدة، ولكن من يقول أن فخامة الباشا لا يحيل الأوراق معك ومع اعترافك إلى القضاء؟"

قال كمال ساخرا:

" آنذاك يمكنك قراءة الفاتحة علي... ولكنني لا أعتقد أن الباشا سيتصرف بهذا الشكل مع عضو حزبه"

قال شمس الدين باستغراب:

" لم تنبئني بهذا الأمر من قبل"

قال كمال بلهجة شبه اعتذار:

" مسألة غير مهمة، ثم لم تأت المناسبة التي ستدعي ذلك. والآن عرفتم بالموضوع"

علق شمس الدين:

" بالعكس، إنها مسألة مهمة جدا. يمكننا أن ندخل حزبه عن طريقك"

تساءل كمال بلهفة:

" هل أفهم من كلامك أنك موافق على الحل؟"

قال شمس الدين بعد تفكير عميق:

" كل الموافقة.. والآن عرفت لماذا أنيطت إليك مهمة مراقبة التظاهرة وفتح النار على المتظاهرين بلا هوادة"

قال كمال وكأنه يستدرك شيئا:

" كنت في الحقيقة نسيت أمر عضويتي في حزب الباشا. هل العضوية شيء مهم فعلا؟"

أكد شمس الدين بصرامة:

" ستعرف ذلك فيما بعد يا أستاذ كمال، ولكن لا تنس أن تفتح لنا باب الحزب، كي ندخله نحن أيضا آمنين"

" ومشروعنا ولاية بطيخ؟"

" سنؤجله إلى إشعار آخر"

نظر كمال إلى ساعته. إنها السابعة والنصف. قال بلهجة انتصار:

" ما زالت أمامنا نصف ساعة فائضة. هل هناك شيء لم نبحثه بعد؟"

قال شمس الدين بارتياح:

" أعتقد إننا اتفقنا على كل شيء، بقي أن نشرب نخب الحل الناجح الذي طرحه علينا الأستاذ كمال"

قامت عزيزة من مكانها بارتياح قائلة:

" سأجلب لكم الشرب بنفسي لهذا الحل السريع المتفائل"

قالت ذلك وهي لا تصدق في نفسها بأن الباشا سيكون عونا له، بل انه سيواجه حبل المشنقة التي يستحقها بكل جدارة. واعتقدت في قرارة نفسها أن جلسة الشرب هذه إنما هي آخر جلسة معه. وتمنت ذلك من أعماقها.

(١٨)

لم يتمكن ابو صباح من العثور على جثة ابنه ولا على قاتله بالاعتماد على جهوده الشخصية التي وجد أنها غير مجدية في كشف معالم الجريمة. وبعد أن مسح الريف مسحا جيدا، تبين له أن مكان الجريمة ليس هناك، بل في العاصمة، هذه المدينة الصاخبة التي لا يمكن التوصل إلى أسرارها إلا عن طريق الدولة التي لها أجهزتها الراقية في الكشف عن الجرائم وخبرائها المختصين في هذا المجال. ورأى أن احسن حل للتوصل إلى نتيجة نهائية، هو أن يقدم طلبا إلى الباشا يسترحم فيه منه التدخل للتحقيق في مصير ابنه أو على الأقل العثور على قبره، كي يتسنى له نقل الرفات إلى قريته ونصب قبر لائق بمقام العائلة.

الباشا يحيل الطلب إلى وزير الداخلية.

وزير الداخلية يطلب ملفات حوادث القتل التي حصلت في خلال السنة المنصرمة، لا سيما في مجال الدولة.

من ضمن الملفات التي أرسلت إلى الباشا، بناء على طلبه، ملف صباح الذي عثروا في جيبه، بعد مقتله، على هوية مزورة لشخص اسمه مهاوش زعيان. وبعد البحث عن هذا الاسم في جميع انحاء الولاية، تبين أن هذا

الشخص يشتغل سركالا في بيت أبو صباح، وحين تجري معه التحقيقات، يعترف بأن صباح طلب منه هويته لسبب لا يعرفه. وتبين، نتيجة لكشف التحقيقات الجنائية، أن الهوية مزورة بدليل أن الصورة لصباح وليس لمهاوش. وحين وصل هذا الخبر إلى الباشا عن طريق وزير الداخلية، ذلك أن الباشا كان يتابع الخبر بنفسه، طلب الأخير ملفات صباح وصحبه منذ أن كانوا طلابا في الكلية، إلى يوم تنقلهم إلى آخر وحدة في العاصمة، حيث تم نقله آخر مرة، بسبب وجود شكوك حوله بالعمل ضمن ضباط يسمون أنفسهم بجماعة ضباط المقاومة. واطلع الباشا على التقارير بنفسه وقرأ بإمعان كيف أن صباحا كان يحرض جماعته للقيام بالعصيان والفتنة ضد السلطة القائمة التي كان يعتبرها خادمة الاستعمار البريطاني. وكانت ملفاته مليئة بمثل هذه التقارير وأما أفراد جماعته فتفرقوا في أنحاء مختلفة بعيدة من الولاية. وحين اتصل الباشا بمدير الاستخبارات العسكرية مباشرة ووبخه لعدم اتخاذ الإجراءات اللازمة بحق صباح في حينه، أعلمه هذا بأنه كان تحت المراقبة المشددة، ولكونه نجل شيخ معروف وصديق للباشا، اكتفوا بمراقبته ونقله إلى إمرة الإدارة والشغل، حيث لا سلاح هناك ولا هم يحزنون. درس الباشا ملفات الضباط المعارضين بنفسه، وتوصل إلى معلومة صغيرة جانبية في ملف كل من صباح وكمال، وهي وجود عداء بينهما، تركهم الأخير على أثر مشادة، دون أن يعود إليهم. ومما جاء في التقرير أن كمالا لم يكن جديا في معارضته للدولة، بعكس صباح الذي كان يدعو إلى إسقاط النظام. واعتقد الباشا أن المشادة التي حصلت في الماخور وأدت إلى مقتل صباح، سببه سياسي فحسب، ذلك أنه مال إلى جانب كمال، الذي جاء في أكثر من تقرير واحد حوله، بأنه حين كان يقسم أمام الجنود، إنما يحلف برأس الباشا. ولذلك قرر مسبقا أن يحمي كمال ومن ثم يكسبه إلى جانبه لتنفيذ مهمات أمنية تحتاجها الدولة، إذ أنه اقتنع بأن كمالا قد أزاح ضابطا خطيرا

كان من الممكن أن يقوم بحماقة انقلابية ضد الوضع القائم. هذا وحين دقق الباشا قوائم أسماء أعضاء حزبه من الضباط، وجد أنه عضو فعال في حزبه "دولة القانون"، وذلك بخلاف صباح الذي رفض أن ينتمي إلى حزبه، كما جاء في أحد التقارير.

استدعى الباشا، وهو في حالة غضب، آمر الانضباط العسكري وطلب منه إحضار مدير الشرطة العام السيد كمال مجيد عزة إلى مكتبه فورا. كان ذلك في اليوم الثاني من لقاء كمال بشمس الدين وجماعته في بيت عزيزة. أدى الضابط التحية العسكرية، قائلا:

" نعم باشا، مخفوراً أم لقاء طبيعي"

قال الباشا وهو يذرع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً:

" لقاء طبيعي، ولكنني أريده خلال نصف ساعة لا اكثر"

" تؤمر سيدي"

ما أن ترك الضابط غرفة الباشا، إلا وأخرج جهاز التلفون اليدوي هوكي توكي واشغله بسرعة واتصل بكمال. بعد هنيهة قصيرة تمت عملية الاتصال. جاء صوت كمال من الطرف الآخر بانفعال واضح:

" نعم، تفضل"

قال الضابط بلهجة آمرة:

" كمال بك يكلمك آمر الانضباط العسكري. جناب الباشا يريد حضورك فورا إلى مكتبه. سأكون خلال عشر دقائق في مكتبك، إن شاء الله خير"

" إن شاء الله، أنا بانتظارك"

كان كمال مشغولا بكتابة عريضة يطلب فيها مقابلة الباشا في أسرع وقت ممكن وذلك، حسب ما كتبه في العريضة، لأسباب أمنية، وحين مسح جملة الأسباب الأمنية ليضع محلها جملة أخرى، أضبط، دق جرس التلفون. آنذاك تملكته مشاعر مختلفة، راحت تتقاذفه بين الفرح والخوف. وحين أبلغه

محدثه المقابل عن رغبة الباشا، مزق العريضة بصورة لا إرادية قائلا مع نفسه أن للباشا حاسة سادسة أو توارد خواطر. أحس بانهيار داخلي أعقبته رعشة خوف سرت في أعصابه المتوترة مثل تيار كهربائي: ماذا يريد مني الباشا؟ تزاحمت الأسئلة في رأسه وتراءى له حبل المشنقة الذي يحلق حوله شبحا صباح وخطيب المظاهرة. كيف سيكون موقفه أمام الباشا؟ هل يمكنه أن يكذب عليه؟ كلا، أبدا. إنه يجب أن يعترف، يعترف على كل صغيرة وكبيرة. هذه هي النهاية الحتمية. وتراءت له عزيزة. كانت يوم أمس أكثر جمالا وأنوثة. ترى؟ هل يلتقي بها مرة أخرى؟ أم أن اللقاء الذي جرى يوم أمس هو آخر لقاء. هل سيعترف عليها وعلى جماعتها أيضا؟ لا يعرف، إنه لا يعرف، كيف ستكون الأمور أمام الباشا. ولكن، إذا كان للباشا شيء ضده، فلماذا يريد مقابلته؟ لماذا لم يحيله إلى القضاء؟ وظلت الأسئلة تتناسل في رأسه المضطرب دون أن يجد لها إجابة.

وقبل أن تكمل الدقائق العشر دورتها التي استطالت بشكل مدهش، وصل آمر الانضباط العسكري، ترافقه حمايته المؤلفة من ثلاثة ضباط. كان كمال يعتقد في قرارة نفسه أنهم جاءوا كي يلقوا عليه القبض، فهيأ يديه لوضعهما في القيد، بيد أنه لم يجد أثرا من هذا القبيل. واستغرب من لهجة الآمر الودية الذي بشره بالخير من هذا اللقاء الذي لا يحظى به إلا أصحاب الحظوظ الكبيرة. أراد كمال أن يبدي له عن مخاوفه من هذا اللقاء المفاجئ، بيد أنه فضل السكوت، رغم معرفته السطحية بالآمر الذي سبق لهما أن عملا لفترة قصيرة في حراسة بعض المنشئات الحكومية. أحس الآمر بأن إمارات الخوف بادية على وجه صاحبه، فأراد أن يهدئ من روعه، كي يبدو طبيعيا في حضرة الباشا، قال بلهجة ودية:

" سيد كمال، سيرتفع شأنك بعد المقابلة مباشرة، أرجو أن لا تنسانا"

لم يتمالك كمال نفسه، فأقر له بأنه خائف جدا. قال وهم يتخذون اماكنهم في سيارة الصالون العسكرية:

" إن من طبيعة الباشا أنه لا يطلب اللقاء بمن يريد معاقبته، ناهيك عن رؤية وجهه الذي ينعته بالقبيح. إن مجرد اللقاء به هو مكافأة بحد ذاتها. انصت إلى كلامه جيدا وحذار أن تقاطعه. لا تتكلم إلا بعد أن يطلب الإجابة على أسئلته، ولتكن إجاباتك مقتضبة "

كانت هذه الملاحظات السريعة التي يبديها آمر الانضباط العسكري للذين يطلب الباشا مقابلتهم، متفقاً عليها بين الباشا والآمر في أحاديث ودية مقتضبة فيما بينهما. وكان الباشا يحب دوما أن يتصف أفراد حاشيته بذكاء الثعلب الذي يفهم الكلام غير المباشر. رغم محاولات اطمئنان الآمر لكمال، فإن هذا لم يتخلص من توتره الداخلي وخوفه. فلو عرف صاحبه الآمر بقصته، لأعطاه الحق كل الحق وبرر له ذعره المقيت.

قبل انتهاء نصف الساعة المقررة بدقائق أبلغ الآمر سكرتير الباشا بوصول السيد مدير الشرطة العام. نظر الباشا في ساعته قائلا:

" مضبوط ضبط العقال"

أخذ السكرتير هويته ومسدسه ثم رافقه إلى الباشا الجالس وراء مكتبه بهيبة وفخامة. أدى كمال التحية العسكرية. ولما بقيا وحدهما في الغرفة الفخمة، طلب منه الباشا أن يتخذ مكانه على الكرسي الموجود لصق مكتبه كي يسمعه جيدا. تذكر كمال الملاحظات السريعة التي أبداها له الآمر، فأحس بأعصابه تهدأ ولم يعد قلبه يدق النبضات العالية. اتخذ مكانه على الكرسي وهو يتفادى النظر في عيني الباشا الذي كان يراقبه باهتمام. وحين سأله إذا ما كان يشرب الشاي أم القهوة، شكره قائلا انه لا داعي إلى مثل هذا التكليف. قال الباشا:

" لا تكليف يا سيد كمال، إذاً سنشرب القهوة"

وضغط على زر مستتر في أحد أركان المكتب، سرعان ما دخل الفراش على اثره وهو يحمل صينية تحتوي على كأسي ماء وفنجاني قهوة. آنذاك زال الخوف الجاثم على قلبه طيلة الوقت. قال الباشا وهو يلعب بأداة أشبه بسكينة لفتح الرسائل:

" سيد كمال، هل تدري لماذا استدعيتك إلى مكتبي؟"

في تلك اللحظة، تصور أن الباشا يعرف كل صغيرة وكبيرة عنه، وقرر أن يفتح مصراعي قلبه أمامه ويعترف بكل شيء دفعة واحدة.، فليبدأ من أضعف نقطة:

" فخامة الباشا، انتم أب الوطن والدولة ونحن الخدم. تخطر ببالي قضية المظاهرة غير القانونية ضد أمن الدولة. سقط فيها أحد القتلى. ومن حسن الحظ سقط قبل أن يفتح فمه، وإلا سيطر المتظاهرون على العاصمة"

أراد أن يواصل كلامه، ولكنه تذكر نصيحة الآمر، فركن إلى الصمت. قال الباشا مشجعا:

" انك اديت واجبك بإخلاص يا بني، هكذا يكون تنفيذ الأوامر. سيأتيك كتاب الشكر مع الترفيع في اقرب وقت ممكن"

وقبل أن يقول "شكرا يا سيدي" واصل الباشا كلامه وهو يقلب بين يديه بعض الملفات الشَخصية ويعاين بعض الأوراق التي يخرجها ويعيدها إلى أماكنها:

" السبب الأول انتهينا منه. والسبب الآخر؟"

قال كمال وهو يمسح العرق من جبينه رغم الهواء المنعش القادم من مكيفة هواء غير مرئية:

" أظنه قضية مقتل الضابط صباح"

رفع الباشا عدة ملفات وراح يريها لكمال قائلا:

" هـذه ملفـاتكم منـذ أن كنـتم طلابـا في الكليـة إلى الوقـت الحاضـر. إنهـا تحتوي علـى كل شـيء. إن أمـن الدولـة أهـم مـن العلاقـات الشخـصية ومـن أي شيء آخر. ولا أريد الآن أن أخلق قصة عنترَ طويلة. هل كان صباح ينتمي إلى تنظيم سري يريد قلب نظام الحكم؟"

" نعم سيدي"

سأل بحدة:

" هل كنت معهم ثم تركتهم؟"

أجاب بصوت مرتعش:

" نعم سيدي"

سأل بحدة أكثر:

" هل انت قتلت صباح؟"

احس بقطرات البول تتسرب إلى لباسه الداخلي رغما عنه وأجاب بصورة لا إرادية:

" نعم سيدي"

سأل بارتياح ظاهر:

" لماذا؟"

" لأنه اهانني حتى العظم"

" ماذا قال لك؟"

" شتمني بكلمات بذيئة واعتبرني جاسوس السلطة لأنني تركتهم واصبحت عضوا في حزبكم. انا لا اقبل أن يتهجم احد على صاحب نعمتي"

قال الباشا بلهجة صارمة:

" احسنت يا بني، ستنال ما تستحقه لهذه الشجاعة، ولكن انظر يا صباح، إنني تجاوزت العرف المسلكي وتسلسله وحصرت الأمر فيما بيننا، كي أبعد كل الشبهات عنك. إنك بعملك هذا أنقذتنا من أخطر رجل، كان

يستغل علاقتنا الطيبة بأبيه الذي لا أريد أن أرى وجهه القبيح. لا تحدث أحدا عن لقائنا هذا، وإلا ستضر نفسك بنفسك. سأعمل من اجل غلق ملف مقتل صباح لعدم وجود الأدلة الثبوتية ضد أحد والسماح لأهل القتيل بنقل الرفات إلى حيث يريدون. وهنا ينبغي عليك مساعدتهم في الإدلال على القبر. سأكلفك بأعمال سرية تهم سلامة الدولة في نطاق المكتب الخاص التابع لي مباشرة. وأما وظيفتك الحالية فتبقى تمارسها إلى إشعار آخر"

أراد أن يقول بأن الإدلال على القبر سيضعه أمام مشاكل جدية ومحرجة مع صاحب الميت هو في غنى عنها، بيد أن هاتفا من داخله أرغمه على السكوت في حضرة الباشا. وفكر أن مشكلة القبر سيحلها له بلا شك شمس الدين.

(١٩)

عرف كمال أن شمس الدين ينتظره على أحر من الجمر وانه قد هيأ نفسه لكل الاحتمالات، سواء السلبية منها أم الإيجابية. المهم أن مصيره الآن مرتبط بمصيره هو. أحس بسعادة مطلقة وفي ذروة القمة وانه بحاجة ماسة إلى أن ينقل هذه السعادة إلى شخص آخر. ولما كان الباشا قد حذره من مغبة النطق حول اللقاء الذي حصل بينهما، لذلك لا يحق له الحديث عنه عند أي شخص آخر، لا يمكن الوثوق باحتفاظه بالسر الذي سرعان ما يتنقل مثل سريان النار في الهشيم. وويل له إذا وصل الخبر إلى زملائه من الموظفين الحاسدين، رغم صداقته الظاهرية معهم. ولعل شمس الدين وعزيزة وصحبهما، هم الجهة الوحيدة التي تستحق الاستماع إلى أخبار هذا اللقاء الذي يتصوره مجرد حلم لذيذ لا صلة له بالواقع.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة حين أعاده آمر الانضباط العسكري إلى مكتبه، قال له قبل أن يودعه:

" لا تنس، أنت مطلوب عزيمة يا سيد كمال"

أجابه كمال بود متناه:

" عالعين والراس يا مولاي، ولكن كيف يمكنني العثور عليك أو الاتصال بك؟"

قال الآمر بلهجة العارف بكل شيء:

" سنلتقي حتما في المكتب الخاص"

آنذاك عرف كمال مع من يتحدث.

وعاد به تفكيره مرة أخرى إلى شمس الدين، الذي لابد له أن يحل مشكلة قبر صباح الذي دفن بشكل سري. وحين جاء ذكر القبر، اقتحمه شعور غير مريح، أشبه بالشؤم. ولكنه حاول أن يزيح هذا الشعور عن صدره بالعودة إلى تفاصيل اللقاء الحلم بفخامة الباشا، ذلك اللقاء الذي لا زال يتصوره حلما. لم يكن يعرف أن الباشا إنسان نبيل إلى هذه الدرجة. قرر في نفسه أن يكون مخلصا له حتى الموت. لم لا؟ هو الذي أنقذ حياته من الموت المحقق. كان من المفروض أن يعدم مرتين. سوف لا يخفي عليه أي سر من شأنه أن يسئ إليه أو إلى حكمه. ولن يعود مرة أخرى إلى عبارة ولاية بطيخ، تلك العبارة التي أوجدها الرعاع والصعاليك. إنها ولاية الخير والبركة. حتى شمس الدين نفسه، رغم صعلكته، لم يكن جديا فيما يتعلق بمحاربة ولاية بطيخ. إنه هو الآخر لا هم له سوى الحصول على أكبر قدر ممكن من المنافع التي تشبع حاجات عزيزة التي استولت على قلبه هو الآخر. ولكن، صبرا. إن شمس الدين الذي تربع على عرش عزيزة، يجب أن ينال عقابه لما فعلته يداه. سأمسحه هو وامحي آثار الذل والحقارة اللتين الحقهما بي. سوف لا أنسى التحقيق الذي أجراه معي. سأوجه ضربتي إليه في اللحظة المواتية. آنذاك سيعرف مع من كان يتعامل، أنا الذي احتضنني الباشا بكل ود وغير وجهة التحقيقات من أجلي أنا. وستعرف عزيزة آنذاك من أنا. ومع كل ذلك ينبغي علي أن أكون حذرا، إذ أن شمس الدين، هذا الثعلب العتيق، يمكنه أن يقلب خططي رأسا على عقب. ولكن، ماذا عساه أن يفعل بالاعترافات التي انتزعها

مني. إنها لا تساوي قلامة ظفر. ألم يطلع الباشا بنفسه على كل شيء؟ وحدد موقفه منه؟ لا خوف إذاً مما يملكه شمس الدين من الاعترافات. ولكن ما باله يثير العداوة مع شمس الدين الذي لبى كل طلباته وأغدق عليه بالمال الذي حصل عليه عن طريق بيع الأراضي التابعة لبلدية العاصمة. إن شمس الدين لم يقصر بحق أحد من الموظفين الذين ساعدوه في استملاك الأراضي، سواء الأميرية منها أم المشاعة. إن بامكانه الاستفادة منه إلى أقصى حد. ولذلك من المستحسن أن يتعاون معه ويستفيد من خبراته. ألم يطلب منه أن يفتح أمامه أبواب حزب الباشا؟ فليفتحها أمامه إذاً. وليرَ كيف تمشي الأمور. ألم تكن استشاراته مفيدة حتى الآن؟ شمس الدين لا يمكن أن يكون منافسه، بل انه لا يريد ذلك. حتى هو نفسه لا يعرف ماذا يريد. إنه يكتفي أن يناديه الإنسان بلقبه الذي وضعه لنفسه: يا محفوظ السلامة. مجرد أبهة فارغة، ولكن، كلا، كلا، إنها أبهة حقيقية، ألم يحصد من ورائها ما يكفي من الأموال؟ ألم يشتر سيارة فخمة؟ ألم يستول على أراضي المقبرة ويفرض الضرائب على دفن الموتى؟ إنه يعرف جيدا ما يريد. ألم ينصب له فخا ماهرا أوقعه فيه بجدارة لا مثيل لها؟ ماذا لو وصل هذا الخبر إلى الباشا؟ ألم يفرض فلوس الحماية على أسواق العاصمة التي نشر فيها الأمن والسلامة؟ ألم يؤدب أعتى اللصوص؟ ولكن، هل يمكنه هو وحده إزاحة شمس الدين عما هو عليه الآن؟ كلا أبدا، إذ انه ليس وحده، ثم ما باله يفكر في إزاحة هذا الإنسان الذي يتحرك مثل الظل ويمكنه أن يختفي عن الأنظار في أسرع من لمح البصر. ما الجدوى من إزاحته، أتعتقد انك ستستعيد بذلك عزيزة؟ هيهات أن تعود إليك عزيزة. أخرج هذه القطنة من أذنك. فقد سبق أن فقدتها إلى الأبد عندما اغتصبتها بالقوة. إنها امرأة ليست ككل النساء، إنها جلبت من طينة خاصة لا يمكن فهمها بسهولة. ولذلك من المستحسن لك أن لا تسحب مشكلتك معها على علاقتك بشمس الدين الذي تختفي وراء هدوئه

شراسة متناهية، لا تعرف الرحمة. وأنت تعرفه حق المعرفة، لذلك من المستحسن لك أن تحتفظ بصداقته وترعاها بكل ما لديك من همة.

وراح يفكر في مخابرة شمس الدين ليحدد معه موعد اللقاء المقبل. هل يحدثه عن كل ما دار بينه وبين الباشا؟ خطرت بباله ملاحظة مخيفة، بدت له أنها جاءت نتيجة لقائه السري بالباشا. هل عليه فعلا أن يحتفظ بالسرية التامة، دون أن يطلع عليها شمس الدين؟ وإذا وصل خبر هذا اللقاء إلى الباشا. ألا يسأله آنذاك عن هذه العلاقة المريبة التي تربطه أو مازالت تربطه بهذا الماخور الذي تم فيه اغتيال صباح؟ ولكن منذ متى وهو تحت الرقابة، ألم يظهر مع شمس الدين أكثر من مرة في السوق وفي مطعم سالم الجربوع؟ وحتى إذا سأله الباشا عن علاقته بهؤلاء، فيمكنه أن يقول له بأنه يريد أن يكسبهم إلى الحزب. إذاً لا خوف عليه من مثل هذه العلاقات التي فيها مصلحة الحزب والدولة.

وراح يسرع في حركة ذهابه وإيابه في الغرفة. وفكر في زينة وقرر مع نفسه أن يترك التفكير في عزيزة، ويبدأ علاقته مع زينة التي لابد أنها اعترفت بمضاجعته لها أمام عزيزة التي لاشك أنها سترتاح لهذه الفكرة وتتخلص من ملاحقته لها.

اتخذ مكانه على كرسيه الوثير وراء مكتبه وراح يفتح التلفون على رقم شمس الدين وهو في منتهى السعادة. كان شمس الدين جالسا بالقرب من جهاز التلفون بانتظار المخابرة التي أربكه تأخرها. وقبل أن يبدأ كمال بالكلام، قال شمس الدين متلهفا:

" خير إن شاء الله استاذ كمال، لقد تأخرت"

قال كمال بفرح طفولي:

" خير وبركة، كل شيء على ما يرام يا حبيبي يا محفوظ السلامة. يجب أن نلتقي في أسرع وقت ممكن.."

اراد ان يقول له:" يمكنك زيارتي في مكتبي الآن"، بيد انه غير رايه بسبب عزيزة. إنه يريد أن يراها ويكحل عينيه بجمالها ويتبختر أمامها للأخبار المفرحة ولقائه بالباشا شخصيا، فما الفائدة من اللقاء به دونها، لذلك اقترح عليه أن يزورهم هو بنفسه وتم الاتفاق على أن يكون اللقاء المكان واليوم نفسه.

اعطى كمال صورة تفصيلية للقائه بالباشا. وعندما انتهى من حديثه، علق شمس الدين ساهما كما لو أنه استمع إلى حكاية خرافية يشك فيها:

" إذا كان هذا الكلام صحيحا يا أستاذ كمال، فمعنى ذلك إننا أمام انقلاب حقيقي، يجب أن نغير جميع خططنا"

قال كمال متباهيا:

" ولذلك طلبت منك أن نلتقي في أسرع وقت ممكن يا محفوظ السلامة"

" اول نقطة يجب أن نغيرها هي عبارة – ولاية بطيخ– التي يجب أن تكون ولاية الخير والبركة والرفاه أو ولاية العدالة والمساواة. إن ما أردنا أن نحققه عن طريق القوة، تحقق بسلام وامان. هذا اهم شيء، واما الأشياء الأخرى كمسألة القبر، فبسيطة جدا"

كانت عزيزة تبدو مستاءة من التعليقات وكانت تنتظر مناسبة إعطاء الكلام لها كي تبدي رأيها، ولما احست أنهم أهملوها، بادرت إلى الكلام باحتجاج:

" لم يتغير اي شيء وستبقى ولاية بطيخ كما هي، إن الذي تغير هو انتم وجيوبكم. نحن لم نتفق على هكذا امر"

بادر شمس الدين إلى إقناع عزيزة التي أرادت أن تنسحب من الاجتماع، قائلا برجاء:

" حبوبة، انت فهمتني خطأ، أو إنني لم أتمكن من التعبير عن رأيي بشكل صحيح. ان ما أردت قوله هو أن نغير خططنا أي تاكتيكنا وأما استراتيجنا فيبقى كما هو. ولاية بطيخ هي ولاية بطيخ وسوف نطيح بها في كل الأحوال. هل فهمت حبوبة؟ في كل الأحوال، إن بالقوة أو بالسلام"

هزت عزيزة رأسها بالإيجاب، رغم أنها لم تفهم كلام شمس الدين. قال كمال وهو يريد بذلك أن يسترعي انتباه عزيزة:

" انا افهم ما تريده ست عزيزة. إنني أيضا إلى جانب القضاء على ولاية بطيخ، ولكن ليس الآن، بل عندما تقتضي ذلك مصلحتنا، وتتهيأ الظروف اللازمة لذلك. إننا يجب أن نفكر في مصلحتنا أيضا".

قال شمس الدين وهو يعود إلى بداية الحديث:

" وأما النقطة الثانية، فهي تعزيز سيطرتنا على السوق بإحكام وتأمين السلامة دون عبث اللصوص والقتلة، إذ يبدو لي أن هناك عصابة منافسة لنا تعمل في السر"

قال كمال بفخر:

" قدموا لي قائمة بأسمائهم. سأريهم نجوم الظهيرة"

أخرج خير الدين بعض الأوراق من جيبه ومدها إلى كمال قائلا:

" هذه هي الأسماء الكاملة مع العناوين. إنهم شقاوات معروفين، يرتعب منهم الناس، يفرضون الأتاوات على كل من يعمل في السوق"

أدار كمال عينيه بين السطور وهو يقول:

" هؤلاء خطرون، حتى أفراد الشرطة يخافون منهم"

علق شرف الدين بتواضع:

" ولكننا أدبناهم كلهم، بقي أن يلقى عليهم القبض. وهذه ليست مهمتنا"

قال كمال بعد تفكير قصير كما لو أنه اهتدى إلى شيء جديد:

" سأتحدث مع السيد المدعي العام بخصوص إصدار أوامر بإلقاء القبض عليهم جميعا، ولكن أفراد الشرطة لا ينفذون الأوامر خوفا منهم، بحجة عدم العثور عليهم. إذا كان بمقدوركم إلقاء القبض عليهم، فإنني أوفر لكم أوراق التخويل والمسدسات والقيود اللازمة لذلك. ماذا تقول يا محفوظ السلامة؟"

قال شمس الدين باستحسان:

" فكرة عظيمة، يجب أن نبدأ بها فورا"

في الوقت الذي كان يتحدث فيه الباشا مع كمال، كان الشيخ أبو صباح، ينتظر دوره عند السكرتير كي يستدعيه الباشا للقاء به. وأما خادمه مهاوش زعيان، فكان ينتظر شيخه خارج الغرفة. بعد انتهاء المقابلة بين الباشا وكمال وانصراف الأخير إلى شأنه، بقي الباشا في غرفته وحيدا، يذرع أرضها ذهابا وإيابا ويفكر في تفاصيل الكلام الذي جرى مع كمال الذي اعجب بمظهره ولباقته في الحديث. وقال في نفسه: ضابط شرطة ينفذ الأوامر بما فيه القتل بصرامة للحفاظ على أمن الدولة وفوق ذلك، وهذا هو الأهم، أنه عضو في حزبه. هذا هو الرجل الذي كان يحتاجه فعلا. وليس هؤلاء الاقطاعيين السخفاء اللجوجين. إنه يمكنه أن يعينه بوظيفة حساسة في مكتبه، ولكن ينبغي وضعه تحت مراقبة مشددة، إذ أن هؤلاء الشباب لا يمكن أن توضع فيهم الثقة المطلقة. سجل اسمه الكامل في دفتر ملاحظاته على أن يعود إليه في وقت قريب. بقي أن يستدعي الشيخ، ولكنه لم يجد في نفسه أدنى رغبة لمقابلته، ولا سيما أن اطلاعه على ملف ابنه قد أفسد مزاجه، ثم وجد أنه يدلل هؤلاء الشيوخ اكثر مما يجب، هم الذين يأخذون من وقته ويزعجونه لكل صغيرة وكبيرة. ضغط على زر الجرس الذي أعقبه ظهور سكرتيره الشخصي وهو يقول:

" نعم سيدي"

قال باستخفاف:

" هل الشيخ ابو صباح افندي محفوظ السلامة ما زال ينتظر؟"

أجاب السكرتير بابتسامة:

" نعم سيدي"

" قل له أن الباشا له شغل مهم جدا لا يستطيع مقابلته وبلغه بأن حادثة القتل قد جرت في ماخور والقاتل لم يتم العثور عليه، وأن أحدا لم ير الحادثة ولذلك لا يوجد شاهد واضطر المدعي العام أن يغلق الدعوى. وأما القبر، فيمكن العثور عليه بواسطة مدير الشرطة العام الذي سيساعده في نقل رفات القتيل متى ما شاء الأب. وقل له أن الباشا ينصحك بعدم إحداث ضجة وعدم التطرق إلى مكان الحادث، حفظا لسمعة العائلة والميت، وعليه الاتصال بمدير الشرطة العام في أسرع وقت ممكن"

أصيب الشيخ ابو صباح بخيبة أمل كبيرة لعدم تمتعه بمقابلة الباشا الذي انتظره طويلا. وعرف أن السبب يرجع بالدرجة الأولى إلى البواعث التي أدت إلى قتل ابنه الذي كان يعتبر موظفا كبيرا في جهاز الدولة، فسمعته لا تهم العشيرة فحسب، بل الدولة أيضا. الموت أو القتل في الماخور. إنها إساءة كبيرة للجيش الذي له كرامته وسمعته: الله يرحمك يا ابني، سوف أعمل المستحيل للوصول إلى قاتلك. قال مهاوش:

" الله كريم يا محفوظ السلامة"

كان السائق يمسح الزجاج الأمامي لسيارة البيوك الفخمة، ما أن رأى الشيخ، إلا وألقى الخرقة جانبا وهم بفتح باب السيارة الخلفي. حين اتخذ الشيخ مكانه خلف السائق، قال بعصبية:

" إلى مدير الشرطة العام"

بعد أن أشغل المحرك، وضع السائق رجله على دواسة البنزين وانطلقت السيارة.

رحب به كمال ترحيبا حارا، عوضه عن الإهمال الذي لقيه من لدن الباشا. ولكي لا يفاجأ بزيارة الشيخ، اتصل به السكرتير هاتفيا وأبلغه بمساعدته في نقل رفات الميت. قال الشيخ انه كان قبل قليل في زيارة الباشا وطلب منه أن يزوره حول موضوع.... وقبل ان ينهي كلامه، قاطعه كمال قائلا ان الباشا اتصل به هاتفيا واخبره بموضوع قبر المرحوم، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه. وانه مستعد للقيام بإجراء اللازم حسب الأصول. أراد الشيخ أن يطلع على بعض جوانب التحقيق التي جرت بشأن نجله ليقارنها بما قاله الباشا، بيد أن كمالا ادعى انه لا يعرف شيئا من هذا القبيل، كل ما في الأمر انه أشرف على عملية الدفن وأن الميت يدعى مهاوش زعيان، بناء على الهوية التي تم العثور عليها في جيب المغدور. وأكد أن محاضر التحقيق مع الهوية موجودة في مكتب المدعي العام الذي سبق ان اغلق الدعوى لعدم وجود شهود وأدلة ثبوتية. قال الشيخ وهو يحدق في عيني كمال:

" هذه الأشياء كلها نعرفها. إننا يهمنا القاتل، أن نعرف فقط، من هو القاتل، بالمناسبة هل يمكنني الاتصال بالمدعي العام"

قال كمال وهو يصطنع الحزن وقد كسا وجهه شحوب غريب:

" كلا مع الأسف، انه مات بالسكتة القلبية"

قال الشيخ بعفوية وهو لا يزال يحدق في عيني كمال وكان مهاوش زعيان الواقف جنب سيده، يحدق هو الآخر في عينيه:

" سبحان الله العلي القدير، إنه سيهدينا إلى القاتل إن آجلا أم عاجلا"

قال كمال بحرج واضح:

" إن شاء الله يا محفوظ السلامة، وارجو ان يكون الجثمان لابنكم فعلا كي لا تذهب جهودكم عبثا"

قال الشيخ:

" اول علامة يجب ان نبحث عنها هي السن الذهبي في القاطع الأيسر"

قال كمال كالحالم وقد خرجت الكلمات من فمه دون إرادته:

" اجل، كان سنا جميلا، كان يشع وجهه حين يبتسم ويزيده جمالا حين يضحك"

علق الشيخ مستغربا:

" كلام صائب، لا يعرفه إلا من صادق ابني فعلا. هل كنتما صديقين؟"

لم يتمكن كمال من تصحيح زلة لسانه التي تشاءم منها، فاضطر أن يقر بالواقع:

" نعم يا محفوظ السلامة. كنا أصدقاء حين كنا طلبة. إنه كان بمثابة اخي"

" ويعلم الله انت ابني. لي رجاء واحد منك يا أستاذ كمال، وهو أن تكون معي عند فتح القبر كي ترى العلامة التي تثبت انه ابني" .

" انا حاضر يا محفوظ السلامة. وسوف أرتب كتاب موافقة مكتب المدعي العام لفتح القبر. وسنلتقي هنا في مكتبي بعد أسبوع من هذا اليوم"

(٢٠)

بما أن ولاية بطيخ لا تعترف بالتقويم السائد الذي يتعامل به الناس دون أن يعرفوا لماذا، فإن مفاهيم الثانية والدقيقة والساعة واليوم والليل والنهار والأسبوع والشهر والفصول الأربعة والسنة والعقد والقرن، نسبي أمام الزمن المطلق. ونفس الشيء ينطبق على المكان، الأمر الذي لا يفهمه سوى أهل الولاية ومواطنوها الذين يتحركون داخل مكان أزلي يسمح لهم بممارسة حياتهم السديمية المستمدة من فلسفتهم الخاصة بهم. وحاول شمس الدين، بعد صعوده المطلق أن يشرح هذا الأمر كي يكون قريبا من الغوغاء التي يسميها بعضهم بالجماهير الكادحة التي رأى فيها ضمانة مطلقة لديمومة حكمه غير المرئي. وحين سُئل ذات يوم عن ثروته، أجاب بصوت هادئ وتواضع:

" إذا سرق فيهم الغني تركوه وإذا سرق فيهم الفقير أقاموا عليه الحد"

ثم أضاف دون غرور، هكذا هي الحياة أخذ وعطاء ويوم لك ويوم عليك.

منذ اليوم الذي تعرف فيه شمس الدين بالسيد أنور، مدير الطابو صعد فيه نجمه بصورة عمودية إلى أعلى دون أي هزة وراحت الدنانير

تهطل عليه كهطول المطر في الربيع. وتبين له أن من يملك المال يتمكن من امتلاك رقاب الناس والتحكم في بطونهم ومن يتحكم في البطون، تطال يده إلى داخل بيوت أصحابها الذين ينتظرون منه البركة التي تنعم عليهم ما يسد رمقهم. إنه إذاً، سواء شاء أم أبى، ولي نعمة الجميع، باعتراف الجميع.

شمس الدين تمكن من شراء المقبرة والأراضي المحيطة بها بثمن بخس وتمكن من تدبير قطع بالأرباح لجماعته: دنخة وأيوب الخياط وسالم الجربوع أبو المطعم وفتح مكتبا أمام بوابة المقبرة، أنيطت إدارته إلى خير الدين، لفرض رسوم الدفن وضرورة وضع شواهد من الرخام على القبر، اتفق مع تاجر للرخام على أن يهيئ الرخام مع النقش على أن يدفع له عشرة بالمائة من الثمن، قابلة للزيادة إلى نسبة عشرين بالمائة حسب قاعدة العرض والطلب. وتمكن شمس الدين من العثور على قبر صباح الذي قتله كمال وتم دفنه بصورة سرية. وأصدر خير الدين أمرا إلى كافة أقارب الموتى الذين لا تحمل قبورهم شواهد رخامية بالإسراع لتهيئة الشواهد الرخامية المطلوبة ونصبها فوق القبور، وإلا فإنه سيضطر لإزالة تلك القبور بالجرافات وجعلها مساوية بالأرض. وأعطاهم مهلة ستة أسابيع. وما أن انتهت فترة الأسابيع الستة، إلا و تغير شكل المقبرة تغييرا تاما، بيد أن الأهم من ذلك كله بالنسبة لشمس الدين وشلته هو تدفق النقود الهائل إلى خزانتهم الحديدية التي لا يمكن أن يحملها إلا أربعة رجال أشداء. ومن سوء حظ الناس البسطاء أو من حسن حظ شمس الدين، انتشر وباء الكوليرا في المدينة. وذلك بالضبط بعد انتهاء الأسابيع الستة التي اشترطها خير الدين. وراح يحصد أرواح الناس بلا حساب. وأما حاملو التوابيت، فكانوا يقفون أمام بوابة المقبرة

في صفوف طويلة بانتظار ترتيب وصولات الدفن التي تجاوزت أثمانها ضعف ما عليه سابقا وذلك تحسبا لتلوث الموظف المعني بعدوى الوباء وبسبب الروائح الكريهة المنبعثة من الجثث. كان الناس ينتظرون دورهم بصبر وجلد، دون أن تصدر من أفواههم كلمة تذمر واحدة وذلك انطلاقا من مبدأ أن كل شئ مكتوب على الجبين وفي اللوح المحفوظ ولا يمكن أن يغيره إلا الله. كانوا ينتظرون دورهم مثل الخرفان، بيد أن أحدهم، ممن كان ينوء تحت ثقل الجنازة التي افقدت رائحتها أعصابه، لم يتحمل الوضع، فقال بصوت عال وتذمر:

" مصائب قوم عند قوم فوائد"

عند سماع ذلك،أمر خير الدين الموظف المنكب على الوصولات أن يتوقف من الكتابة ثم أشار إلى حمايته المسلحة بالبنادق الرشاشة بالقيام بما يتطلبه مثل هذا الوضع. ولما حاول الرجل عدم الإذعان للذهاب معهم إلى غرفة جانبية، استعملوا معه القوة ولووا ذراعيه إلى الوراء واقتادوه إلى حيث ينتظره خير الدين. وحذروه أنهم سيضربونه ضربا مبرحا إذا أبدى أقل مقاومة. كان خير الدين يرتدي بدلة أوروبية زرقاء فاتحة ويزين عنقه رباط أحمر فوق قميص ابيض ناصع. اتخذ مكانه على الكرسي وراء المنضدة الخشبية الفاخرة. طلب من رجاله أن يتركوه وحيدا مع الرجل ويذهبوا لمواصلة أعمالهم. كان الرجل متوترا، قلقا، دون أن تبدو على وجهه ملامح الخوف ويبدو كما لو أنه يفكر في أمر ما. قدم له خير الدين سيجارة أجنبية وطلب منه بنبرة أخوية أن يتخذ مكانه على الكرسي القريب من مكتبه. قال الرجل بانفعال بعد أن أخذ منه السيجارة بلهفة:

" كيف يمكنني أن اجلس وأنا لا اعرف شيئا عن مصير الجنازة؟"

قال خير الدين بلهجة مهدئة:

" اطمئن يا اخي. الجنازة ستدفن فورا في مكان لائق وبسرعة وسنعفيك عن رسوم الدفن والخطورة"

تساءل الرجل بعطف:

" لماذا حجزتموني إذاً هنا؟"

" كلا يا اخي، انت لست محجوزا. إن جراتك هي التي جلبتك إلى هنا. انت الوحيد الذي فتح فمه متذمرا دون هؤلاء الخرفان. نحن بحاجة إلى رجال مثلك"

قال الرجل وكأنه يريد أن يصحح خطئا:

" لست جريئا بالشكل الذي تتصوره يا سيدي. كل ما في الأمر هو انني كنت قلقا"

سأل خير الدين بفضول:

" قلقا أو حزينا؟"

" طبعا إنني مازلت حزينا، ذلك أن الميت والدي، ولكن قلقي كان اقوى من حزني وهذا ما دفعني إلى أن اتذمر"

" رحم الله الميت والبقاء في حياتك. هل يمكنني أن أعرف سبب قلقك"

" السبب يا سيدي هو إنني لا أملك ثمن رسم الدفن ناهيك عن ثمن الخطورة"

" هل تريد أن تشتغل معنا"

" سأقبل يدك يا سيدي إذا وجدت لي عملا أسد به رمق أولادي وعائلتي"

دس خير الدين ثلاثة دنانير في يد الرجل وطلب منه أن يذهب إلى مسئول المخزن المقابل لغرفته ويطلب منه مسحاة للبدء بعمله الجديد

كحفار قبور. وقبل أن يترك الرجل الغرفة للالتحاق بالعمل، قال خير الدين:

" إنك ستبقى تشتغل عندنا لعدة أيام تحت التجربة. إذا أثبت لنا جدارتك، نكلفك بأعمال أخرى أحسن بكثير من حفر القبور، والآن يمكنك الالتحاق بعملك الجديد"

ترك الرجل الغرفة وهو يردد:

" الله يرضى عليك يا سيدي ويطول عمرك..."

مع غروب الشمس وراء صف النخيل في الأفق الغربي الملون، تم دفن آخر جنازة. كان خير الدين جالسا في مكتبه عندما حضر الحفارون الثلاثة، يتبعهم الحفار الجديد الذي التحق بهم توا. وقبل أن يتشاور خير الدين معهم حول وجبة العمل التالية، أخرج هاتفه النقال "هوكي توكي" من حقيبته اليدوية واتصل بمدير مستشفى ابن سينا يسأله عن احتمال وصول جنازات جديدةٍ في الليل. أجابه المدير بأن غرف التبريد مليئة بالجثث، يجب أن تفرغ للجثث القادمة باستمرار وأن باب المقبرة يجب أن يبقى مفتوحا طوال الليل. بعد المكالمة التلفونية تم الاتفاق على أن يبقى اثنان منهم للمناوبة، ذلك أنهما بدءا بالعمل بعد العصر على أن يعودا غدا في تمام الساعة السادسة صباحا. سأل أحد عمال الوجبة الثانية عن هوية قبر لا يحمل الشاهد الرخامي وما إذا بإمكانهم استعماله لدفن إحدى الجثث. عرف خير الدين أن المعني هو قبر صباح. أجاب فورا بأنه قد بلغ صاحب القبر بمسألة الشاهد وأنه سيعالج الموضوع قريبا، لذا ينبغي عليهم عدم مس القبر. وقبل أن يأذن لهم بالانصراف، سأل الحفار الجديد إذا ما كان بإمكانه تقديم اقتراح لتطوير أسلوب العمل؟ قال خير الدين بفضول:

" تفضل يا أخي تكلم"

قال الرجل بأسلوب مهذب كما لو أنه هو صاحب المشروع:

" لاحظت أن الحفارين، لا يبدؤون بالعمل إلا بعد وصول جنازة جديدة، دون أن يفكروا بأن سيل الجنازات إلى المقبرة لن يتوقف إلى الأبد، سواء في زمن الطاعون أم غير الطاعون. وللحيلولة دون انتظار أصحاب الجنازات في صفوف طويلة، يجب علينا حفر القبور وجعلها جاهزة لاستقبال الموتى دون كبير عناء"

قال خير الدين بإعجاب:

" أحسنت يا صديقي، هل فهمتموه. إنك اعتبارا من هذه اللحظة أصبحت مراقبا على جماعتك. عليكم التقيد بتوجيهاته. هل فهمتم؟"

أجابوا بتخاذل:

" نعم يا سيدي.."

استقل خير الدين سيارته الشوفرليت، يرافقه اثنان من حمايته وهما مسلحان برشاشة أوتوماتيكية وبندقية برنو طويلة ومسدس. ولما كان ثمة منع تجول يطبق بعد الساعة السادسة مساء في كافة أنحاء العاصمة بسبب تفشي مرض الطاعون، لذا تمت سيطرة مفارز الشرطة والجيش. وحين مرورهم بنقطة السيطرة الأولى، هرع جندي باتجاههم مؤشرا بيمناه أن يتوقفوا. قال حامل الرشاشة بدم بارد:

" هل أطير رأسه بصلية يا سيدي؟"

ابتسم خير الدين بود قائلا:

" كلا، الرجل يقوم بالواجب، ثم اننا لسنا الآن في معركة"

خفف السائق من سرعة المحرك وأراد أن يتوقف، بيد أن الجندي أشر لهم بمواصلة السير. أمر خير الدين السائق بالتوقف وطلب من أحد مرافقيه أن ينادي على الجندي الذي عاد إلى مكانه. رجع الجندي إلى

السيارة الواقفة خائفا مرعوبا وحين أصبح وجها لوجه أمام خير الدين ادى له التحية العسكرية وهو يقول:

" تؤمر سيدي"

قال خير الدين بلهجة بدوية ممطوطة:

" ابني، لماذا لا تؤدي واجبك بالشكل المطلوب. لماذا لا تطلب هوياتنا؟"

قال الجندي بابتسامة ودية:

" سيدي انا أعرف جنابكم وزير البلديات، هل انا مجنون كي اسأل عن هويتكم؟"

مد خير الدين يده من خلال النافذة ودس دينارا في يد الجندي. ثم انطلقت السيارة مخلفة وراءها سحابة من الغبار. وفكر خير الدين: وزير البلديات... ثم تساءل في نفسه: ولماذا ليس وزير الداخلية؟ أو وزير الشؤون الاجتماعية..؟ وإذ هو في تفكيره هذا، رن جرس تلفونه اليدوي، حين فتحه، جاء صوت كمال من الطرف الآخر قائلا:

" يكلمك مدير الشرطة العام، أين أنت الآن يا خير الدين؟"

" تركت المقبرة قبل دقائق وأنا في طريقي إلى البيت"

" ارجو العودة فورا إلى مكتبك هناك، نحن في طريقنا إليك"

" نعم سيدي"

أمر السائق أن يرجع إلى المقبرة. عرف أن الأمر يتعلق بقبر صباح، إذ أن كمال سبق أن أخبره بموضوع فتح القبر. بعد انتظار قصير وصلت ثلاث سيارات، إحداها باص نقل صغير يحتوي على ثلاثة رجال من الريف يتنكبون مساحيهم، يتقدمهم الشيخ أبو صباح ومحاميه وكمال، يرافقه عريف. عندما قادهم خير الدين إلى القبر، أخرج المحامي من حقيبته دفترا صغيرا، راح يسجل فيه بعض الملاحظات. قال خير الدين:

" هذا هو القبر، يا محفوظ السلامة، هل تريدون فتحه بأنفسكم أم نفتحه نحن؟"

انحنى المحامي على الشيخ وهمس في أذنه بضعة كلمات ثم وجه كلامه إلى خير الدين، وهو يريه كتابي موافقة مكتب المدعي العام ومدير صحة العاصمة، طالبا منه أن يشرف على فتح القبر هو وعماله. وبدأ الحفر بعناية. كانت الأرض رملية، سهلة الحفر. عندما ظهرت الجثة المتآكلة السوداء، طلب الشيخ من خادمه مهاوش زعيان أن ينزل إلى القبر ويتفحص الأسنان. وراح هذا يتفحص الجمجمة بعناية ثم رفع رأسه إلى أعلى ليقول بنبرة حزينة وهو يجيل عينيه بين وجهي الشيخ وكمال:

" إنه السن الذهبي لصباح يا محفوظ السلامة"

كان أحد الرجال يحمل الكفن الأبيض الذي أعد ككيس، انحنى على مهاوش وسلمه إياه، وراح الأخير والحفار التابع لخير الدين، يلتقطان الرفات من بين الثرى ويدفعانها إلى داخل الكيس، الذي تم نقله إلى الباص. عندما خرج مهاوش من القبر، توجه إلى زميليه وكان أن بدءوا يهوسون:

يا غيابك علينا هموم مانكدر نعديها
ترى مو كلمن يموت انكول ميت
تبقى انت صباح يذكرك لساني
من تنخة زلم تطلعلك من الكاع
وبعزم النشامى ترد احزاني
ها ها ها
كل الناس تفاخر بيك   تظل تنادي باسمك
كل الناس تفاخر بيك   تظل تنادي باسمك

(٢١)

أحس كمال بخوف غريزي غريب يداهم كيانه بشكل مفاجئ وينشر في أعصابه توترا داخليا أشبه بضربة تيار كهربائي يهزه هزا عنيفا لم يسبق له أن مر به حتى في ساعة النحس التي وقع فيها في الفخ الذي نصبه له شمس الدين في منزل عزيزة. وشعر انه بين قاب قوسين او ادنى من الموت المحقق الذي رآه في عيون كل من أبو صباح ومهاوش زعيان، هذين الصلين اللذين يملكان فراسة البدو اللعينة التي ترى صورة القتيل بكل وضوح في عيني القاتل. لماذا إذاً كانا يحدقان في عينيه بهذا الشكل الغريب. ألم تكن هوستهم تهديدا واضحا له؟ ولماذا كلف أبو صباح محاميه بعدم الاعتراض على قرار غلق الدعوى الصادر من المدعي العام، إن لم يكن قد قرر ان يأخذ حقه او ثاره بيده؟ وراح يحدث نفسه بمرارة: قد تكون هذه نهايتك يا كمال إن لم تتدبر أمرك. عليك أن تفعل شيئا يبعدك عن دائرة الضوء المسلط عليك. إن هؤلاء سينبشون عن الحقيقة بصبر ودأب وسيتوصلون إليها إن عاجلا أم آجلا. والسنوات مهما كانت طويلة، فإنها لا تلعب دورا في حساب تقويمهم المفتوح. قد

يؤجلـون المـسألة إلى الجيـل القـادم. وحتـى إذا مـت أنـت، فالحـساب سيجري تصفيته مع أولادك أو أقاربك. لقد سبق لك أن فكرت ذات يـوم في حل جنوني، ألا وهو الركوع أمام الشيخ أبو صباح والاعتراف بالقضاء والقدر الـذي حـصل دون إرادتـك وتـترك لـه خيـار الأخـذ بالديـة الـتي يحددها هو بما فيه قطع رأسك. وفكر بلقائه بالباشا الذي سانده بكل صراحة. والآن عليه أن يختار، أن يختار أهون الشرين. ترى، أمام أيهما يركع؟ الباشا أم الشيخ؟ هذا الأخير لا يؤتمن جانبه. الباشا إذاً هـو الـذي يـستأهل الانحنـاء أمامـه. إنـه إذ عاهـده بمـساعدته، فعليـه هـو الآخـر أن يقـدم لـه خدماتـه بـشكل مرضـي، فليبـدأ إذاً بالاتـصال بـه فـورا وينقـل لفخامة دولته المعلومات المتـوفرة لديـه الـتي وصـلته مـن جهـة موثوقـة. سيتصرف هذه المرة بمفرده دون أن يزج شمس الدين بالموضـوع، فهـو في كل الأحوال إلى جانب التعاون مع الباشا. اتصل فورا بآمر الانضباط وأبلغه أنه يريد الاتصال بالباشا لأمر خطير يهم سلامة الدولة. أبلغه هـذا بـأن الباشـا سـيزوره في بيتـه، وعليـه الانتظـار هنـاك مـساء. وأعلمـه أن الباشا سيأتي بمعية عريف واحد وشبه مختف. ولا داعي للتأكيـد علـى المحافظة التامة للسرية:

"إنه سيبقى عندك لفترة لا تتجاوز نصف الساعة. لا تثقله بالإلحاح، إنه سوف لا يشرب ولا يأكل"

يا لها من صدفة غريبة.

في تمام الساعة الثامنـة مساء رن الجرس. فتح البـاب بحذر. دخـل الباشا مع مرافقه وهو يرتدي الملابس العربية. كان هو مسلحا بمـسدس يخفيه في الجانب الأيسر تحت حزامه وأما مرافقه فكان يحمـل بندقيـة رشاشة تحت عباءته. بعد الترحيب والسلام السريع، سأل المرافق إذا مـا كـان هنـاك شخص آخـر في البيـت، أجـاب أنـه هـو وحـده فقـط وزوجتـه

الحامل في الشهر التاسع موجودة عند أهلها. في الوقت الذي جلسا فيه متقاربين على الأريكة، قام المرافق بجولة داخل الغرف. قال الباشا وكأنه يعتذر للعملية:

" هذا هو أسلوب المرافقين، لا نتمكن من التدخل في شئونهم"

" هذا إجراء ضروري باشا"

قال الباشا بأسلوب من يريد التخلص من كلامه بسرعة:

" انظر يا سيد كمال، تم تعيينك بموجب كتاب سري للغاية، مديرا عاما للاستخبارات الخاصة، مهماتك مذكورة في متن الكتاب، الذي انصحك بقراءته بإمعان. الواجب الرئيس هو مراقبة العسكر وضباط الشرطة وكتابة التقارير الوافية عن اتصالاتهم وحركاتهم. يمكنك الاتصال بي في أي وقت تشاء، ولكن للأمور المهمة جدا. دوامك سيكون عندي في مقر المجلس. ويجب أن يبقى مقر عملك سريا حتى لعائلتك. سيصلك كتاب الإنفكاك خلال اسبوع. فهمت؟"

قام كمال من مكانه وقال وهو يقبل يده:

" نعم سيدي، اتشرف بالمنصب. وسأظل خادمكم المطيع"

ضرب الباشا على كتفه قائلا بارتياح:

" سنخرجك من هذا البيت إلى بيت آمن، تتوفر فيه شروط صيانة أضبط، والآن حدثني عما يدور في صدرك"

قال وهو يفرك يديه مثل طفل صغير:

" سيدي، تم إخراج رفات الميت من القبر، وثبت أن الجثة تعود لصباح. وأن مراسيم الدفن في القرية ستعقبها حفلة تأبين تستغرق ما لا يقل عن أسبوع. ولاشك أن أصدقاء صباح من العسكريين سيحضرون التأبين في كل الأحوال، ولما كانت سذاجتهم ستوحي لهم بأن الدولة هي

التي اغتالته بسبب نشاطه المعروف في صفوف الضباط، لذلك سيرخون عنان ألسنتهم ويكشفون عن نواياهم التي يكبتونها في صدورهم..."

قاطعه الباشا وهو يتنفس الصعداء:

" حدسي لا يخونني، اختيارك لمنصبك الجديد لم يكن اعتباطا. هل يشكون فيك إذا حضرت شخصيا"

" كلا سيدي، إنهم لا يزالون يأملون عودتي إليهم ويحاولون كسب جانب الشرطة عن طريقي"

" المهم إننا لا نريد أن نجازف بحياتك. توكل على الله"

حين أنهى المرافق جولته، قام الباشا من مكانه، استعدادا لترك البيت. رافقهما كمال إلى الباب وهو يقبل يده ويكرر:

" كبرت راسي يا سيدي. سأظل خادمك الأمين حتى الموت.. الله يطول عمرك ويعطيك العافية والصحة والتوفيق سيدي..."

لمن يحكي هذه القصة؟ من يصدق أن الباشا حضر عنده في البيت وبلغه بمنصبه الجديد. من أنت كي يزورك الباشا، أتضحك علينا؟ ولكن المصيبة أنه لا يسمح له الكلام بهذا السر الذي إذا أفضى به لأحد، ستنقلب الدنيا على رأسه. إن هذا الإنسان الثعلب الذي يبدو مسالما، يمكن أن ينقلب عليك ويفتك بك كما الذئب مع الشاة. لقد سبق لك أن سمعت في شبابك مثلا يقول: لا تأتمن جانب السلطة، فهي حتى إذا تحولت لك إلى جسر، لا تعبره. إنه شاء أم أبى سلم لحيته بيد الباشا. فلير إلى أين تؤدي به الطرق. الطرف الوحيد الذي يمكنه أن يسمع خبر الزيارة هو شمس الدين، الذي لاشك سيفرح به كل الفرح، إذ أنه هو الذي كان يحلم دوما بالقفز إلى أعلى القمم في الولاية. فسواء قفز هو أو شمس الدين على صهوة حصان الولاية، فالأمر سيان. المهم أن شمس

الدين يحصد الأموال وأما هو فبريق النياشين وأبهة السلطة التي تعبد الطرق إلى المال. وإذا صادف أن خرج شمس الدين فارغ اليدين من هذه العملية، فإنه سيبدأ بالتفكير بشكل آخر، تدعمه في ذلك عزيزة، التي لا يهمها المال، لأنها تملك منه ما فيه الكفاية، بل الأبهة والجاه.

حين أصبح وحده في البيت، اشتد به هياج المفاجأة المفرحة وراح يقفز ويرقص وهو لا يصدق أن الباشا كان عنده بلحمه ودمه. ولو لم يلتق به ويراه عن كثب في اللقاء الذي جرى بينهما في مكتبه، لما صدق بأنه يقابله فعلا في منزله. إنه هو نفسه، جاء ليضعه في مصاف أتباعه المخلصين. وما عليه إذاً إلا أن يبرر هذه الثقة المنوطة به بجدارة. وتبددت مخاوفه التي صنعها خياله. وفكر في طريقة زيارته للشيخ أبو صباح ومأتمه، تلك الطريقة التي ترك الباشا تفاصيلها له وحده. هل يرتدي الملابس العربية ويحضر هناك كما لو أنه جاء يمثل نفسه كصديق للمرحوم؟ أم تراه يحضر بصفة مدير الشرطة العام مع ثلة من مرافقيه؟ رأى أن الطريقة الأخيرة هي الأفضل، إذ أن الشيخ سيفتخر بضيوفه الرسميين الذين يرفعون من شأنه أمام الفلاحين.

سرى خبر نقل رفات صباح إلى مقبرة القرية وإقامة حفل التأبين له، كسريان النار في الهشيم. ونصبت السرادق، التي راحت تستقبل المعزين من جميع أنحاء المنطقة، أمام قصر الشيخ. وصل كمال برفقة ثلة من الشرطة في الساعات الأولى من بدء التأبين. وبعد أداء الفاتحة على روح الفقيد، ألقى كلمة ارتجالية، اكد فيها بأن السلطات الساهرة سوف تلقي القبض على القاتل الجبان إن آجلا أم عاجلا وأن دم الضابط القدير والوطني الأصيل، صديقه صباح لن يذهب هدرا. شكره الشيخ أبو صباح لكلمته ببرود، قائلا:

" نترك الأمر لله العلي القدير"

فهم كمال من هذا الكلام، حسب سليقته العشائرية، إنهم سيتخذون مسألة الانتقام على عاتقهم هم. قال ذلك بلهجة الواثق من كلامه. ولكن من أين له هذه الثقة يا ترى؟ أحس بنفسه غريبا بينهم وأن عيون الحاضرين تحاصره بريبة وسخرية من يعرفه حق المعرفة. ويعرف كل أسراره. كان يراقب المتواجدين بدقة وعناية، دون أن يعثر على الوجوه التي يبحث عنها. وفكر أنه ليس من المعقول أن لا يحضر خيرة أصدقائه للمشاركة في التأبين. ربما أنهم لم يتمكنوا من الحضور بسبب ارتباطهم بالدوام وعدم حصولهم على الإجازة بسبب ضيق الوقت. ولكنهم ليسوا جنودا عاديين، بل ضباطا كبار، يتمكنون من ترك مقرات عملهم متى ما شاءوا. ترى، هل أن مقتل صباح أدى بهم إلى أن يفترقوا ويتركوا القضية التي كانوا يؤمنون بها؟ أم أنهم التجئوا إلى وسيلة جديدة من العمل، سرية أكثر مثلا، يجهلها هو؟ هل يسأل عنهم؟ ولكن، الا يجلب بهذا، الشكوك على نفسه؟

في حوالي الثانية ظهرا حضر الطعام، ولم يحضر أحد من الذين يبحث عنهم. ماذا سيقول للباشا إن لم يحضروا نهائيا. هذه أول نقطة ضعف تسجل عليه. صدمة ما هزته من الداخل وأيقظت فيه شعور الكآبة التي تجتاحه بين حين وآخر. إنه ممتلئ بشعور الحسّ بالذنب الذي اقترفته يداه، هذا الذنب الذي يبدو له كما لو أن الجميع يعرفه حق المعرفة. هل يستغل هذه المناسبة ويلقي بنفسه بين يدي الشيخ أبو صباح، طالبا منه الصفح والغفران ويترك له خيار الفصل بين أن يقطع رأسه أو يدفع الدية المطلوبة؟ كلا، إنه لن يندحر. كيف له أن يندحر وهو في عز قوته وسطوته التي هي من سطوة الباشا. وإذا كان خاطئا في تخمينه من حضور أصدقاء صباح في الفاتحة، فإن هذا الخطأ غير

المتعمد، كان عن حسن نية وأدى إلى أن يستنتج الإنسان بأنهم لم يحضروا خوفا من أن يفتضح امرهم. وهذا يعني إنهم متواجدون على الساحة ويريدون بذلك الحفاظ على تنظيمهم السري، الأمر الذي يكفي أن يحكم الخناق على رقابهم وتجري مراقبتهم بصورة مركزة. إن حركتهم يجب أن تخنق وهي في المهد. ولكن، حتى إذا كانوا لا يريدون الاتصال به، خوفا من أنه أصبح عميلا حقيقيا لولاية بطيخ، فعليه أن يتصل بهم مهما كان الأمر، على الأقل من اجل أن يشبع فضوله ويطلع على مخططاتهم التي يمكن أن يستفيد منها لمخططه الذي سبق أن رسمه مع شمس الدين أو بالأحرى رسمه مع نفسه من أجل عيون عزيزة. آه من عزيزة، مرة اخرى تقفز إلى ذاكرتك بدون مقدمات؟ متى تنساها يا كمال؟ الا يكفيك ما لاقيته بسببها؟ الا يمكنك أن تنساها وتتخلص منها؟ إنها ادارت لك ظهرها منذ الأزل. وهي لا تحبك، ولكن يبدو إنك من نوع خاص من الرجال الذين لا يحبون إلا من يهينهم. الا يكفي أنها ارتبطت بشمس الدين، هذا الشقي الخطر الذي لا تعرف أصله من فصله والذي لا تعرف كيف ومن أين يلدغك. هذا الذي جعل منك جسرا سهلا للوصول إلى طموحاته التي حققها في فترة قصيرة جدا وتمكن من تجنيد أعوانه لفرض الأمن والسلام على ليل العاصمة مقابل أتاوات منتظمة يسلمونها له عن طيبة خاطر. ختم أفكاره التي داهمته، صوت هادئ راح ينصب في أذنه من حيث لا يدري:

" ما اكثر أعداءك يا كمال، ولكن لا عتب على أحد. انت نفسك صنعتهم بيديك. وكانت البداية هي اغتصابك الشنيع لعزيزة، تلك الفاكهة العذراء التي دحرجتها الرياح إليك في غفلة من الزمن. إن ما كتبته في لوح قدر عزيزة، لن يمسح إلى الأبد ويظل يطاردك حتى النفس الأخير من حياتك"

أنهى الصوت كلامه بقهقهة عالية، دعته أن يلتفت إلى مرافقه الجالس إلى جنبه، سائلا إياه بانفعال:

" من أين لك هذا الكلام؟ ثم لماذا اختتمته بهذه القهقهة العالية؟"

أجاب المرافق كالمجذوب:

" سيدي، انا لم افتح فمي، ناهيك عن القهقهة"

" كانت قهقهة عالية جدا وإطلاقها في مثل هذه المناسبة مسألة مخجلة جدا. الم تسمعها حقا؟"

أجاب المرافق وهو يحاول تهدئته:

" سيدي، يحصل مثل هذا الشيء في أحلام اليقظة. انا لم اسمع اي قهقهة، وإذا لم تصدقني انا، فأسأل زميلي الآخر الجالس إلى جانبك"

وقبل أن يتكلم، جاءه نفس الصوت قائلا:

" اسكت يا كمال، لا تفضح نفسك. إنهم لا يأتون. لا تنتظرهم. إنهم عرفوا بوجودك هنا، لذلك تجنبوك، لأنك في عرفهم إحدى عيون الباشا"

اتخذ من الصوت امرا ينبغي تنفيذه. قال قبل أن ينهض:

" رحم الله من قرا الفاتحة على روح الشهيد"

حين انتهت قراءة الفاتحة، توجه مع مرافقيه إلى الشيخ ابو صباح الذي قام من مكانه لتوديعه. وشكره هذا لحضوره وتجشمه عناء السفر. عند عودته اتصل، كما اتفقا، بضابط الارتباط، آمر الانضباط العسكري وأخبره بعدم حضور (الجماعة). اقترح عليه آمر الانضباط أن يستمر في زيارته إلى آخر يوم التأبين، لأن الباشا يهمه جدا أن يعرف إذا ما كانوا يتواجدون هناك أم لا؟ المسألة مهمة إذاً. ومهما يكن فإن عدم حضورهم لا يشكل عليه عند الباشا نقطة سلبية. واقترح عليه الآمر أن ينقب في الموضوع بشكل افضل ويحاول أن يستفسر من الخدم بشكل غير مباشر عن وجود خيمة أخرى أو أي شيء من هذا القبيل. وأكد له انهم لابد

متواجدون هناك، وإلا لماذا أخذوا إجازات مرضية لمدة أسبوع؟ ليس من المعقول أن يحصل مثل هذا اعتباطا، فإن لم يتواجدوا هناك فعلا، يعني هذا أنهم يعقدون اجتماعا مهما في مكان آخر، يجب العثور عليه مهما كان الأمر. اتخذ المهمة على عاتقه بفخر واطمأن أنه أصبح حلقة مهمة في سلسلة السلطة التي يجب الحفاظ عليها والحيلولة دون انفراطها. واستنتج من كلام آمر الانضباط أن (الجماعة) خاضعة للمراقبة ورأى أن يتصل بشمس الدين قبل ذهابه إلى المأتم لاستشارته في الموضوع، إذ أن تشكيل الكتلة وتبلورها يعني منافستهم في مشروعهم وانتزاع المبادرة من أيديهم، كما ووجدها فرصة كي يلتقي بعزيزة ويتمتع برؤية طلعتها. اضطرا أن يتفقا على اللقاء عند عزيزة، ذلك أنهما لا يتمكنان التحدث بحرية بالهاتف.

حين تحدث كمال إلى شمس الدين عن كل شيء بالتفصيل وانتهى من كلامه، قال له الصوت القادم من مكان ما:

" انتبها، الوضع خطر"

صدم شمس الدين بالمعلومات الجديدة التي جلبها صاحبه وصبها دفعة واحدة على رأسه. قال وهو ينظر في عيني كمال القلقتين بذهول:

" سمعت ذات مرة من شيخ جليل، طاعن في السن يقول لرفيقه الشاب، أحسب أنه كان ابنه: كلما اقترب الإنسان من القمة، اتسعت أمامه دائرة الأفق، فيرى نفسه يطل على أشياء كثيرة أمامه، بيد أن الخطورة في الموضوع تكمن في أنك كلما اقتربت من القمة، يكون احتمال سقوطك في الهاوية أكثر، لذلك ينبغي أن نحسب حساب كل خطوة نخطوها في هذا الاتجاه. إننا الآن، سواء شئنا أم أبينا قد بلغنا القمة عن طريقك وأصبحنا شركاء مصيريين في السلطة، فإذا انهارت هذه، ستجرفنا معها أيضا. وإنك من أجل أن تثبت قدميك يجب أن تبرر هذه

الثقة المطلقة الممنوحة لك وإنني بدوري سأضع كافة إمكاناتي في خدمتك"

قال كمال بارتياح:

" وهذا هو السبب الذي دعاني أن آتي إليك، أنا لا أملك عكازة أتوكأ عليها غيرك"

كانا جالسين في غرفة الضيوف. وحين سأل عن سبب غياب خير الدين وشرف الدين، قال شمس الدين أنهما في السوق يطاردان الخارجين على القانون ويفرضان الأمن والاستقرار وانهما تمكنا في اليومين الأخيرين من إلقاء القبض على عدد كبير من الأسماء المذكورة في القوائم التي تسلموها منه. وهم يقبعون الآن في مخافر الشرطة. علق كمال باغتباط:

" ! هكذا بسرعة؟ عظيم"

قال شمس الدين باعتزاز:

" لا يجوز تأجيل عمل اليوم إلى غد"

جلبت عزيزة صينية الشاي واتخذت مكانها على الأريكة، قالت بدعابة وهي تصب الشاي دون أن تلتفت إليهما:

" نشاطاتكما كثيفة هذه الأيام. خير إن شاء الله. هل اقتربتما من الهدف؟"

رأى شمس الدين إن التوفيق بين مسألة كشف (الجماعة)، التي تسميها عزيزة جماعة صباح، من جهة والتعاون مع رأس ولاية بطيخ من جهة ثانية، شيء لا يمكن إفهامه بهذه العجالة لعزيزة التي لا تزال تميل إلى جانب جماعة صباح، لذلك قال لها أنهما سيتحدثان في الموضوع في وقت آخر بهدوء. لم تكن لعزيزة أدنى رغبة في الاستماع إلى حديثهما الذي وجدته مملا ورجالياً بحتاً. شربت شايها بسرعة واستأذنت منهما

لإنجاز أعمالها في المطبخ وانصرفت. اتفقا على أن يكون هدفهم الرئيس هو مراقبة نشاطات (الجماعة) بشكل مكثف والحصول على أرقام تلفوناتهم وعناوينهم. وفي حالة عدم حضور ضباط الجماعة إلى التأبين إلى آخر يوم، يجب عليهم العمل من أجل الحصول على المعلومات المطلوبة عن سبب أخذهم للإجازات المرضية، على أن يزودهم كمال بانتظام عما يتوصل إليه بهذا الشأن. لم يتوصل كمال إلى أية معلومة عن سبب عدم حضور أصدقاء المرحوم للفاتحة، رغم استفساره عن بعض الخدم.

حضر آمر الانضباط العسكري بنفسه إلى التأبين في اليوم الأخير وقدم التعازي باسم الباشا وباسمه. بعد تناول طعام الغداء طلب من مهاوش زعيان أن يرافقه إلى التواليت وخلال صب الماء على يديه هناك، سأله الآمر بصوت خافت عن سبب عدم حضور أصدقاء المرحوم للفاتحة. أجاب مهاوش أنهم أرسلوا رسالة تعزية يعتذرون فيها عن الحضور بسبب صدور أوامر صارمة من القيادة بضرورة عدم ترك الثكنات بسبب انتشار مرض الطاعون. وبعد هنيهة أضاف مهاوش بلهجة نادمة أنه كان ينبغي عليه أن لا يفتح فمه بهذا الخصوص، ولو علم الشيخ بهذه الثرثرة من قبله لحطم راسه بأخمص بندقيته. دس الآمر ورقة نقدية من فئة خمسة دنانير بيد مهاوش قائلا:

" سيبقى السر بيننا كالعادة يا مهاوش"

(٢٢)

كاد الباشا يصاب بالسكتة القلبية عند سماعه خبر عدم حضور "الجماعة" إلى الفاتحة وتحججهم بالبقاء في ثكناتهم بسبب الكوليرا وراح يصيح بصوت عال وهو يدور حول مكتبه:

" إنها وقاحة.. وقاحة.. وقاحة لا توصف. يأكل من ماعونك ثم يتغوط فيه. الذنب ليس ذنبهم، إنه ذنبي أنا. هكذا بكل بساطة يريدون أن يضحكوا علينا"

كان آمر الانضباط، الذي أخبره بالمعلومة التي حصل عليها من مهاوش، واقفا في مكانه كالصنم، يملؤه الفخر والأبهة لانتصاره في كشف خيوط مؤامرة خطيرة. أسرع الآمر إلى الثلاجة وأخرج منها، كالعادة في مثل هذه الحالات، كأسا ملأه بالماء البارد من قارورة محفوظة في الثلاجة وقدمه للباشا وهو يهدئه قائلا:

" سيدي صحتكم أهم شيء. إنهم في قبضتنا. يجب اتخاذ الإجراءات اللازمة بشأنهم"

تسلم الباشا الكأس من يده وشرب عدة جرعات ثم وضعه على حافة مكتبه وهو يسأل إذا ما كان هذا المدعو مهاوش، سوف ينقل خبر استفساره إلى الشيخ أم لا؟ طمأنه بأن الكلام ظل سرا بينهما، ولذلك دس في يده مبلغ خمسة دنانير مكافأة له لكتمان الخبر. عاد الباشا إلى هدوئه، إذ انه نفسه يقول دوما أن المشاكل لا تحل بالانفعال. اكد له أنه لن يترك مكتبه قبل التوصل إلى نتيجة نهائية. وطلب إليه أن يشرف بنفسه على كشف العملية بكاملها:

" انظر يا بني، أول خطوة تقوم بها هي الاتصال بالأطباء الذين أصدروا الإجازات المرضية والتوصل إلى المكان الذي يتواجدون فيه ومراقبة اتصالاتهم الهاتفية وتسجيلها. أريد أسماءهم الكاملة مع رتبهم العسكرية وأرقام هواتفهم. حاول أن لا تحتك بأي إنسان ناهيك عن المصافحة، وإلا داهمتنا الكوليرا في عقر دارنا. بالمناسبة ما هي آخر أخبار الوباء؟"

" سيدي اتصلت بمدير الصحة العام. تم تقسيم العاصمة إلى سبعة قواطع معزولة عن بعضها بعضاً. منعنا تنقل الناس فيما بينهم. وتبين أن مصدر الوباء هو قاطع مربي الجواميس، لأن المنطقة ملوثة جدا. ويقول مدير الصحة أن معظم المصابين هم من الضعفاء والواهنين جسديا وتم توزيع الأدوية المضادة للذين يرجى منهم الشفاء فقط"

قال الباشا بلهجة خبير:

" هذا الوباء إجراء إلهي لإيقاف تضخم نفوس البشر، إنهم يتناسلون مثل الذباب. لولا الطاعون لتكاثروا واكلوا بعضهم بعضاً. على كل حال شوف شغلك. انا بانتظار اخبارك السارة. لا تنس أن تتبع معهم سياسة القبضة الحديدية"

قال الآمر وهو يهم بترك الغرفة بعد أن أدى التحية العسكرية:

" نعم سيدي، إن شاء الله موفقين"

ما أن ترك آمر الانضباط العسكري البناية، إلا وبدأ يتصل برؤساء الأقسام الخاضعة لإمرته، واضعا إياهم تحت الإنذار (درجة ج) وطالبا منهم الحضور فورا إلى مكتبه. وفي نفس الوقت أصدر أوامره إلى كافة أفراد وتشكيلات الانضباط العسكري بالانتشار في جميع أزقة وشوارع العاصمة وإلقاء القبض على كل من يشتبه به أنه ضابط في الجيش وذلك بعد تفتيش كل من لم يتجاوز الثلاثين من عمره. وتم إعلان حالة طوارئ شبه رسمية، مرتبطة ظاهريا بمكافحة الكوليرا. خلال أقل من ثلاث ساعات تم إلقاء القبض على مئات الشباب ممن يشتبه بهم كونهم ضباطا بسبب هندامهم واناقتهم ونظاراتهم وامتلأ موقف الانضباط العسكري بالناس من كل الأنواع. وكانت عمليات إلقاء القبض العشوائي تصاحبها الركلات والضرب بالعصي واللكمات والشتائم البذيئة وتشمل في كثير من الأحيان أناساً مسنين كل ذنبهم هو تذمرهم واستفسارهم عن سبب الحملة وعلاقتها بالكوليرا.

عندما حضر رؤساء الأقسام، كلفهم آمر الانضباط بالتوجه إلى ساحة الموقف والتدقيق في الوجوه والتقاط من يعرفونهم من الضباط. وجرى ضبط الحشد باصطفافهم على شكل صفوف متوازية تحت حراسة جنود شرسين يحملون الهراوات، يضربون كل من ينحرف عن الخط قيد شعرة. ومر الضباط الكبار، رؤساء الأقسام من أمام الصفوف وهم يدققون في الوجوه التي كساها التوتر والخوف ويستفسرون بسرعة عن الاسم والمهنة وتاريخ الميلاد وعنوان السكن. قال أحدهم انه ملازم في إحدى الوحدات بالجنوب، له إجازة أسبوع، جاء إلى العاصمة لزيارة أمه، ولكنه سرعان ما أعترف كونه ينتمي إلى إحدى وحدات العاصمة. أخرج فورا من الحشد وجرجروه إلى غرفة جانبية. أعقب ذلك ضابطان،

قالا انهما يتمتعان بالإجازة المرضية وهما من سكنة العاصمة. اقتيد الثلاثة إلى غرف جانبية ثم صدر الأمر من آمر الانضباط العسكري بتوجه الحشد في صفوف منتظمة إلى البوابة الحديدية التي تم فتحها على مصراعيها فالانصراف والتفرق كل إلى شأنه. كان الطبيب العسكري الذي منح الإجازات المرضية قد سبق له أن حضر وجلب معه حسب طلب الآمر ملف الإجازات المرضية التي منحها خلال الأسبوع الفائت. وهو ينتظر دوره في إحدى الغرف. أبقى آمر الانضباط ثلاثة من آمري الأقسام عنده، وأما البقية فطلب منهم أن يتواجدوا في مقارهم خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة. اعتذر من الطبيب لاستدعائه في مثل هذا الوقت المتأخر من النهار. كان الطبيب يعتقد طيلة فترة انتظاره أن حضوره هنا له علاقة مباشرة بالكوليرا، لذلك قال بقناعة من يؤدي واجبه:

" إننا يجب أن نضحي بكل شيء من أجل السيطرة على هذا الوباء يا سيدي، إنه واجب إنساني وأخلاقي"

قال الآمر وهو يتخذ مكانه على الكرسي الخشبي جنبه:

" كلامك صحيح دكتور. إن شاء الله سنقضي على الكوليرا بعونه تعالى. هناك بعض الأسئلة إن تفضلت بالإجابة عليها"

" نعم، تفضل سيدي"

" خلال الأيام الأخيرة حصل بعض الضباط على إجازات مرضية، هل من الممكن معرفة أسمائهم وعددهم ونوعية أمراضهم وأين قضوا إجازاتهم المرضية؟"

كان الطبيب لا يزال يعتقد أن الأسئلة لها علاقة مباشرة بظاهرة الكوليرا، فقال أنه لولا تعلق القضية بالمرض الفتاك، لما سمح لنفسه بالإجابة على أي من هذه الأسئلة، ذلك أن إعطاء المعلومات لأي جهة

كانت بدون موافقة المريض نفسه، ممنوع منعا باتا ثم أخرج من حقيبته ملفا يحتوي على قائمة بأسماء الضباط الذين حصلوا على الإجازات المرضية وقال:

" عدد الضباط سبعة وهذه أسماؤهم ...أمراضهم عصبية وإرهاق وأما أين قضوا إجازاتهم المرضية، فالعلم عند الله"

بعد أن شكره الآمر، قال ثمة ثلاثة ضباط في المعسكر، يشتبه أنهم مصابون بالوباء، لذلك يرجو أن يراهم فقط ويبدي رأيه بخصوصهم، إذا ما كانوا بحاجة لدخول المستشفى ويمكنه بعد ذلك الانصراف إلى شأنه. حين جلبوا الثلاثة إليهم، قال بصورة عفوية:

" هؤلاء هم من مجموعة السبعة، إنهم أبرياء، غير مصابين بالكوليرا"

تنفس آمر الانضباط الصعداء. ودع الطبيب الذي كان على عجلة من أمره ثم التفت بغضب إلى الثلاثة الذين كانوا ينظرون حواليهم بحيرة وقلق. أمر الآمر العرفاء الثلاثة الواقفين جنبه أن يشدو من وثاق الثلاثة ويقتادوا كل واحد منهم إلى زنزانة انفرادية ثم وجه كلامه إليهم قائلا:

" دوختم حتى الباشا نفسه يا أولاد الكلب يا انقلابجية. أردتم إسقاط ولاية بطيخ والإتيان بولاية بطيخكم الفاسد؟ هيا قودوهم إلى زنزاناتهم"

وانهال العرفاء بالضرب باللكمات والركلات والهراوات على الضباط الثلاثة وهم يشتمون:

" تريدون تصيرون وزراء يا أولاد القحبة؟ هل هذا هو شرفكم العسكري؟ التآمر على الباشا؟..."

اتصل الآمر بالباشا مباشرة وأبلغه بخبر إلقاء القبض على ثلاثة من مجموع سبعة ضباط متآمرين وسأله عن كيفية إجراء التحقيق معهم. شكره الباشا لجهوده المثمرة وقال أنه سيرسل لهم فورا ثلاثة محققين لإجراء اللازم. ونبهه لمواصلة البحث عن البقية.

اجتمع الباشا في مكتبه بالمحققين الثلاثة وقدم لهم الأسئلة التي ينبغي الإجابة عليها بدون مواربة وأعطاهم كامل الصلاحية في استعمال أقسى أنواع التعذيب، إما الاعتراف الكامل أو الموت. وتعهد أن يكافأهم بمنتهى السخاء، إذا تمكنوا من انتزاع اعترافات وافية. قالوا أنهم يؤدون الواجب وإنهم لا شك سيتوصلون إلى نتائج إيجابية تؤدي إلى الحفاظ على هيبة الدولة التي تتحدى الدهر وعاديات الزمن.

وصل المحققون مع زبانيتهم بشكل أسرع مما تصوره آمر الانضباط. كانوا ثلاثة محققين بملابس عسكرية برتبة مقدم وتسعة زبانية بملابس مدنية يحملون مختلف معدات التعذيب. توزع كل فريق إلى زنزانة تحمل رقما معينا حسب التسلسل:

الزنزانة رقم ١

الزنزانة رقم ٢

الزنزانة رقم ٣

استنتج محقق سجين الزنزانة رقم ١ الذي قال أنه من الجنوب عند إلقاء القبض عليه، أنه أضعف حلقة في السلسلة، إذ إنه ما أن وقعت عيناه على الزبانية الثلاثة وهم يواجهونه بأدوات التعذيب، إلا وأنهار كانهيار برج رملي، قائلا أنه مستعد للإدلاء بإفادته والإجابة على كل سؤال يطرح عليه:

" هل انت مستعد للإدلاء بافادتك أمام زميليك؟"

" نعم سيدي"

قال المحقق بلهجة مهدئة:

" انظر يا بني، أنت متهم بقلب نظام الحكم، أقل حكم يصدر عليك هو الإعدام، لذلك أنصحك نصيحة أبوية بأن لا تلف وتدور أو تحاول أن تضحك علينا. إنك إذا اعترفت بكل شئ وأعلنت ندمك، تجازي نفسك

بالعفو والرأفة وستحتفظ بوظيفتك كضابط غير مسلح في إمرة الإدارة. إن الباشا إنسان رقيق القلب وأنت شاب في مقتبل العمر وأمامك المستقبل. أنتم حتى إذا سيطرتم على السلطة ثم ماذا. ماذا تريد أن تغير من هذه الولاية. انا انصحك لوجه الله"

كانت الغرفة عارية لا تحتوي سوى على منضدة متهرئة قديمة وكرسيين. قال المحقق وهو لا يزال واقفا:

" نحن الآن في عجلة من امرنا، التحقيق سنبدا به فيما بعد، ولكن امامنا سؤال،اريدك أن تجيب عليه بصراحة"

قال المتهم وهو ضابط عسكري بملابس مدنية:

" نعم سيدي، سأجيب بكل صراحة"

" اين الأربعة الآخرون؟"

" ذهبوا إلى بيوتهم"

" هل تعرف عناوين بيوتهم؟"

" نعم سيدي"

" هل يمكنك ان تأتي معنا الآن وتدلنا على بيوتهم؟ لا تخف إنهم سوف لا يرونك ولن يعرفوا أنك الواشي بهم"

" هذه نقطة مهمة، وإلا سأتعرض للاغتيال. بالمناسبة لثلاثة منهم شقق صغيرة فضلاً عن مساكنهم الخاصة"

" سنذهب إلى كلا البيتين في آن واحد، شكرا للإيضاح الذي سيفيدنا جدا"

كانت سيارات الاستخبارات العسكرية الكاكية اللون تنتظر مع سواقها داخل فناء السجن. تشاور محقق الزنزانة الأولى مع المحققين الآخرين وأعلمهما بوضع المتهم الجالس في الزنزانة رقم (١) وانه الآن في طريقه للتحري عن بيوت المتهمين الطليقين على ضوء المعلومات التي

ادلى بها. وعلم منهما أن المتهمين رفضا التكلم إلا بحضور المحامي وطلبا الاتصال هاتفيا بما يسمى بلجنة العدالة. وكان الجواب، حسب اوامر الباشا، أن تم تعليقهما من رجليهما وتعذيبهما إلى أن يقرآ الحقيقة. وأكد سجين الزنزانة الأولى بدوره بأن هذين الاثنين ينتميان أيضا إلى ما يسمى ب(ضباط المقاومة) التي ينتمي إليها هو. وأمر الباشا بأن يكون تحري البيوت بعد هبوط الظلام وإذا تحقق لهم ما أرادوا وتم إلقاء القبض على الآخرين، يريد إحضار هذا الشخص، نزيل الزنزانة رقم (١)، إليه لمكافأته. وعندما بلغ المحقق المتهم بهذا الخبر، قفز فرحا بحركة بهلوانية وهو يقول:

" هل رايت سيدي المحقق؟ لقد أثمرت العملية وسأقطف انا ثمارها"

قال المحقق مبتسما:

" جيب نقش عوافي"

مع هبوط الظلام على أزقة وشوارع العاصمة الفارغة بسبب انتشار مرض الكوليرا، تحركت السيارات الخمس التابعة للاستخبارات العسكرية، تتقدمها سيارة مدنية خاصة تقل سجين الزنزانة رقم (١) مع المحقق المكلف للتحقيق معه. خلال فترة ساعة ونصف الساعة تمت عملية التحري وألقي القبض على ثلاثة ضباط، أما الرابع فلم يجدوه سواء في بيته الأصلي أو الشقة، لذلك تركوا في كل من البيتين ثلاثة جنود مسلحين، تخندقوا هناك بانتظار عودته إلى البيت فإلقاء القبض عليه. بعد منتصف الليل بقليل، رن الجرس وكان أن هرع الجنود الثلاثة إلى الباب. وتمكنوا من إلقاء القبض عليه دون مقاومة واقتادوه دون أن يفسحوا له المجال للتحدث مع زوجته. وكان ثملا إلى درجة الإعياء. وأعلموا زملاءهم المتخندقين في الشقة الأخرى بإخلائها والعودة إلى الثكنة.

ونتيجة للتحقيقات الطويلة التي استغرقت عدة أسابيع، تبين للمحققين أن هناك عدة مجاميع متنافسة فيما بينها، كل واحدة منها تريد الانفراد بإسقاط النظام والانفراد بالحكم. وتمكن الباشا عن طريق اعترافات بعض المتهمين أن يمسك بالخيوط التي تؤدي إلى المجاميع المتنافسة الأخرى وإلقاء القبض على رؤوسها وبدأت التحقيقات الفورية الصارمة التي رافقها التعذيب الشديد. كل ذلك سلط الأضواء على مخططات الضباط المعارضين لولاية بطيخ. وأما الذين ماتوا تحت التعذيب، فتم دفنهم سرا بأمر صادر من مديرية الصحة العامة، مفاده أن سبب الموت هو الإصابة بالكوليرا. وفي نفس اليوم خرجت مظاهرة أعدتها دائرة الأمن العامة، تردد:

عاشت ولاية بطيخ التي هي أقوى من مؤامرات المراهقين والخونة والمارقين.

الموت للمتآمرين الخونة...

(٢٣)

عندما عاد خير الدين كالعادة بالسيارة الفارهة إلى البيت، كانت الشمس قد غابت، ولكنه قبل أن يعرج إلى منزله، مر بشمس الدين الذي اعتصم بالبيت خوفا من الإصابة بالكوليرا. وفي الحقيقة أنه كان لا يخاف على نفسه بقدر خوفه من أن تصاب عزيزة المذعورة التي تتجنب مصافحة ولمس أي إنسان آخر. ولتفادي خطورة الإصابة جلب معه موظفا صحيا لحقنهم بالمصل الواقي الذي حصل عليه من مدير الصحة العام. وعندما تم إجراء اللازم، أوصى خير الدين سائقه بإيصال الموظف الصحي إلى منزله. وأن يمر في طريق عودته بمحل الخياط أيوب، حيث ينتظره شرف الدين كي يعود معه. وأما بالنسبة إلى كل من شرف الدين وأيوب ودنخة و سالم الجربوع، فقد سبق لهم أن لقحوا ضد الكوليرا منذ ظهور الإصابات الأولى ولذلك لا خوف عليهم من الاحتكاك بعامة الناس. والآن تخلص شمس الدين من الإقامة الجبرية التي فرضتها عليه عزيزة منذ أيام، على أن يترك البيت اعتبارا من يوم غد. كان شمس الدين قلقا ومتوترا بسبب الأوضاع غير الطبيعية التي تسود المدينة، ومما زاد من همومه، عدم إطلاعه الكامل على الأحداث.

وحاولت عزيزة عبثا تهدئته وقالت له أن سير الأحداث لن يتغير سواء اعرف بها أم لا، بيد أن المعلومات الجديدة التي جلبها خير الدين حول تفاصيل الأحداث وتطوراتها في المدة الأخيرة، بلورت عنده صورة شبه متكاملة عن الوضع. وحين وصل شرف الدين، أعطى صورة أوضح وكان أن اكتملت في مخيلة شمس الدين بشكل مرض. اتخذوا أماكنهم كالعادة في غرفة الضيوف دون زينة وساهرة، إذ أن عزيزة استغنت عن خدماتهما. وبدأتا تتخذان طريقا آخر في الحياة، ولكنهن بقين صديقات تجمعهن الزيارات المتناوبة. قال شمس الدين بعد صمت غير قصير، موجها كلامه إلى خير الدين:

" مصدر المعلومات الدقيقة ليس كمال المختفي عن الأنظار كما يبدو لي"

اجابه خير الدين بأن المصدر هو محامي ابو صباح الذي التقى به في إحدى المقاهي ودخل معه في حديث متشعب تطرق فيه إلى الأوضاع الاستثنائية التي فرضها الباشا على الناس والمهم في هذا الحديث هو قيام أبو صباح بسحب الدعوى وإغلاقها وإصراره على البحث عن القاتل والانتقام منه بشكل مباشر، ولذلك بعث المحامي معه رسالة شفهية إلى عزيزة يرجوها أن تساعده بالإجابة على بعض الأسئلة التي ستبقى فيما بينهما، دون أن تصل إلى القضاء، وعندما سأله شرف الدين إذا ما كان يشك في شخص معين، أجاب بلا، ولكنه اكد أن عزيزة يمكن أن تساعده بهذا الشأن. علقت عزيزة بصوت خائف واحتجاج واضح:

" إنهم لا يدعوننا وشأننا"

قال شمس الدين الذي فوجئ بالكلام:

" هذا الموضوع يجب أن نبحثه باهتمام بالغ. اعتقد إنهم يعرفون القاتل أو على الأقل يشكون فيه"

تساءلت عزيزة بحيرة:

" هل من الضروري أن ألبي طلب المحامي؟ ماذا لو رفضته؟"

أجاب شرف الدين:

" لا، ليس من الضروري تلبية طلبه"

قال شمس الدين:

" ولكن الرفض يعني، عمليا، إخفاء معلومات. أي الوقوف إلى جانب كمال نظريا و أخلاقيا"

قالت عزيزة بلهجة صارمة:

" إذا واجهني المحامي بأسئلته، فلا يمكنني أن اكذب عليه، أي إنني بصراحة سأورط كمال من حيث أريد أو لا أريد"

قال خير الدين:

" إن المشكلة المطروحة الآن، هي ليست مشكلتنا. إنها مشكلة كمال. ونحن لسنا مسئولين عن الدفاع عنه أو التهجم عليه. وهو يعرف وضعه أحسن من غيره. إنه قد بلغ قمة السلطة ويتنفس نفس الهواء الذي يتنفسه الباشا، ثم انه في المدة الأخيرة اختفى عن أنظارنا كاختفاء الزئبق في الرمل، فما بالنا نشغل أنفسنا به؟"

علق شمس الدين:

" كلامك صحيح يا خير الدين، ولكن المحامي ينتظر جواب عزيزة. إن المسألة تتعلق بالقتل واعلم أن صاحب القتيل شيخ عرب لن يتنازل عن حقه. سيدركونه حتى لو نام في جيب الباشا، وهذه الحقيقة يعرفها كمال نفسه. إننا يجب أن نتخذ موقفا يجنبنا لهب الحريق"

بعد صمت قصير أضاف:

" هل لكم حل معين؟ أم تريدون سماع حلي؟"

أجابوا بصوت واحد:

" الكلام لك يا شمس الدين"

تململ في مكانه وهو ينظر إلى الأرض كما لو أنه يلتقط منها أفكاره:

" يبدو لي أن كمال يريد أن يتركنا بعد أن قفز هذه القفزة إلى أعلى، ولما كانت مهماته الجديدة سرية، لذا ليس بإمكانه من الآن فصاعدا الاتصال بنا. ونحن بدورنا بلغنا مرحلة، لم نعد بحاجة إلى خدماته. أنتما يا شرف الدين ويا خير الدين ستبقيان هنا تديران مصالحنا من هذا البيت كالعادة. وأما عزيزة وأنا، فسنسافر إلى بلدتها، عسى ولعل سنلتقي بوالدتها التي أرجو أن تكون على قيد الحياة. وسنتزوج هناك على بركة الله وشرعه وسنقضي وقتنا بإحياء مزرعة تسترنا. وسنفكر فيما بعد إذا ما سنبقى هناك إلى الأبد، أم نعود إليكما بعد تهدئة الأوضاع. وبهذا تتخلص عزيزة من أسئلة المحامي الخطيرة. وابتعد أنا بدوري عن بعض الوجوه التي بدأت تنظر إلي بشك وريبة. وإذا التقيت بالمحامي مرة أخرى يا خير الدين، فقل له أن عزيزة قد سافرت إلى الريف، إلى أهلها، والريف واسع مثل أرض الله الواسعة"

قال خير الدين وهو لا يصدق ما عناه شمس الدين:

" ولكن لماذا هذه القصة المختلقة الطويلة، سأقول له أن عزيزة غير موجودة، إنها سافرت إلى الريف، وأبوك الله يرحمه"

" كلا، هذه ليست قصة مختلقة، إنني أعني ما أقول. لقد شبعت من حكاية ولاية بطيخ. أريد أن أترك هذه الولاية إلى الريف وهناك سنطهر أنفسنا من أدران الفساد. وأنا الآن بانتظار رأي عزيزة"

قالت عزيزة بارتياح:

" لقد شبعت أنا أيضا من سجن هذه الجدران الأربعة، رأيي مع رأيك، ولكن يجب أن نسافر فورا بدون تأخير. كنت أخفي طيلة الوقت هذه الأمنية في ذهني وأنا أتردد في إظهارها لسبب لا أعرفه. كم أنا مشتاقة إلى

أمي التي لابد أنها تنتظر عودتي. يكفي أنني عاقبتها طوال هذه الفترة الطويلة بصورة ظالمة"

قال شرف الدين وهو ينظر في وجه خير الدين، موجها كلامه إلى شمس الدين وعزيزة:

" وهل تعتقدان أننا سنترككما وحدكما؟ سنكون وراءكما حتى لو صعدتما إلى السماوات السبع اللانهائية"

قال شمس الدين بقناعة:

" أعرف ذلك جيدا يا شرف الدين، ونحن بدورنا لن نترككما وحدكما أبدا ولكنكما يجب أن تصفيا أعمالنا هنا بهدوء ثم نستقبلكما هناك وسندخل في التفاصيل فيما بعد. ولغرض ترتيب الأمور النهائية، سأزوركما بعد استقرار عزيزة هناك. إننا قبل كل شئ يجب أن نجد موقع قدم في بلدتها"

تساءل شرف الدين:

" وعليوي؟ هل ستأخذانه معكما؟ إننا نحتاجه هنا في البيت"

قالت عزيزة مبتهجة:

" سنتشاور معه فيما بعد"

كادت عزيزة لا تصدق ما نطق به شمس الدين وهذا هو نفسه لا يدري كيف هبطت عليه الفكرة، بيد أنه فكر: لا شك أنها مقاومة داخلية، تسير نفسها ذاتيا دون إرادة من أحد. إن الأوضاع، في نظر شمس الدين، قد تغيرت وأن الأحداث التي تتضارب وتتداخل مثل أمواج بحر هائج، تقترب منهم بسرعة كي تطوقهم وتحصرهم في زاوية مشئومة لا مخرج منها. والحل الوحيد الذي خطر بباله هو الانسحاب الفوري من هذا المكان الذي أوصلهم إلى قمة النصر التي لم يحلموا بها، وإلا فإن أقل تأخير في تنفيذ الفكرة، سيوقعهم في فخ لا مهرب منه، ولا سيما لأن سكوت كمال قد طال. وأنه في كل الأحوال لا يضحي بعلاقته الجديدة مع

الباشا من أجل عيونهم السوداء. إنهم لا يتمكنون أن يضمنوا له حياته مثلما يضمنه الباشا، رغم أن ضمانات الباشا وقتية ايضا، فالثأر الذي لوح به ابو صباح لا يمكن أن تصده اية قوة على الأرض.

رغم أن محامي الدفاع عن المغدور صباح قد وافق، بتخويل من ابو صباح، على غلق القضية، فإنه، باقتراح من ابو صباح، أعاد قراءة الملف من جديد وبعناية تامة، الغرض منها التعرف عن كثب على القاتل الحقيقي الذي اطفأ شمعة حياة فلذة كبده. واكد له ابو صباح أن حاسته السادسة تقول له دوما أن القاتل هو كمال. إن هذا الهاتف يأتيه دوما من أعماقه وأنه لا يجد له تفسيرا. والغريب في الأمر أن مرافقه مهاوش زعيان، يؤكد له نفس الشيء، ولكنهما لا يملكان أي دليل ضد هذا الرجل الذي ربما أنه برئ براءة الذئب من دم يوسف. ولذلك كلف أبو صباح محاميه أن يكون دقيقا ومحايدا في بحثه عن الحقيقة. بناء على كل ذلك قرر المحامي، رغم إطلاعه على كل شيء، الاتصال شخصيا بعزيزة وأفراد بيتها وكذلك الاتصال بكمال نفسه. حاول في البداية الاتصال بعزيزة عن طريق الهاتف، ولكن عبثا، إذ أن عزيزة وشمس الدين قد اتفقا على عدم رفع سماعة الهاتف المنزلي. قرر المحامي أن يتصل بها في وقت آخر، على أن يذهب فورا إلى كمال في الدائرة.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة حين أصبح المحامي على مقربة من مقر كمال. خابره من عند الموظف المسئول عند البوابة قائلا أنه عن طريق الصدفة هنا، على مقربة منه، وهو يحب أن يلتقي به وإن كان لديه الوقت الكافي، فيمكنه دعوته إلى تناول طعام الغداء في المطعم القريب من هناك. رحب كمال بالفكرة والتقيا عند البوابة ثم اتجها إلى

المطعم الفاخر القريب من مقر مركز الشرطة العام. في البدء هنأه المحامي، في طريقهما إلى المطعم، لتسلمه المهام الجديدة التي جاءت بتكليف مباشر من الباشا نفسه. ولما سأله كمال عمن سمع هذا السر؟ أجابه المحامي باستخفاف:

" السر؟ وهل تصدق بوجود سرّ في هذه الولاية يا صاحبي. إن السر هو مجرد عملية ضحك على الذقون. أنا مثلا أعرف كل شيء عنك. والباشا يعرف كل شيء عني. إن من يريد أن يطلع على سر ما، يجب عليه أن يدفع لمقابله سرا ما وهكذا"

فوجئ كمال بهذا الشيء الغريب الذي يكاد لا يصدقه، ولكنه صدقه في قرارة نفسه. ووجد المحامي أن الفرصة سانحة من أجل انتزاع اعترافه بخصوص مقتل صباح، ولذلك قال بشكل استفزازي:

" كمال بك، إننا صديقان حميمان، أكررها لك بصراحة أن كل شيء مفضوح في زمن ولاية بطيخ. إن ما تعتبره أنت سرا، أراه أنا شيئا مفضوحا وليس سرا. هل تعتقد أن الناس لا يعرفون بعلاقتك بعزيزة وشمس الدين وعصابته؟ ومقتل صباح؟ هل هو سر فعلا؟ ألم تكن أنت موجودا في الماخور حين تم القضاء عليه؟ وهل تعتقد أن الباشا أناط إليك هذه الوظيفة المهمة من أجل سواد عينيك؟ إن ملفك زاخر بالفضائح وآخر فضيحة هو مقتل شخص متظاهر بريئ، أقول إن ملفك محفوظ لديه. إنه بذلك يمسك بخناقك بكلتا يديه.."

أحس كمال بأعصابه تنهار وتهتز وتتوتر. والشيء الوحيد الذي توقف عنده هو مقتل صباح الذي أثار فضوله:

" أنت محامي لك صلاتك التحتية المستترة، قل لي ماذا تعني بمقتل صباح؟ وكيف عرفت بصلتي به؟"

قال مهدئا إياه:

" لا تخف يا كمال بك. إن القضية قد اغلقت وانتهت، ولكن ابو صباح يشتبه بك، إنه مجرد شبهة ضعيفة، كان من المفروض ان انقب عنها انا وابلغه بالأمر، ولكنني، انا المحامي المحلف، لا استطيع أن ألعب دور المخبر الرخيص. وإذا عرفوا بأنك انت القاتل، لتحولت إلى جثة هامدة"

كسا الشحوب وجه كمال وهو يقول:

" ماذا افعل كي اتخلص من هذه الورطة؟"

قال المحامي وهو يهز رأسه:

" قدم خدماتك للباشا بإخلاص، فهو يعرف كيف يحميك"

" يعني أن اربط مصيري بمملكة الشياطين او بالأحرى بولاية بطيخ"

" هذا هو القدر الذي اخترته انت بنفسك"

كانا قد اتخذا مكانيهما حول مصطبة مدورة في ركن خفي، بعيداً عن لغط وثرثرة الزبائن الذين كانوا يأكلون بشهية مفتوحة.

المانيا الاتحادية، ماركليبيرك:

٠٨/٦/١٧ -٠٩/٧/٢٣